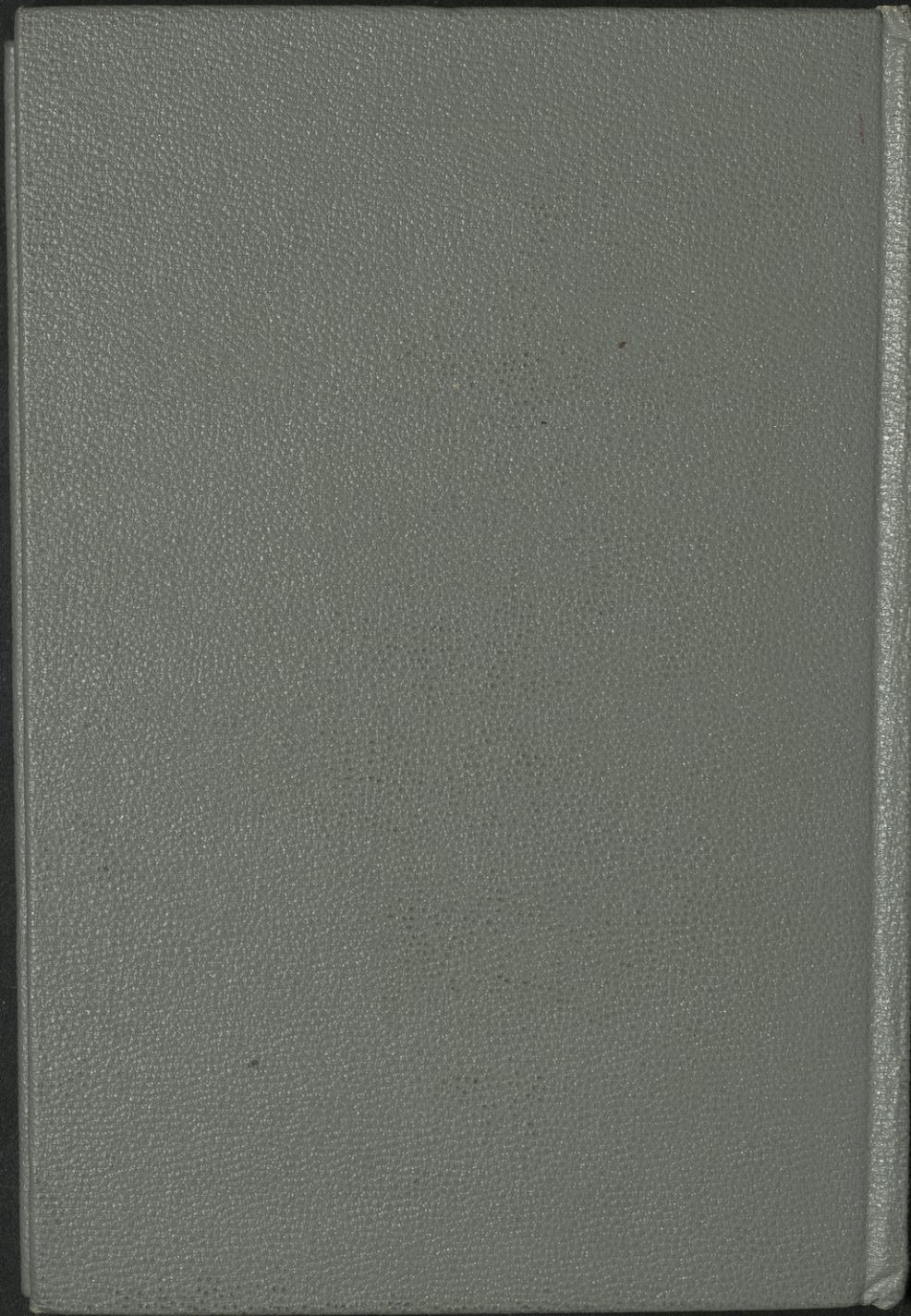
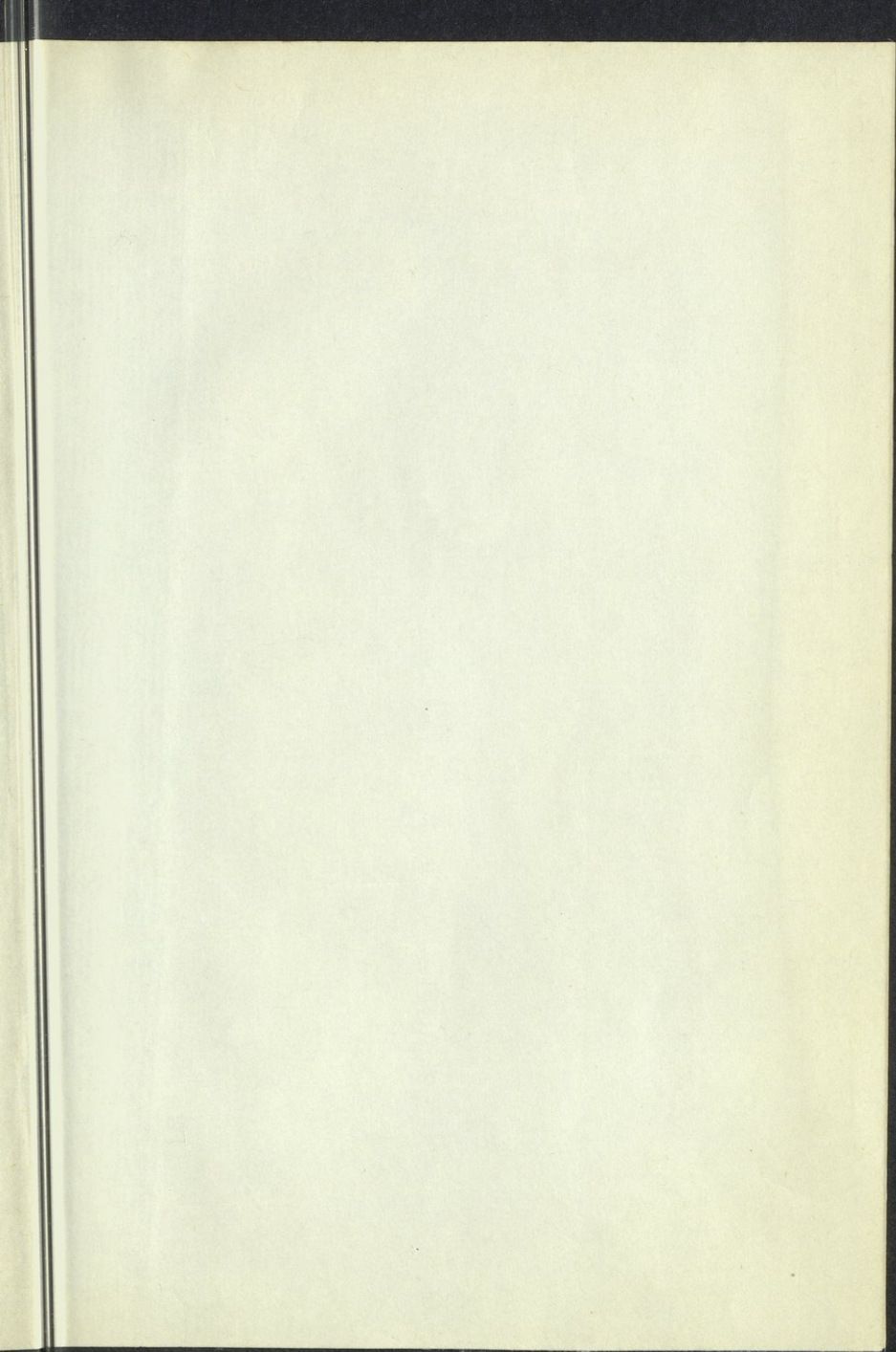
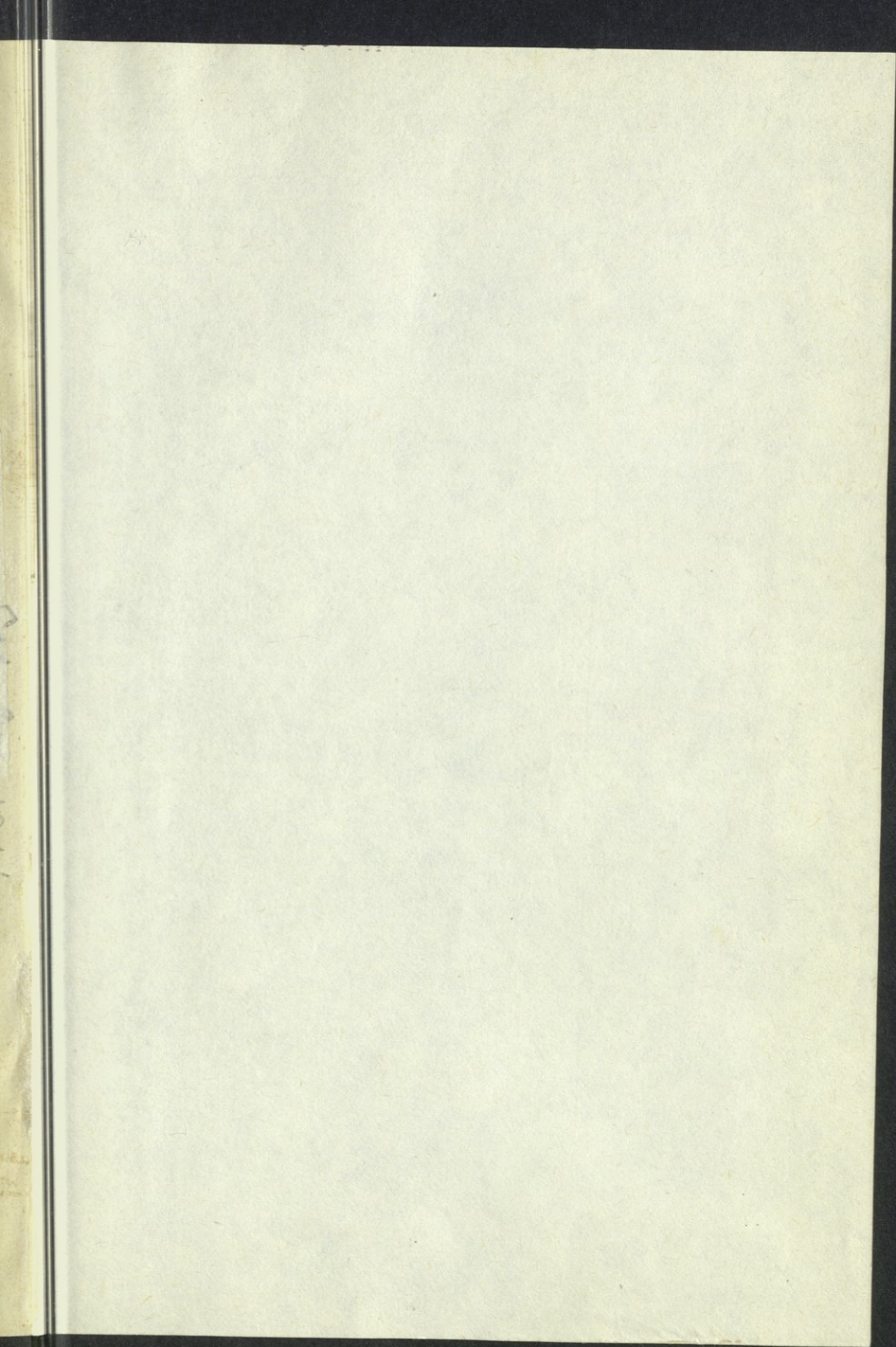




A. U. B. LIBRARY

744011 51-2





828.

D548aA

C.1

أزوع القصص

للكاتب العبقري والمصلح الاجتماعي تشارلز دكنز

بسم
بقلم

محمد عطية الأبراشي

مخرج جامعة أكسفورد

الأستاذ بدار العلوم

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

67132

ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

1946

100

5

فَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

وَفَدَحَقْنَا فِيهِ

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فهذه القصص صور من الحياة الإنسانية ، ومُثل لما ينتابها من الآلام ، دعاني إلى تقديمها إلى الشعب المصرى الكريم شغف بالتقويم الخلقى ، وحب للإصلاح الاجتماعى فى مصر ، وترغيب المتعاملين فى القراءة والاطلاع ، وتزويدهم بكثير من الألفاظ والعبارات والأفكار ؛ لتكون ذخيرة لهم فى حياتهم العلمية والأدبية .

وسيرى القارئ فيما كتبه عن « تشارلز ديكينز » أنه كان أديباً إنكليزياً كبيراً ، ومصلحاً عظيماً ، ينصر الضعفاء ، ويدافع عن اليتامى والفقراء ، لا يفكر إلا فى الإنسانية ، ولا يكتب إلا للإنسانية ، وقد كان لكتابته أثرٌ كبير فى إصلاح الحياة الاجتماعية بانجلترا فى القرن الماضى .

وإن ما كتبه (ديكينز) عن حياة الطبقة الفقيرة بانجلترا لا يبعد كثيراً عما نراه أمامنا فى يومنا هذا بين المجتمع المصرى من

الحاجة إلى الإصلاح الاجتماعى والخلقى والصحى والعلمى فى كثير من نواحي الحياة .

وإني إذ أقدم للقراء تلك الخلاصة من روايات (دكنز) آمل أن يكون لها فى مصر والشرق من الأثر الحسن ما كان لها فى المجتمع الإنكليزى من قبل .

وقد روعى فى كتابتها المحافظة على الغرض الأسمى الذى من أجله وضعت هذه القصص ، وهو حب الإصلاح ، مع العناية بجزالة اللفظ ، ورصانة الأسلوب ، بحيث يجد القارئ ثروة فكرية ، وخيالية ، ولغوية ، فى كل قصة يقرأها .

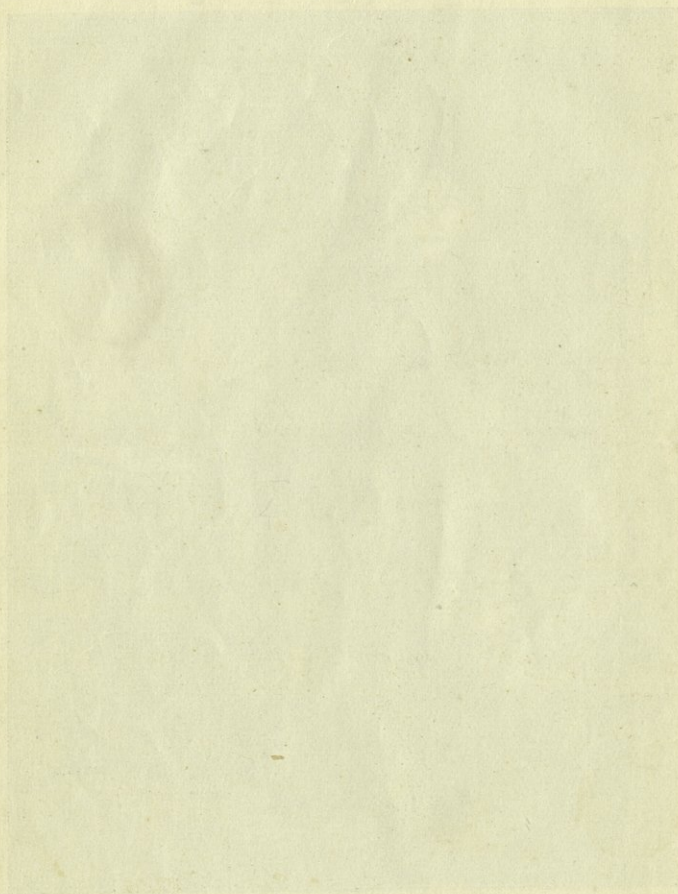
فإن وفقتُ فى أداء بعض الواجب نحو مصر العزيزة والأمم الشرقية الصديقة بنشر تلك القصص الخلقية والاجتماعية فذلك ما أبغى .

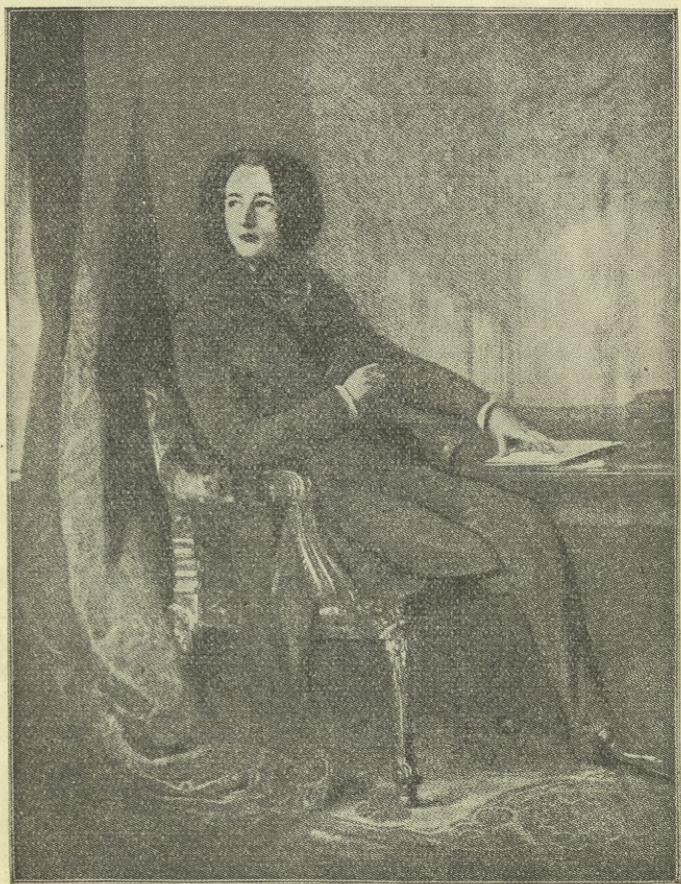
وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلتُ وإليه أنيبُ .

محمد عطية الأبراشى

١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٥٧

٦ من فبراير سنة ١٩٣٩





تشارلز دکنر

حياة تشارلز دكنز

في قرية (لاندبورت) بانجلترا كان يعيش أبواه . وقد كان الأب فقيراً ذا أسرة كبيرة ، فاضطُرَّ إلى الاستدانة ، وظل سنين طويلةً يقاتلُ الحياة ، والحياة تقاتله ، حتى حُكِمَ عليه بالسجن في (مرشالسي) لعدم الوفاء بما عليه من الديون .

نزلت الأم إلى مُعترك الحياة لتعمل ؛ كي تعول^(١) أولادها الثمانية بعد أن سُجن زوجها وفُصِّل من وظيفته ؛ ففتحت مدرسةً لتعليم البنات ، ولكنَّ سوءَ الحظِّ لازمَ تلك الأسرة ؛ فلم يُقبلَ على تلك المدرسة أحدٌ ، ولم يَزُرْها سوى المطالبين بديونهم . وأمامَ قسوةِ الحياة لم تجد الأم مفرّاً من إخراج ابنها (تشارلز دكنز) من المدرسة ، وإرساله إلى المصنِّع ليكسبَ معيشته بنفسه ، ويتمكّن من مساعدة أسرته ، ويتقنَ شرَّ الفاقة والاستجداء . فودَّعَ المدرسة مكرهاً ؛ ليعملَ بالمصنِّع نهاراً ، وهو غلام لم يَعدْ^(٢) الثانية عشرة من عمره .

(١) تأتي بالقوت وتنفق عليهم (٢) لم يَعدْ : لم يتجاوز .

كان (تشارلز) الابن الثاني من ثمانية أولاد ، وقد وُلِدَ لسبع خَلَّتْ من فبراير سنة ١٨١٢ م . وحينما كان بالمدرسة أظهرَ ميلاً للدرس ، وحباً للقراءة ، وشغفاً كبيراً بالقصص . وقد كان دقيقَ الإحساس ، رقيقَ العواطف ، واسعَ الخيال ، حادَّ الذاكرة ، قوىَّ الملاحظة ، كثيرَ الصبر ، مرحاً طروباً لا تكاد الابتسامة تفارق شفتيه . وقد منحه الله صوتاً عذبا ، وقُدرةً عجيبةً على محاكاة الأصوات التي يسمُّعُها .

قاسى (تشارلز كنز) كثيراً من البؤس والشقاء وهو طفلٌ ، وكان ينامُ في البردِ كقِطَّةٍ مُشرَّدةٍ لا تجدُ لها مأوى . وكثيراً ما باتَ على الطوى^(١) .. اختلطَ بصُناعٍ تنقصُهم التريسةُ والتهذيبُ ؛ في أخلاقِهِمْ جفافٌ ، وفي طباعِهِمْ خُسونةٌ ، وفي مُعاملاتِهِمْ قسوةٌ . وقد أفادته تلك الأيامُ التي قضاها في المصنع — في حياته المستقبلية ؛ إذ كانت مَنبَعاً فياضاً لا يَغِيضُ^(٢) مَعِينُهُ ، ولا تَنْضُبُ^(٣) موارِدُهُ ، حينما أراد أن يُصوِّرَ حياةَ الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل بتلك الصورِ المحزنةِ التي جعلت الشعبَ الإنكليزى وقتئذٍ يأمسُ في خزيٍ وخجلٍ ما يُعانيه الفقراء من فقرٍ ومُتربةٍ ، وذُلٍّ وشقاءٍ ،

(١) الطوى : الجوع (٢) غاضَ الماءُ : قلَّ وانضبَ

(٣) نضبَ الماءُ : غار في الأرض .

ومتاعب وصعاب؛ في أعمالهم ومساكنهم ومدارسهم ومستشفياتهم
وملاجئهم وسجونهم ومصانعهم .

بعد حين قيض^(١) الله لتلك الأسرة من يُنقذُ عميدها من
السجن، ويؤدّي ما عليه من الدين . وبذا أتاحت الفرصة (لتشارلز)
أن يعودَ إلى حياةِ الدرس والتحصيل ، وأدخلَ مدرسةً لم يجدَ فيها
ما يروى ظمأه ، ويُطفئُ غلته^(٢) ، فانهارت صروحُ آماله ، وأخذَ
يعتمدُ على نفسه في القراءة والاطلاع .

ولما بلغَ من العمر خمسَ عشرةَ سنةً اشتغلَ كاتباً لدى أحدِ
المحامين ، ثم تعلّمَ فنَّ الاختزال ؛ ليتمكنَ من أن يكتبَ لإحدى
الصحفِ ما يُلقي في مجلسِ النواب من خطبٍ ، وما يدورُ فيه
من مناقشاتٍ .

وبعد عامين اشتغلَ بالصحافة وأخذَ يجوبُ القرى ، ويختلطُ
بalfلاحين ، ويكتبُ مذكراتٍ عما يشاهدُ ويرى في الريف ،
ويبعثُها^(٣) إلى الصحف . وفي هذه الفترة اكتسبَ كثيراً من
التجارب ، وعرفَ كثيراً عن الحياة والأخلاق والعادات .

(١) قيّض الله فلاناً لفلان : أي جاءه به وأتاحه له .

(٢) الغلة : حرارة العطش . (٣) يرسلها .

اتسعت آمالُ (دكنز)، وأخذ يكتبُ مقالاتٍ للصحفِ،
فتفتحت له أبوابُ المجدِ والخلودِ، واندفع إلى العملِ، يحدوه الأملُ،
ويحفزه^(١) الرجاء. وجدَ القراءَ لذةً في قراءة ما يكتبُ؛ لأنه كان
يصفُ الحياةَ، وما في الحياةَ، بدقة كبيرة، وتصوير نادرٍ، وأسلوب
عذب، فأقبلوا على مقالاته، فقدره أصحابُ الصحفِ حقَّ قدره،
وأخذ حظُّه يرتفعُ، وبدأت الحياةُ تبسُّمُ له، وقرَّر له خمسة (جنيهاً)
في الأسبوع، زيدت إلى سبعة بعد قليل. وهذا قدرٌ لم يكن يحلمُ
به كثيرون من كتَّابِ إنجلترا وشعرائها في ذلك الوقت. ثمَّ جمعَ
مقالاته في كتاب باع حقَّ طبعه بخمسين ومائة (جنيه) وهو في
الثانية والعشرين من العمر.

أما بقيةُ حياةِ (دكنز) فكانت انتصاراتٍ تتلوها انتصاراتٌ،
ترتفع باسمه إلى عالمِ النبوغِ والعبقريَّةِ والخلودِ في عالمِ الأدبِ.
ألفَ كثيراً من الكتبِ والرواياتِ المملوءةِ بالمضحكاتِ والمُبكِياتِ،
ووفَّقَ في تمثيلِ بعضِ رواياته توفيقاً كبيراً، وأكثرَ التنقلَ بين
المدنِ للاقاءِ المحاضراتِ، وتمثيلِ الرواياتِ، فأقبلَ عليه الجمهورُ

(١) يدفعه ويسوقه.

المتعطش لرؤيته وسماعه من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ ، ودرَسَ بَيِّنَاتٍ
جديدةً ، واكتسبَ أموالاً كثيرةً ، واشترى لنفسه البيتَ الذي
كان يتمناه في الحياة .

دُعِيَ (دِكنز) في سنة ١٨٤٢ لزيارة الولايات المتحدة وكندا ،
فلَبَّى الدعوة ، ونزلَ ضيفاً مكرماً على الشعب الأمريكي ،
وقدَّرت مؤلفاته التقديرَ كله ، ورجحَ كثيراً من المالِ ، بيدَ أنه
كان يُنفقُ أكثرَ مما يربحُ . وبعد أن كانت حياته الزوجية
سعيدة تَغَيَّرَت تلك الحياة ، وانقلبتْ إلى عناءٍ وشقاءٍ ، ففارقَ
زوجه سنة ١٨٥٨ م .

تعبَ (دِكنز) كثيراً في حياته ، وأجهدَ نفسه في تأليفه
وتمثيله ومحاضراته ؛ حباً لإرضاء الشعب . وثابرَ على عمله حتى وافاه
القدرُ المحتومُ في التاسع من يونيه سنة ١٨٧٠ م ، وهو في
الثامنة والخمسين من عُمره ، بعد أن سطرَ اسمه في سجلِّ الخلود .
خزنت إنجلترا لوفاته حُزنها على (شكسبير) وقد أودعَ جُثمانه
مع العظماء وقادة الرأي والعمل في (وستمنستر آبي) .

وإن نظرةً واحدةً إلى (دكنز) في حياته تبين لنا أنه وهب نفسه وحياته لبلاده ، وكان من القادة الذين تجوّد بهم الطبيعة ليكونوا رسل خير وإصلاح لأوطانهم . استطاع بنقده اللاذع ووصف ما يقاسيه الفقراء من آلام — أن يبكي كثيرين من قراء لم يروا تلك الحياة ، ولم يسمعوها عنها شيئاً ، وبلغت قادة الأمة إلى تلك المخازي التي تُودي بالشعب ، ويدعوهم إلى العمل على تحسين مُستوى الطبقات الفقيرة من النواحي العامية والخلقية والعقلية والاجتماعية والصحية .

لم يستفد عبقريُّ من البيئات التي عاش فيها كما استفاد (دكنز)؛ ولعل ذلك راجعٌ إلى قوة ملاحظته ، ومثابرته ، وقدرته على استعادة الصور التي يراها في المجتمع ، وإلى خياله الخصب الذي كان يُسبغ على الحقائق في الحياة ثوباً قشيباً جذاباً فيه شيء من المبالغة التي تستسيغها النفس ، وتتطلبها الدعوة إلى الإصلاح ، تلك الدعوة التي وهب رُوحه لها . استطاع أن يصوّر الأمور العادية من الشارع والحنوت والضباب بثروة من الصور الخيالية التي تُعطى تلك الأمور العادية حياةً ، بحيث يشعر القارئ بما يصفه (دكنز)

كَأَنَّمَا يَرَاهُ بَعِينِيهِ ، وَيَسْمَعُهُ بِأُذُنِيهِ ، وَيَذُوقُهُ بِلِسَانِهِ ، وَيَعِشُهُ بِيَدِهِ ،
وَيَسْمُهُ بِأَنْفِهِ .

وَبِقُوَّةٍ مَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ (دَكْنَز) اسْتَطَاعَ أَنْ يُخَاطَبَ الْقَارِئَ
بِقَلْبِهِ ، وَيَسَيِّرَ عَلَيْهِ وَيَمْتَلِكَ حَوَاسَّهُ وَنَفْسَهُ ، فَيُبْكِيهِ حِينًا ،
وَيُضْحِكُهُ أُخْرَانًا ، وَيَنْتَقِلُ بِهِ مِنَ الْبُكَاءِ إِلَى الضَّحْكِ ، وَمِنَ الضَّحْكِ
إِلَى الْبُكَاءِ . وَهِيَ صِفَةُ ظَاهِرَةٍ فِي كِتَابَتِهِ ، تُلَازِمُهُ مِلَازِمَةُ الظِّلِّ
لِلْإِنْسَانِ ؛ فَيَنِمَّا تَنْسَى نَفْسَكَ وَتَبْكِي وَأَنْتَ تَقْرَأُ ، يَنْتَقِلُ بِكَ إِلَى
صُورَةٍ أُخْرَى تَضْحِكُكَ وَتُبْعَثُ السُّرُورَ فِي نَفْسِكَ ، كَأَنَّهُ يُشْفِقُ
عَلَيْكَ مِنَ الْبُكَاءِ .

وَإِنَّهَا لِمَقْدَرَةٌ عَظِيمَةٌ تِلْكَ الَّتِي تَمَكَّنُ صَاحِبَهَا مِنْ أَنْ يُضْحِكَ
وَيُبْكِي مَنْ يَشَاءُ كَمَا يَشَاءُ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَصِفُ فِيهِ بِطَرِيقَةٍ
قَصَصِيَّةٍ عَيُوبَ الْمُجْتَمَعِ ؛ مُحَاوَلًا أَنْ يَصِلَ إِلَى الْعِلَاجِ الَّذِي
يَرَاهُ وَيَرْضِيهِ .

كَانَ (دَكْنَز) يَعِيلُ إِلَى الْمُبَالَغَةِ لِيُؤَثِّرَ فِي نَفُوسِ قَارِئِيهِ ، كَيْ
يَعْمَلُوا عَلَى إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ ، وَإِزَالَةِ مَا بِهِ مِنْ شُرُورٍ وَأَثَامٍ ، وَمُظَالَمَةِ
وَأَلَامٍ . وَفِي كُلِّ رَوَايَةٍ مِنْ رَوَايَاتِهِ كَانَ يَتَجَبَّهُ إِلَى إِصْلَاحِ بَعْضِ

نواحي الحياة. وإن كانت انجلترا مدينةً لأحدٍ فهي مدينةٌ (لدكنز) في إصلاح حياتها الاجتماعية.

ولقد كان لما لاقاه (دكنز) في طفولته وغلومته وشبابه ورجولته، ولما منحه الله من ذكاءٍ نادرٍ، وعاطفةٍ نبيلةٍ، ولسانٍ فصيحٍ، وخيالٍ قويٍّ، وبديهةٍ حاضرةٍ، وملاحظةٍ قويةٍ، ومنطقٍ سليمٍ، ومثابرةٍ عظيمةٍ، ونفسٍ مريحةٍ، وميلٍ إلى الدعابةٍ — أثرٌ كبيرٌ في نجاحه في كتابته وتثيله، وفي امتلاك قلوب الشعب، والعمل على تقويم مُعوجّه، وإصلاح عيوبه. ولا عجب إذا أحبه الشعبان: الإنكليزي والأمريكي.

كان (دكنز) في كتابته الكاتب المبدع، والفنان القدير، والمصور الماهر، يُصور ما لحظه في الحياة، ويصف ما أحسّه، وما شعر به؛ يُصور ما رآه بعينه، وما سمعه بأذنيه، وما لمسّه بيده. لا يعرف الرياء، والرياء لا يعرفه. لا يحب النفاق. والنفاق يُنكره.

كان في بدء حياته فقيراً جرب آلام الفقر، ولا يحس آلام الفقر من الجوع والعري والبرد إلا من شعر بالفقر وذاق مرارته. وضع نفسه موضع الفقراء، يدافع عما لحقهم من ظلم وعدوانٍ،

وَيَنْتَصِرُ لِلْمَظْلُومِ ، وَيَشْجَعُ الضَّعِيفَ ، وَيُدْخُلُ الْأَمَلَ فِي قَلْبِ
مَنْ لَا أَمَلَ لَهُ وَلَا رَجَاءَ ، فَأَحْبَبَهُ الْقُرَّاءُ كُلَّ الْحَبِّ . وَقَدْ كَانَتْ
مُشَارِكَتُهُ الْجُمْهُورَ فِي شَعُورِهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ نَجَاحِهِ فِي حَيَاتِهِ الْأَدَبِيَّةِ .
وَهُوَ فِي هَذَا كَشَكْسِيرٍ فِي دِرَاسَتِهِ نَفْسِيَّةَ الْمُجْتَمَعِ ، وَتَقْدِيرِهِ
لشَعُورِهِ ، يَتَأَلَّمُ لِمَا يُؤْلِمُهُ ، وَيُسِّرُ لِمَا يُسْرِهُ ، وَيَشْعُرُ بِمَا يَشْعُرُ بِهِ .

كُتِبَ (دَكْنَز) عَنْ الْمُسْتَشْفِيَّاتِ وَالْمَصْحَاحَاتِ وَالْمُلَاجِي
وَالسَّجُونِ وَالْمَدَارِسِ ، وَوَصَفَ مَا يَقَاسِيهِ نَزْلًا وَهَاجًا مِنْ ظَلَمٍ وَقَسْوَةٍ ،
وَمَا يَجْرِي فِيهَا مِنْ فَوْضَى وَإِهْمَالٍ ، ثُمَّ عَرَضَ لِأَوَّلِكَ الْمَشْرَدِينَ
الَّذِينَ يَذَرَعُونَ الشَّوَارِعَ لَيْلًا ، لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ مَأْوًى يَأْوُونَ
إِلَيْهِ ، فَوَصَلَ بِكُتَابَتِهِ إِلَى الْقُلُوبِ ، وَحَرَّكَ فِيهَا عَوَامِلَ الْحُبِّ
وَالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ ، وَأَبْكَتْ كُتَابَاتُهُ آلَافًا مِمَّنْ لَمْ يَخْبُرُوا تِلْكَ
الْحَيَاةَ وَلَمْ يَعْرِفُوا عَنْهَا شَيْئًا ، وَدَفَعَ بِالنَّفُوسِ إِلَى الْعَمَلِ السَّرِيعِ
لِإِتْقَازِ الْإِنْسَانِيَةِ الْمَعْدَبَةِ مِمَّا تُعَانِيهِ مِنْ بُؤْسٍ وَشَقَاءٍ . وَقَدْ وَصَلَ إِلَى
مَا يَبْغَى مِنَ الْعَدَالَةِ وَحَسَنِ مَعَامَلَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَرْضَى وَالْعِجْزَةِ
وَالْيَتَامَى ، وَإِصْلَاحِ الْفَاسِدِ ، وَأَدَاءِ الْوَاجِبِ نَحْوَ الْإِنْسَانِ . وَبِهَذَا
أَدَّى (دَكْنَز) رِسَالَتَهُ خَيْرَ أَدَاءٍ ، وَجَازَاهُ اللَّهُ خَيْرَ جَزَاءٍ ، وَوَفَّقَ
إِلَى مَا لَمْ يُوَفَّقْ إِلَيْهِ الْمَعَاصِرُونَ لَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَالْكَتَّابِ بِانْجِلْتِرَا .

القصة الأولى

دأفید کپر فیلد

فی قریة (بَلَنْدِرْسْتُون) مِنْ مُقَاطِعَةِ (سَافُك) عَاشَ (دَافِیدُ کَپر فِیلْد) ، فی مَنْزِلٍ صَحَّیِّ تَحْنُو^(١) عَلَیْهِ بَیْنَ جَنَبَاتِهِ وَالِدَةٌ رَعُومٌ تُحِبُّهُ کُلَّ الْحُبِّ ، وَفَقَتْ عِنَايَتَهَا عَلَی رَاحَتِهِ ؛ لَتَعُوِّضَهُ فَقْدَانِ وَالِدِهِ . وَكَانَ مَعَهُمَا فِی هَذَا الْبَیْتِ خَادِمٌ رَحِيمَةٌ الْفَوَادِ طَالَمَا بَذَلَتْ الْوَدَّ لَذَلِكَ الْطِفْلِ الصَّغِيرِ ؛ لِتَجْعَلَ لَهُ مِنْ عَیْشِهِ سُرُورًا وَمَرَحًا^(٢) . وَكَانَ « لَدَافِید » عَمَّةٌ كَبِيرَةٌ السِّنِّ ، طَوِيلَةُ الْقَامَةِ ، شَدِيدَةُ الْمَعَامَلَةِ ، زَارَتْ الْأُسْرَةَ مَرَّةً أیَّامَ وَلَادَتِهِ ، فَتَأَلَّمَتْ — عَلَی غَیْرِ الْعَادَةِ — إِذْ كَانَتْ تَتَمَنَّى أَنْ یَكُونَ الْمَوْلُودُ بِنْتًا .

مَضَتْ الْأَيَّامُ وَدَرَجَ (دَافِیدُ) مِنْ حِجْرِ أُمِّهِ وَبَیْنَا الْأُسْرَةَ الصَّغِيرَةَ فِی حَالٍ تَبَعَتْ عَلَی الرِّضَا وَالطَّمَأْنِينَةِ ، وَ(دَافِیدُ) قَانَعَ بِحَیَاتِهِ الْمَنْزِلِيَّةِ ، إِذْ زَارَهَا رَجُلٌ طَوِيلٌ ، عَابَسُ الْوَجْهِ ، أَسْوَدُ الشَّعْرِ ، انْقَبَضَ صَدْرُ « دَافِید » لِرُؤُوسِهِ ، وَتَمَلَّكَتْهُ الْغِیرَةُ عِنْدَمَا شَعَرَ بِأَنَّهُ یَرِیدُ أَنْ یَتَّخِذَ مِنْ أُمِّهِ زَوْجًا .

(١) تعطف علیه . (٢) شدة الفرح والنشاط .

لم يُطِقْ (دافيد) على ذلك صَبْرًا ، فرأتِ الخادمُ أن تذهبَ به لزيارة أخيهَا ، وأخذتْ تُحِبُّ إليه تلك الرحلةَ قائلَةً : « هل لك في زيارةٍ لأخي في « يَرْمُوثَ » ؟ وهل لك في رؤية البحرِ المائج^(١) ، والجواري المنشآتِ فوقَ المياهِ المتلاطمةِ ؟ » فما طرَقَ سمعُه هذا الحديثُ حتى انبَسَطَتْ أساريرُ الغبطةِ في وجهه ، وطربَ أيَّما طربٍ ، ولكنه تذكَّرَ أمَّهُ ، ووَحَدتها الموحِشةَ ، وما تُعانيه من أَلَمِ الفراقِ ، فقال بلهجةٍ تَمُّ عن استغرابٍ شديدٍ : « وهل تتركُ أميَّ وحدها ؟ »

فقال له الخادمُ : « لا ، إن والدتك سَوْفَ تذهبُ لتزورَ بعضَ الأصدقاءِ . »

فاطمأنَّ قلبُ (دافيد) ، وقضى الليلَ فرحًا يُفكرُ في ملابسِ السفرِ ، ويَهْتَفُ بطلائعِ الصبحِ . وما كادتْ تظهرُ بِشائِرُهُ حتى هَرَوَلَ إلى أمِّه يُودِّعُها ، وعاطفةُ البُنوَةِ قد تَأَجَّجتْ في صدره ، فذَرَفَتْ^(٢) عيناه بالدمعِ السخينِ ؛ حينئذٍ إلى مُرَبَّاهِ ومَهْدِ صباهِ . غالبَ (دافيد) تلك الصعابَ ثم رَكِبَ هو والخادمُ في مَرَكَبَةٍ ثَقِيلَةٍ بطيئةِ السيرِ ، فما وصلَا إلى « يَرْمُوثَ » حتى كان التعبُ قد أضناه ، وأخذَ منه كلَّ مَاخِذٍ ، فحمله ابنُ أَخِي الخادمِ

(١) المائج : المضطرب . (٢) سالت بالدمع .

على ظهره ، وأوصله إلى المنزل ، فارتاحت نفسه ، وسرَّ عند ما
وجد به طفلة ناهزت^(١) سنّه أوكادت ، اتخذ منها صديقة لعبٍ
ومرح ، يداعبها^(٢) وتُداعبه . ولم تمض به الأيام إلا قليلاً في
مُقامه حتى علم أن « مستريجوتي » — وهو أخو الخادم — رجلٌ
مُحسنٌ يُربّي في بيته أطفالاً يتامى رَغْمَ ما يُعانيه من فقرٍ مُدقع^(٣) ،
وضنك^(٤) شديد ؛ فهو يكُدُّ^(٥) ويتعب طولَ نهاره ليحصل على
قوتٍ لهؤلاء . وثبتت في نفس دافيد أن هذا الرجل الكريم
يستحقُّ الشّاء ونظرة الإكبار .

سَعِدَ (دافيد) بتلك الرّحلة الميمونة ، ونعم بجوارِ القتاة
الصغيرة (إملي) ، وكم كان جميلاً أن تفيضَ نفسُ كلٍّ منهما
بالمودة والصفاء في ظلّ الطفولة البريئة الناعمة ؛ فقد كانت
أحاديثهما لا تتجاوزُ هذا الميدان الرَّحْبَ^(٦) ؛ (فدافيد) يَصِفُ
لها النعيم في بيته السعيد ، و (إملي) تقصُّ عليه كيف فُقرَ^(٧)
البحرُ فاه ، وابتلع أباهما ، ولم يرحم مُتممها ، وها هي ذى الآن
في كفالة عمّها يكلّوها^(٨) بعين رعايته ، ويبدلُ كلَّ ما يملكُ

(١) ناهزت : دانت . قاربت . (٢) يداعبها : يمازحها . والمداعبة : المازحة .

(٣) شديد (٤) ضيق (٥) الكدُّ : الشدة في العمل وطلب الكسب

(٦) الرَّحْبُ : الواسع (٧) فُقرَ فاه : فتحه (٨) يحفظها

في سبيل هَناءِ تَها ، وكم تَمَنَّى أن تَكَبَّرَ بِسرعةٍ ، لَتُقَدِّمَ إلى عَمِّها
بعضَ الهدايا الجميلة ، والتَحَفِ الثمينة . ولا عَجَبَ ؛ خيالُ الطفولةِ
المائلُ يَمَلِي عليها ما تَوَدُّ أن تَرُدَّهُ إليه جزاءَ إحسانِهِ إليها . فهي
تَنوِي أن تُهْدِيَ إليه (غليوناً) فِضِيًّا ، وَحَلَّةَ زرقاءِ اللونِ مُوشاةً
بأزَرَّةٍ من الماسِ وَصِدَارٍ^(١) أَحْمَرَ ، وساعةً ذهبيةً كبيرةً ، وَقُبْعَةً
سوداءَ ، وما إلى تلك من التَحَفِ الغالية .

لِكلِّ رحيلٍ مَهما طالَ أَوْبَةً^(٢) ، وَلِكلِّ سَفرٍ عَوْدَةً ،
وہا هو ذا (داوید) يَشْدُو رِحالَهُ ليرجعَ إلى أَحضانِ أمِّه ، وبعادِ
الشوقِ إلى أرضِ الوطنِ التي عليها دَرَجٌ ، وبيْنَ رِحالِها نَما ، يَتنازَعُ
في عَوْدَتِهِ أَمْرانَ : تَأْلُمُهُ لَتَرَكَ (إِملي) الصَغيرةَ ، وَلَهْفُهُ على رُؤيةِ
والدتهِ العَزيزةِ .

وبعدَ لَأَيِّ أَلَقَتْ بِهِ عَصَا التَّسْيَارِ في مَزلِ أمِّه ، فوجدَ مَعالِمَ
الحياةِ قد تَغَيَّرَتْ فيه ؛ إِذِ احْتَلَّه زَوْجٌ والدَتِهِ « مَسْتَرْمَرْدُسْتُون »
وكانَ فَظًّا غليظَ القلبِ ، يَكْرَهُ (داوید) الصَغيرَ كُلَّ الكُرِّه ،
فلمَ تَأْلَفْهُ نَفسُ (داوید) ، وشَعَرَ بأنَّ المَزلَ قد صارَ جَحرًا يَتَلَطَّى ،
ولَكنَّهُ بذلَ جُهدَهُ في اِكْتِسابِ رِضا الزَّوْجِ حَتَّى لا تَضيقَ

(١) الصَدَار : ثوبَ رأسِهِ كالْمِصْنَعَةِ وَأَسْفَلُهُ يُغَشَّى الصَّدْر . (٢) رَجوع .

نفس أمه ، غير أن ذلك لم يُجِدْ نفعاً ؛ فلم يَسمح الزوجُ لزوجته أن تُدَلِّلَ ابنها (دافيد) ، ولا أن تُرفِّهَ ^(١) عنه كما كانت تفعل من قبل ، ولكنه وسطاً هذه المتاعب المُمِضَّة ^(٢) كانت أمه تعطيه درساً في القراءة والكتابة ، فوجد في الجلوس إلى الكتاب خير أنيس وأحسن مَهْرَبٍ من الحياة القائمة ، وآثر العزلة مُتخذاً من غرفةً غلياً صغيرةً مَسْكناً له ومأوى .

لم يدعْ (مستر مرْدستون) (دافيد) يَهْنَأُ بحياته الجديدة ، ويتمتعُ بمطالعة كتبه التي سَلَّته وأنسَتْه ما يُخالِجه من ألمٍ مثل كتاب (روبنسون كروزو) وكثير من القصص والرحلات ، بل ادَّعى أنه أهمل بعض دروسه ، واتَّحى به مكاناً بعيداً عن أمه ، وأخذ يُشبعه ضرباً ، ويوسعُه لَكماً ؛ إجابةً لداعِي قسوته ، وغَلَظِ قلبه . ولقد آلم (دافيد) هذا النهج الغريب ؛ إذ لم يُضْرَبْ قبلَ اليوم ، فعَضَّ يَدَ الرجلِ دفاعاً عن نفسه ، فعَدَّ الرجلُ ذلك جريمة لا تُغتفر ، وتملكه الغيظُ من هذه الفعلة الشنعاء ، وراح يركل ^(٣) (دافيد) ويلكمه ^(٤) في غير رحمة ،

(١) ترفه عنه : تنفس عنه . والرفاهة من العيش والرفاهية والرَّفْهية : السَّعة .

(٢) الحشنة ، القاسية . (٣) الركل : الضرب برجل واحدة . (٤) اللكم :

الضرب باليد بمجموعة .

وَتَرَكَهُ سَجِينًا فِي الْحَجَرَةِ مُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ يَبْكِي وَيَصِيحُ ، وَيَشْعُرُ
شُعورًا مُؤَلِمًا نَحْوَ زَوْجِ أُمِّهِ الَّذِي يُبْغِضُهُ ، وَلَا يَوَدُّ أَنْ يَرَاهُ فِي
الْبَيْتِ . فَتَبَدَّلَ نَعِيمُ (دَاوَيْدَ) شَقَاءً ، وَسُرُورُهُ حُزْنًا ، وَرَأَى مَا لَمْ
يَرَهُ مِنْ قَبْلُ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْآلَامِ .

الزَّمَّ (دَاوَيْدُ) وَحَدَّثَهُ أَيَّامًا فِي غُرْفَةٍ ضَيِّقَةٍ لَا يَرَى أَحَدًا ،
وَلَا تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنٌ ، اللَّهُمَّ إِلَّا (مِسْ مَرْدُسْتُون) - وَهِيَ أختُ
(مِسْتَرِ مَرْدُسْتُون) - الَّتِي حَضَرَتْ لَتَعِيشَ مَعَ أَخِيهَا ، وَكَانَتْ
أَشَدَّ مِنْهُ قَسْوَةً . مِنَ الصَّعْبِ إِرْضَاؤُهَا . تَكْرَهُ الْأَطْفَالَ ،
وَالْأَطْفَالُ يَكْرَهُونَهَا . تَمَقَّتْ (دَاوَيْدَ) وَ (دَاوَيْدُ) لَا يُحِبُّهَا .

وَذَاتَ يَوْمٍ - وَالْأَمْسَى ^(١) يَمْلَأُ جَوَانِبَ نَفْسِهِ - سَمِعَ طَرَقًا
خَفِيفًا أَنْصَتَ لَهُ ، فَإِذَا الطَّارِقُ (بِيَجُوتِي) خَادِمَتُهُ . فَهَشَّ لِلْقَائِمِ ،
وَبَشَّ فِي وَجْهِهَا ، وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ حَالِ أُمِّهِ ، وَالْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي
يَنْتَظَرُهُ ، فَعَلِمَ أَنَّهُ ذَاهِبٌ غَدًا إِلَى مَدْرَسَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ لَنْدُنْ ، وَسَوْفَ
تَوَدُّعُهُ أُمُّهُ قُبَيْلَ الرَّحِيلِ ، بَيْنَمَا « بِيَجُوتِي » الْخَادِمَةُ سَتَقُومُ عَلَى
رَاحَتِهَا ، وَتَكْتُبُ لَهُ كُلَّ أُسْبُوعٍ . فَشَكَرَ لَهَا عَطْفَهَا وَعِنَايَتَهَا .

(١) الْأَمْسَى : الْحُزْنُ .

وعند الصباح أَقْبَلَتِ الْأُمُّ تَوَدَّعُ ابْنَهَا وَتَشِيْعُهُ ، فَرَأَاهَا فِي حَالٍ
تَبَعَتْهُ الْأَلَمَ وَالْحُزْنَ ، صَفَرَاءَ اللَّوْنِ ، حُمْرَاءَ الْعَيْنَيْنِ . فَارْتَمَى فِي
أَحْضَانِهَا ، وَسَأَلَهَا الْعَفْوَ عَمَّا سَلَفَ . فَأَجَابَتْهُ إِلَى طَلِبَتِهِ ^(١) ، عَلَى
الْأَيَّامِ لَزُوجِهَا مَوْجِدَةً ^(٢) ، وَنَصَحَتْ لَهُ بِأَنْ يُصْلِحَ مِنْ شَأْنِهِ ،
وَيَجِدَّ فِي عَمَلِهِ ، وَدَعَتْ لَهُ بِالتَّوْفِيقِ وَالْهَدَايَةِ .

حَزَنَ (دَاوَيْدُ) أَشَدَّ الْحُزَنِ ؛ إِذْ أَنَّ أُمَّهُ — أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ —
تَسَى بِهِ الظَّنَّ ، وَتَعْتَقِدُ أَنَّهُ فَاسِدٌ شَرِيرٌ ، مُجْجَفٌ بِحَقِّ زَوْجِهَا ،
مَعَ أَنَّهُ ذَكِيٌّ مُؤَدَّبٌ ، هَادِيٌّ الطَّبْعِ ، رَقِيقُ الشُّعُورِ . فَاعْرَوْرَقَتْ
عَيْنَاهُ بِالدَّمْعِ حِينَمَا تَرَكَ الْمَنْزَلَ . وَلَمْ يَكْدُ يُتَابِعُ السَّيْرَ إِلَّا قَلِيلًا
حَتَّى وَقَفَتْ الْمَرْكَبَةُ الَّتِي تُقَالُ ^(٣) إِلَى لَنْدَنَ ، تَنْتَظِرُ (يَيْجُوْتِي)
وَهِيَ مُقْبِلَةٌ تَجْرِي وَفِي يَدَيْهَا عِقْدٌ مِنَ الْكَعْكَ ، وَوَرَقَةٌ مَلْفُوفَةٌ
بِهَا بَعْضُ النُّقُودِ ، وَقَدْ كُتِبَ عَلَيْهَا يَدُ أُمِّهِ : (هَدِيَّةٌ إِلَى دَاوَيْدَ
مَعَ حُبِّي . « فَقَبِلَهَا شَاكِرًا ، وَقَسَمَ الْكَعْكَ وَأَعْطَى سَائِقَ
الْمَرْكَبَةِ مِنْهُ نَصِيبًا ، وَهُوَ يُجِيبُ عَنْ سُؤَالِهِ : « هَلِ الْكَعْكَ
مِنْ عَمَلِ (يَيْجُوْتِي) ؟ » فَأَجَابَ (دَاوَيْدُ) : « نَعَمْ . فَرَجَاهُ أَنْ

(١) الطَّلِبَةُ : الشَّيْءُ الْمَطْلُوبُ (٢) الْمَوْجِدَةُ : الْغَضَبُ .

(٣) تُقَالُ : تَطْبِيقُ حَمَلِهِ ، تَحْمَلُهُ .

يَبْعَثُ إِلَيْهَا رَسُولًا بَأَنَّ (بَرَكَيسَ) رَاضٍ . « فأنهز الفتى فرصةً
انتظاره السيارة العامة في (يَرْمُوثَ) ، وكتبَ إِلَيْهَا الرسالةَ الآتية :

« عزيزتى (يِجُوتى)

قد وصلتُ إلى (يَرْمُوثَ) سالماً ، وإنَّ (بَرَكَيسَ) راضٍ .

كلُّ حُبٍّ لَأُمِّ . «
المخلص
داقيد

وهناك في (يَرْمُوثَ) جلسَ وحيداً إلى مائدةٍ في مَطْعَمٍ ،
وقد كان يُعَكِّرُ عليه صفو الحياة تلك الوحشة المُرَوِّعة^(١) ، التى
تَقْطَعُ لَهَا نِياطُ^(٢) قلبه ، وملاً رُوعه^(٣) اليأسُ المُبْرِحُ . وعلى
حينِ غَفْلَةٍ فاجأه الخادمُ ، وهو مُسْتَسْلِمٌ لتيارِ هواجِسِهِ يُخْبِرُهُ بِأَنَّ
رجلاً سقطَ مَيْتاً إِنْزَاقاً لِحَبْلِ جَرَعَةٍ مِنَ الشَّرَابِ ، ابتاعه من الفندقِ ،
فارتاب الفتى وفزع . وكَم كان سرورُ (داقيدَ) عظيماً عند ما تَجَرَّعَ
الخادمُ قَدَحَهُ حتى لا يُوْذَى شعورُ أَصْحَابِ النُّزُلِ^(٤) .

وبعد هذا الحادثِ بأيام وصلَ إلى كَنَدَنَ ، وأخذَ إلى مدرسةٍ
في « بَلَا كِهَيْث » وكانت مُعْطَلَّةً ؛ لأن الإجازةَ لم تَنْتهِ بعدُ ،

(١) المفزعة ، الخيفة . (٢) عروق غليظة نيط بها القلب . ناط : علق .

(٣) قلبه . (٤) النُّزُل والنُّزُل : ما يهبُّ للنَّزِيل وهو الضيف .

فأدرك أنه أرسلَ قبلَ بدءِ الدراسةِ عقاباً له . ولشدَّ ما كانَ ألمُه عندَ ما قرأَ على ظهرِ معطفِه بطاقةً كُتِبَتْ عليها العبارةُ الآتيةُ بخطِّ واضحٍ : « احترسوا منه فإنه يعض . » ولكن الله سَلَّمَ ؛ إذ لم يَرِ كثيرٌ من التلاميذِ هذه الكتابةَ ، ومن رآها حَسِبَهَا مزاحاً . وليسَ بمعجيبٍ أن تكونَ محوراً تدورُ عليه فُكاهتهم وأسلوبُ دُعابَتهم ، حتى تَمِيزَ^(١) (دافيدُ) من الغيظِ ، وودَّ لو يجانبهم ، وليسَ لَهُ من دونِ ذلكَ بُدٌّ ، حتى قَيَّضَ اللهُ لَهُ تلميذاً أنكرَ فَعَالَهُمْ ، وذَمَّ خُلُقَهُمْ ، واتخذَ منه أخاً لَهُ مِعْوَاناً ، وصديقاً وِفِيّاً .

مرت الأيامُ ، و (دافيدُ) يَجدُ في دروسِهِ حتى ظهرَ ذِكاؤُهُ ، فازدادتْ محبةُ إخوانِهِ لَهُ ، والتفؤوا حوله ، يُروى ظمأَهُمْ ، ويُشَبِّعُ رَغْبَتَهُمْ مِنَ المِيلِ إِلَى استماعِ القصصِ والحكاياتِ .

وذاتَ يومٍ عادَهُ (مسترٌ ييجوتى وهام) يَحْمِلَانِ لَهُ هَدِيَّةً مِنَ السمكِ اللذيذِ ، فقدمَ إليهما مُفْتَخِرًا صديقَهُ الجَدِيدَ (مسترفُورث) وهو يُثْنِي عليه ، ويُطْرِيهِ^(٢) أَيْمَا اطراء ، والصديقُ يُرَحِّبُ بِهِمَا . وأخيراً أَتَتِ العُطْلَةُ ، وأعدَّ (دافيدُ) العُدَّةَ لِلرَّحِيلِ ، ورجعَ إِلَى بَيْتِهِ ، فقابَلَهُ السَّائِقُ (بَرَكيسُ) واجماً^(٣) ، ولم يُخَفِ عَلَيْهِ

(١) تميز من الغيظ : تقطع (٢) أطراه : مدحه . (٣) الواجم : الذى اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام .

وجومَه ، وفِطَنَ لأمْرِه ، فوعَدَه أن يَعمَلَ عَلَى تَهْدِئَةِ خَاطِرِه ، وإِراحَةِ ضَمِيرِه . وقد كان سرورُ أمِّه وخادمِه (يِيجُوتِي) عَظِماً بِلِقَائِه ، فَقَضَى يَوماً هَنيئاً يُداعِبُ فِيهِ (دَاثِيدُ) أخاه المولودَ الصَغيرَ ، وَيُدَلِّلُه ، وَيُظهِرُ لَهُ حُبَّه وَعَظَفَه ، في وَقتٍ غاب فِيهِ عَنِ الأُسْرَةِ (مَسْتَرِ مَرْدَسْتُون) وَأَخْتَه . وَلَكِنِهما عَندَ ما عَادَا سُرْعانَ ما بَدَأَ البَغْضُ عَلَى مُحِيَّاهُمَا^(١) ، وَوَجَّاهَ عَلَى مُعامَلَتِهِ ، وَمَنَعَا مِنْهُ أخاه ، وَحَرَّمَا عَلَيهِ الجُلُوسَ مَعَ (يِيجُوتِي) . فَحَنَقَ^(٢) فِي نَفْسِهِ ، وَكَظَمَ غِيظَه حَتَّى انقَضَتِ الإِجازَةُ ، فودَّعَ أَهْلَ البَيتِ ، وَقَبَّلَتُهُ أمُّه قُبَلاتٍ كُلَّها عَظِفٌ وَحَنانٌ ، وَقَدَّمتْ إِلَيهِ أخاه الصَغيرَ لِيَراهُ حينَما أَخذَ يَركَبُ المَرَكَبَةَ لِلعُودَةِ إِلَى المَدْرَسَةِ .

وَبَعْدَ شَهرينَ مِنْ عَودَتِهِ أُرْسِلَتْ إِلَيهِ إِحدى صَدِيقَاتِ أمِّه تَخبِرُهُ بِمَوْتِها ، فَحَزَنَ حَزْناً شَدِيداً ، وَتَأَلَّمَ إِخوانُهُ كُلَّ الأَلَمِ ، وَرَجَعَ إِلَى بَيتِهِ فِي اليَومِ التَّالِي ، فَعَلِمَ وَفاةَ أَخِيهِ الصَغيرِ ، فَكانَ حَزنُهُ أَشدَّ وَأوَقَعَ . قَابَلَتُهُ (يِيجُوتِي) وَهِيَ تَخَفِّفُ عَنْهُ لَوْعَةَ الأَسى^(٣) ، وَحَدَّثَتُهُ عَنِ مَرَضِ أمِّه ، وَرِسالَتِها الرَقيقَةَ إِلَيهِ ، وَهِيَ عَلَى فِراشِ

(١) وَجِهُهُمَا (٢) حَنَقَ : اغْتَاطَ ، وَالْحَنَقُ : الغِيظُ . (٣) الأَسى : الحَزنُ .

فَأَدْرَكَ أَنَّهُ أُرْسِلَ قَبْلَ بَدْءِ الدِّرَاسَةِ عِقَابًا لَهُ . وَلَشَدَّ مَا كَانَ أَلَمُهُ
عِنْدَ مَا قَرَأَ عَلَى ظَهْرِ مِعْطَفِهِ بَطَاقَةً كَتَبَتْ عَلَيْهَا الْعِبَارَةُ الْآتِيَةُ
بِخَطِّ وَاضِحٍ : « احْتَرِسُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يَعْصُ . » وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَّمَ ؛
إِذْ لَمْ يَرَ كَثِيرٌ مِنَ التَّلَامِيذِ هَذِهِ الْكِتَابَةَ ، وَمَنْ رَأَاهَا حَسِبَهَا مَزَاحًا .
وَلَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ تَكُونَ مَحْوَرًا تَدُورُ عَلَيْهِ فُكَاهَتُهُمْ وَأَسْلُوبُ
دُعَابَتِهِمْ ، حَتَّى تَمِيزَ ^(١) (دَاوَيْدُ) مِنَ الْغِيْظِ ، وَوَدَّ لَوْ يَجَانِبُهُمْ ،
وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ بُدٌّ ، حَتَّى قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ تَلْمِيذًا أَنْكَرَ فِعَالَهُمْ ،
وَذَمَّ خُلُقَهُمْ ، وَاتَّخَذَ مِنْهُ أَخًا لَهُ مِعْوَانًا ، وَصَدِيقًا وَفِيًّا .

مَرَّتِ الْأَيَّامُ ، وَ (دَاوَيْدُ) يَجِدُ فِي دُرُوسِهِ حَتَّى ظَهَرَ ذِكَاؤُهُ ،
فَازْدَادَتْ مَحَبَّةُ إِخْوَانِهِ لَهُ ، وَالتَّفَوُّوا حَوْلَهُ ، يُرَوِّى ظَمَأَهُمْ ، وَيُسَبِّعُ
رَغَبَتَهُمْ مِنَ الْمِيلِ إِلَى اسْتِمَاعِ الْقَصَصِ وَالْحِكَايَاتِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ عَادَهُ (مَسْتَرٍ يَجُوتِي وَهَام) يَحْمِلَانِ لَهُ هَدِيَّةً مِنْ
السَّمَكِ اللَّذِيذِ ، فَقَدَّمَ إِلَيْهِمَا مُفْتَخِرًا صَدِيقَهُ الْجَدِيدَ (مَسْتَرْفُورْت)
وَهُوَ يُثْنِي عَلَيْهِ ، وَيُطْرِيهِ ^(٢) أَيْمَا إِطْرَاءٍ ، وَالصَّدِيقُ يُرَحِّبُ بِهِمَا .
وَأَخِيرًا أَتَتْ الْعُطْلَةُ ، وَأَعَدَّ (دَاوَيْدُ) الْعُدَّةَ لِلرَّحِيلِ ، وَرَجَعَ
إِلَى بَيْتِهِ ، فَقَابَلَهُ السَّائِقُ (بَرْكِيسُ) وَاجِمًا ^(٣) ، وَلَمْ يُخْفِ عَلَيْهِ

(١) تميز من الغيظ : تقطع (٢) أطراه : مدحه . (٣) الواجم : الذى
اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام .

وجومَه ، وَقَطَنَ لِأُمِرِه ، فَوَعَدَه أَنْ يَعْمَلَ عَلَى تَهْدِئَةِ خَاطِرِه ،
وإِرَاحَةِ ضَمِيرِه . وقد كَانَ سُرُورُ أُمِّه وَخَادِمِه (يِجْوتِي) عَظِماً
بِلِقَائِه ، فَقَضَى يَوْماً هَنِيئاً يُدَاعِبُ فِيهِ (دَائِيدُ) أَخَاهُ الْمَوْلُودَ
الصَّغِيرَ ، وَيُدُلُّهُ ، وَيُظْهِرُ لَهُ حُبَّهُ وَعَظْفَه ، فِي وَقْتٍ غَابَ فِيهِ
عَنِ الْأُسْرَةِ (مَسْتَرِ مَرْدُسْتُون) وَأَخْتُهُ . وَلَكِنَّمَا عِنْدَ مَا عَادَا
سُرْعَانَ مَا بَدَأَ الْبَغْضُ عَلَى مُحْيَاھِمَا^(١) ، وَبَنَاجَاهُ عَلَى مُعَامَلَتِهِ ، وَمِنَّمَا
مِنْهُ أَخَاهُ ، وَحَرَّماً عَلَيْهِ الْجُلُوسَ مَعَ (يِجْوتِي) . فَخَنَقَ^(٢) فِي
نَفْسِهِ ، وَكَظَمَ غَيْظَه حَتَّى انْقَضَتِ الْإِجَازَةُ ، فَوَدَّعَ أَهْلَ الْبَيْتِ ،
وَقَبَّلَتْهُ أُمُّهُ قُبَلَاتٍ كُلَّهَا عَظْفٌ وَحَنَانٌ ، وَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ الصَّغِيرَ
لِيَرَاهُ حِينَمَا أَخَذَ يَرْكَبُ الْمَرْكَبَةَ لِلْعَوْدَةِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ .

وَبَعْدَ شَهْرَيْنِ مِنْ عَوْدَتِهِ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى صَدِيقَاتِ أُمِّه
تُخْبِرُهُ بِمَوْتِهَا ، فَحَزَنَ حَزْناً شَدِيداً ، وَتَأَلَّمَ إِخْوَانُهُ كُلَّ الْأَلَمِ ، وَرَجَعَ
إِلَى بَيْتِهِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي ، فَعَلِمَ وَفَاةَ أَخِيهِ الصَّغِيرِ ، فَكَانَ حَزْنُهُ
أَشَدَّ وَأَوْقَع . قَابَلَتْهُ (يِجْوتِي) وَهِيَ تَخَفِّفُ عَنْهُ لَوْعَةَ الْأَسَى^(٣) ،
وَحَدَّثَتْهُ عَنْ مَرَضِ أُمِّه ، وَرَسَالَتِهَا الرِّقِيقَةِ إِلَيْهِ ، وَهِيَ عَلَى فِرَاشِ

(١) وَجْهَهُمَا (٢) خَنَقَ : اغْتَاظَ ، وَالْحَنَقُ : الْغَيْظُ . (٣) الْأَسَى : الْحُزْنُ .

الموتِ تحتضر^(١) ، ودَعَوَاتِهَا الصَّالِحَاتِ الْمُبَارَكَةِ بِأَنْ يَحْفَظَهُ اللَّهُ وَيَحْرُسَهُ بِعِنَايَتِهِ ، وَيَكْتُبَ لَهُ النِّجَاحَ وَالتَّوْفِيقَ .

هكذا قُدِّرَ (لدايْدَ) أَنْ يَفْقِدَ أُمَّهُ وَهُوَ غُلَامٌ ، وَأَنْ تُحْرِمَ نَفْسُهُ رُوحَ الْإِسْفَاقِ وَالْحَنُوءِ عَلَيْهِ ؛ فَقَدْ تَجَاهَلَهُ زَوْجُ أُمِّهِ كُلُّ التَّجَاهُلِ ، وَأَنْكَرَتْهُ (مِسَ مَرْدِسْتُون) وَزَادَتْ كَرَاهِيَتُهَا لَهُ . وَغَادَرَتْ (بِيجُوتِي) الْمَنْزَلَ وَهِيَ تَصْحَبُهُ لَزِيَارَةِ قَصِيرَةٍ لِأَخِيهَا . وَفِي الطَّرِيقِ عَلِمَ مِنْهَا رَغْبَةً (بَرْكِيسَ) فِي تَزَوُّجِهَا ، وَرِضَاءَهَا عَنْ هَذَا الْقِرَانِ السَّعِيدِ . وَقَدْ فَرِحَ كُلُّ مَنْ فِي بَيْتِ (مَسْتَرِ بِيْجُوتِي) بِرُؤْيَا (دَايْدَ) ، وَعَمِلُوا جُهْدَ الطَّاقَةِ عَلَى رَاحَتِهِ وَالتَّرْفِيهِ عَنْهُ ، حَتَّى (إِمْلِي) الصَّغِيرَةِ ؛ فَقَدْ غَمَرَتْهُ بِعَطْفِهَا ، وَجَلَسَ إِلَيْهَا يُحَدِّثُهَا عَنْ فَقْدِ أُمِّهِ ، وَهِيَ تَذْرِفُ^(٢) قَطْرَاتِ الدَّمْعِ مِنْ مَا قَامَ فِيهَا أَسْوَاءُ الْجِرَاحِ ، وَتَعَزِيَّةَ لِفَوَادِهِ الْمَسْكُومِ^(٣) . وَكَمْ وَدَّ أَنْ يَكُونَ (مَسْتَرِ بِيْجُوتِي) وَصِيًّا عَلَيْهِ ؛ حَتَّى لَا يَشْعُرَ يَتِيمًا ، وَلَا يُحِسَّ أَلَامَ الْحَيَاةِ .

شَاءَ الْقَدَرُ وَأَرَادَتِ الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ يَتِمَّ زَوْاجُ « بَرْكِيسَ » الْحَوْذِيِّ وَ « بِيْجُوتِي » ، فَقَضَى « دَايْدُ » اللَّيْلَةَ الْآخِرَةَ مِنْ زِيَارَتِهِ

(١) احتضر بالضم : حضره الموت

(٢) ذرفت العين : سال دمعها . (٣) المجروح

بمنزلها ، مُرَحَّبَةً بِمَحْضُورِهِ ، مُزَوَّدَةً إِيَّاهُ بِنِصَائِحِهَا ، وَأَنَّهَا سَوْفَ
تُفَكِّرُ فِيهِ إِلَى الْأَبَدِ ، إِنَّ قَرُبَ وَإِنْ بَعْدَ ، وَأَنَّ مَنْزِلَهَا سَيَكُونُ
مُعَدًّا لِلِقَائِهِ ، فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، فِي صِغَرِهِ وَفِي كِبَرِهِ . فَشَكَرَ لَهَا
حُسْنَ إِخْلَاصِهَا ، وَجَمِيلَ رِعَايَتِهَا ، وَشَعَرَ بِمَا تُضْعِرُهُ لَهُ مِنْ حُبِّ
وَإِخْلَاصٍ . ثُمَّ عَادَ إِلَى دَارِهِ بَعْدَ أَنْ وَدَّعَتْهُ ، وَدَلَّاهُ الْحُبَّ الصَّادِقَ ،
وَالْوَفَاءَ الْحَقَّ ، تَرْتَسِمُ عَلَى مُحْيَاةِ .

شَعَرَ « دَاقِيدُ » الْمَسْكِينُ بِالْأَلَمِ الْوَاحِدَةِ وَالْعُزْلَةِ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ
وَفِرَاقِ خَادِمِهِ . وَلَمْ يَجِدْ قَلْبًا بِجَوَارِهِ يُذْهِبُ عَنْهُ مَا أَلَمَ بِهِ مِنْ
أَتْرَاجٍ . وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُزَجِّي إِلَيْهِ كَلِمَةَ عَطْفٍ ، أَوْ يُلْقِي إِلَيْهِ نَظْرَةً
حُبِّ . لَمْ يَجِدْ سِوَى شَخْصَيْنِ قَضَيَا عَلَى حَيَاةِ أُمِّهِ ، هُمَا زَوْجُهَا
وَأَخْتُ زَوْجِهَا .

عَاشَ « دَاقِيدُ » تِلْكَ الْفَتْرَةَ ^(١) مِنْ حَيَاتِهِ مَعِيشَةً كُلُّهَا بَوْسُ
وَشَقَائِهِ ، وَاسْتَسَلَّمَ لِهَوَاجِسِهِ الْقَاتِلَةِ ، حَزِينًا كَسِيرَ الْخَاطِرِ ، وَبِخَاصَّةِ
بَعْدَ أَنْ عَرَفَ أَنَّهُ لَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، رَغْمَ مِيلِهِ الْكَثِيرِ إِلَى
الْإِغْتِرَافِ مِنْ مَنَهْلِ الْعِلْمِ ، وَحُبِّ التَّعَلُّمِ . وَلَمْ يَجِدْ سِوَى تَبْعَدِهِ

عن همة إلا زيارة « يَجُوتِي » الفينة^(١) بعد الفينة . وبينما هو على هذه الحال يتجرع كئوسَ الهمِّ المترعة^(٢) ، ولا يجدُ من يُعَنَى بشئونِه، ولا من يهتمُ بأمورِه، أخبره زوجُ أمِّه «مستر مردستون» بذهابِه إلى لندن في الغدِ للعملِ في شركة «مردستون» واكتسابِ معاشِه . وما كادتْ تطلُعُ عليه شمسُ النهارِ حتى كان بجانبِ المدير ليتسلَّم العملَ ، ويقا تلَّ العالمَ ، والعالمُ يُقاتلُه .

اقتحمَ « دافيدُ » ميدانَ الحياةِ العمليةِ ، وهو لم يتجاوزَ عَشَرَ سنينَ ، وبرزَ بينَ عمالٍ أسدلتْ عليهمُ الأميةُ ستارَ الجهلِ ، يَعْمَلُ في أحطِّ الأعمالِ وأخسِّها ؛ يَفْسِلُ الزجاجاتِ ، ويلصقُ الإعلاناتِ ، فتحرَّكتْ في نفسِه صفحةُ الماضي . وتذكَّرَ ما كان يُؤمِّلُه من مُستقبل زاهرٍ ، وحياةٍ رَغْدٍ^(٣) بينَ إخوانِه في المدرسةِ ، وخِلانِه في قريته . ولا عجبَ إذا بكى غابِرَه بدموعِ حارَّةٍ ، فإنما يبكي عيشاً قَوَّضَتْ^(٤) دعائمه كوارثُ الدهرِ ، يبكي آماله في أن يكونَ رجلاً مُثَقِّفاً عظيماً ، يبكي خوفاً من أن ينسى كلَّ ما تعلَّمه في المدرسةِ ، يبكي لأنه لم يستطع أن يُتِمَّ تعليمه بالمدرسة بعد أن

(١) الفينة بعد الفينة : الحين بعد الحين . (٣) المترعة : الملوثة .

(٢) يقال : عيشة رَغْد ورَغْد أى واسعة طيبة . (٤) نقضت

قَذَفَتْ بِهِ السَّنُونُ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْمَلِ لِيَكْسِبَ عَيْشَهُ وَهُوَ طِفْلٌ ،
وإِلَى أَسْرَةٍ «مِيكُوپَر» وَقَدْ أَثْقَلَتْهَا الدِّيُونُ ، وَلَا تَعْرِفُ مَعْنَى
التَّرِييَةِ ، مَعَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ طَيِّبِ الْقَلْبِ ، وَحُسْنِ الْمَعَامَلَةِ ،
فَلَمْ يَحْذُ بَدَأً مِنْ مُسَاعَدَتِهَا ، وَمَدَّ يَدَ الْمَعُونَةِ إِلَيْهَا . وَكَيْفَ تُجْدِي
مُسَاعَدَتُهُ ، وَهُوَ لَمْ يَزَلْ صَغِيرًا ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِمَا يَكْفِي
نَفَقَاتِهِ ؟ وَلَوْلَا مَا كَلَّأَتْهُ ^(١) بِهِ الْقُدْرَةُ مِنْ عَنَايَةٍ ، وَوَهَبَتْ لَهُ مِنْ
طَهَارَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ لِسَارِ مَعَ الْبَارِدِينَ ، وَأَصْبَحَ بَيْنَ الْمَجْرِمِينَ ، يَهْمُ
عَلَى وَجْهِهِ فِي الطَّرُقَاتِ يَفْتَرِشُ الْأَرْضَ ، وَيَلْتَحِفُ ^(٢) بِالسَّمَاءِ ،
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَفِظَ ذَلِكَ الْيَتِيمَ مِنَ الشَّرُورِ وَالْآثَامِ .

لَمْ تَكْتَفِ الْأَيَّامُ بِمَا حَلَّ بِدَائِقِهِ مِنْ بُؤْسٍ وَشَقَاءٍ ، بَلْ أَخَذَتْ
تَكْوِيلًا لَهُ صُنُوفَ الْإِيلَامِ ؛ فَإِنَّ أَسْرَةَ «مِيكُوپَر» ^(٣) الَّتِي أَلْفَ
صَدَاقَتِهَا ، وَمَالَ إِلَى الْعَيْشِ مَعَهَا انْتَابَتْهَا النُّكَبَاتُ سِرَاعًا ، فَشَدَّتْ
الرَّحَالَ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ ، فَوَدَّعَهَا بَعْدَ أَنْ أَهْدَى إِلَى صِغَارِهَا هَدَايَا
مِنَ اللَّعَبِ الَّتِي اشْتَرَاهَا بِمَا اقْتَصَدَهُ مِنْ قُوَّتِهِ .

(١) كَلَّأَهُ اللَّهُ يَكْلُوهُ كَلَاءَةً : حَفِظَهُ . (٢) يَلْتَحِفُ : يَتَغَطَّى .

(٣) أَخَذَ دَكْنَزِ اسمَ مِيكُوپَرِ رَمَزًا خَيَالِيًا لِأَسْرَتِهِ ، فَهُوَ حِينَمَا يَتَكَلَّمُ عَنْ مِيكُوپَرِ
يَتَكَلَّمُ عَنْ أَبِيهِ (جَن دَكْنَزِ) . وَحِينَمَا يَتَكَلَّمُ عَنْ (مَسَزِ مِيكُوپَرِ) يَتَكَلَّمُ عَنْ وَالِدَتِهِ .

بلغ به اليأسُ أشدَّهُ، وكرهَ العملَ في تلكِ الشرِّكةِ، واضطرَّ للبحثِ عن مَسْكَنٍ مع غُرَباءَ، ولكنَّ كيفَ يَلْذُّ له عيشٌ في بُورِهِم؟ فوجدَ أنَّ الحَاجةَ ماسةً لمكاتبةِ «بيجوتى» يسألها عن مَسْكَنٍ عَمَّتِهِ «مِسْ بِتْسَى تَرِ تُوُوذْ» التى حَدَّثَتْهُ أُمُّهُ عنها كثيرًا، وودَّتْ لو يزورها لشدَّةِ حَدِّهَا^(١) عليه، ورحمتها به؛ فرارًا من تلكِ الحَيَاةِ التَّعِيسَةِ.

فأجابته (بيجوتى) إلى طَلْبِهِ، وأخبرته بأنَّها فى (دُوَقَر)، وزوَدَتْه ببعضِ ما يحتاجُ إليه من نقودٍ فى سفره. ولما انقضتْ أيامُ الأسبوعِ، وَوَفَّى ما عليه من دينٍ للشرِّكةِ، أزمَعَ^(٢) على الرحيلِ، ومُغَادَرَةِ تلكِ الديارِ، فَبَحَثَ عن حِمَالٍ يُحْمَلُ عنه صندوقه، فَعَثَرَ على شابٍّ، ولسوءِ الحَظِّ كانَ لصًّا سَلَبَهُ كلَّ ما يَحْمِلُ حتى نقودَه اليسيرةَ، وتركه صِفْرَ اليدينِ حائرًا لا يَلْوِي على شَيْءٍ. وبعدَ لَآئٍ لم يُجِدْهُ نفعًا عَزَمَ على السفرِ ماشيًا، فتابعَ السَّيرَ، ولكنَّ الجوعَ أَنَهَكَ قُوَاهُ، فلم يَجِدْ وسيلةً تنقذه من مَخَالِبِ الموتِ سِوَى أن يبيعَ مَلابِسَه الزائدةَ

(١) عطفها عليه (٢) أزمع على الرحيل : ثبَّت عليه عزمه . هذا ما قاله الخليل . وقال الكسائى : يقال : أزمع الأمرَ ولا يقال أزمَعَ عليه . وقال . الفراء يقال : أزمع الأمرَ و أزمع عليه كما يقال أجمع الأمرَ وأجمع عليه .

أتم حديثه . فأشفقت عليه ، وقادته إلى المنزل ، وأعادت إليه حرارة الدَّم بما أعطته إياه من شرابٍ ودواءٍ ، وطلبت من السيّد « دك » — الذي رآه « دافيد » مُطلاً من النافذة — النزول ، ثم أخبرته بأمر هذا الغلام ، مُستفصرة عما تفعل ، فنصح لها بإعطائه حماماً ساخناً ، وتغيير ملابسه القذرة . فلاقَت هذه الفكرة منها قبولاً . وفي الحال كان « دافيد » يرْفُل^(١) في ثيابٍ غاليةٍ ، وينامُ على فراشٍ وثير^(٢) ، وعمته ترتبُ له شعره وتقول : « ما أجملك أيُّها الفتى المسكين . »

وبعد تناول الغداء ووسط هدوءٍ شاملٍ تلحظه عينُ العناية الساهرة ، جلس « دافيد » إلى عمته والسيّد « دك » يقصُّ عليهما قصته من جديد ، والأسف ملء جنبيه . وما كاد يفرغ من حديثه حتى نصح السيّد « دك » بأن يذهب الفتى إلى الفراش ليسترخ من وعثاء^(٣) السفر ، فنام في تلك الليلة نوماً عميقاً هادئاً ، حامداً الله على نعمائه الجزيلة ، داعياً بقلبه ألا يحكم الله عليه بالطرد والشقاء ، وأن يقيّه ذلّ السؤال ، والوحدة والبؤس ، وأن يرحم أولئك الأطفال الذين لا ملجأ لهم ولا نصير .

(١) رفل في ثيابه : أطالها وجرتها متبخيراً (٢) مهد ، مريح (٣) وعثاء : مشقة

وفي الصباح التالي أخبرته عمته بأنها بعثت^(١) إلى السيد « مردستون » كتاباً ، ففرع الفتى لسماع هذا النبأ ، وحار في أمره ، كيف يفعل إذا أجبرته على العودة معه ، وهو لا يريد أن تجتمعهما الأيام ثانية بعد فراقهما . فاختلف عليه الحال ، ولم يفهم السر من إرسال هذا الكتاب ، وبقي في حيرة دبّت فيها خواطرُ السوء في نفسه حتى وصل زوج أمّه ومعه أُخته . وقد اغتاظت العمّة حينما رأت الأنسة « مردستون » مُمتطيّةً حماراً يسيرُ على حشائش الحديقة ، فطردت الحمارَ وسائقه ، ثم استقبلت الزائرين بعد أن أجلسَت « دافيد » على مقعدٍ بالقرب منها . ولما استقرّ بهم المجلسُ تحدّث السيد « مردستون » إلى عمه « دافيد » عن أخلاقه ، ومُحاولة إصلاحه ، وإقامة ما اعوجّج من سلوكه وهربه من المعمل ، وأنه الآن آتٍ لأخذه ، فإن أبت فلن يطرق له باباً بعد اليوم .

حينئذٍ لم يسع العمّة الروم إلا أن تسأل « دافيد » قائلةً : « أنت مُستعدٌّ للذهاب يا دافيد ؟ » فتوسّل^(٢) إليها الفتى ألاّ تجيب رغبة هذا الرجل وأخته ؛ فإنهما لم يُحبّاه ، ولم يعطفا عليه ، وجعلا أمّه ترسّف^(٣) في قيود الذلّ والاستعباد ، فعاشت شقيّةً

(١) بعثت : أرسلت (٢) تضرّع وتقرّب (٣) رسف : مئى مشى المفيد

تَعْسَةً^(١)، محرومةً ابْنَهَا، مُبْعَدَةً عَنْهُ، وَرَجَاهَا أَنْ تَحْتَفِظَ بِهِ إِبْقَاءً لِذِكْرِي أَبِيهِ الرَّاحِلِ .

فَتَرَدَّدَتْ الْعَمَّةُ بُرْهَةً اسْتَعَانَتْ فِي خِلَالِهَا بِالسَّيِّدِ « دِكْ » .
الصَّائِبِ الرَّأْيِ، الْحَاضِرِ الْبَدِيهِةِ، فَنَصَحَ لَهَا بِأَنْ تَذْهَبَ
وَتَشْتَرِيَ لَهُ مَا يَحْتَاجُ مِنْ مَلَابِسَ، وَتُبْقِيَهُ مَعَهَا . فَشَكَرَتْ لَهُ
حُسْنَ تَدْيِيرِهِ، وَخَالَصَ نُصْحِهِ، ثُمَّ رَفَضَتْ إِعْطَاءَ الْغُلَامِ لَزَوْجِ
أُمِّهِ؛ ذَاكِرَةً أَنَّهَا سَتَحَاوِلُ إِصْلَاحَهُ مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .
وَمَا أَشَدَّ سُرُورَ « دَاقِيدَ » حِينَ سَمِعَ النُّطْقَ بِهَذَا الْحُكْمِ الْعَادِلِ؛
فَقَدْ تَهَلَّلَتْ أُسَارِيرُ^(٢) وَجْهِهِ بِشَرٍّ^(٣)، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ جَذَلًا^(٤)،
وَطَارَ فُؤَادُهُ فَرَحًا، وَأَقْبَلَ عَلَى عَمَّتِهِ مَادًّا ذِرَاعَيْهِ حَوْلَ رَقَبَتِهَا
يُشَبِّعُهَا لَمَّا وَتَقْبِيلًا، مُرَدِّدًا عِبَارَاتِ الشُّكْرِ، وَجَزِيلَ الثَّنَاءِ .
وَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ بَدَأَ « دَاقِيدُ » حَيَاةً جَدِيدَةً، شَعَرَ فِيهَا
بِعُطْفٍ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ مِنْ قَبْلُ، وَرَفَلَ فِي ثِيَابِ الْعِزِّ وَالْفَخْرِ، يَحْمِلُ
اسْمَ عَمَّتِهِ « تَرْتُوود كَبِرْ فِيلْد »، وَانْقَشَعَتْ عَنْهُ سَحَابَةُ الظَّلَامِ
الدَّاكِنِ^(٥)، وَزَالَتْ تِلْكَ الْغَيُومُ الدَّاجِنَةُ^(٦)، الَّتِي كَانَتْ تُنْذِرُ بِالْوَيْلِ

(١) التعس : الهلاك (٢) أسارير الوجه : خطوطه

(٣) البشعر : السرور . (٤) الجذَل : الفرح .

(٥) الدُّكْنَةُ : لون يضرب إلى السواد . (٦) التلبدة : الكثيفة .

وسوء المصير . وفارق حياة التعس والإجرام ، وعاش رافهاً^(١) ،
 ناعم البال ، يَغْتَرِفُ الْعِلْمَ فِي أَحْسَنِ الْمَعَاهِدِ فِي حَيَاةِ عَمَّتِهِ الَّتِي
 حَضَّتُهُ^(٢) نَصَحَهَا بِقَوْلِهَا : « تَرْتُ كَثْرَ فَيْلِد » ، ثِقْ بِنَفْسِكَ ،
 وَجِدْ فِي دُرُوسِكَ . وَاحِبْ لِأَخِيكَ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ . وَلَا تَوَخَّرْ
 عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى الْغَدِ . وَلَا تَقِفْ مَوْقِفًا مُنْجِلًا . وَإِيَّاكَ وَالِدْنَاءَ
 وَالْقَسْوَةَ وَالْكَذِبَ . تَجَنَّبْ هَذِهِ الرِّذَائِلَ الثَّلَاثَ . وَسَأْضِعْ
 كُلَّ آمَالِي فِيكَ . وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّي بِكَ .

وَلَمْ يَكْذِبْ يَسْمَعُ هَذِهِ النَّصِيحَةَ الْغَالِيَةَ حَتَّى يَبْذُلَ مَا فِي وَسْعِهِ
 لِتَحْقِيقِ امْنِيَّتِهَا ، وَالْوَصُولِ إِلَى رَغْبَتِهَا الصَّادِقَةِ ، فَصَارَ رَجُلًا
 عَظِيمًا ، وَكَاتِبًا قَدِيرًا ، وَأَدِيبًا كَبِيرًا ، وَمُمَثِّلًا مَاهِرًا ، وَخَطِيبًا
 مَفُوهًا ، وَمُصْلِحًا اجْتِمَاعِيًا ، يُدَافِعُ عَنِ الْفُقَرَاءِ ، وَيَنْصُرُ الْمَظْلُومِينَ .
 تَعَرَّفَ إِلَى أَصْدِقَائِهِ الْقَدَمَاءِ ، وَاتَّخَذَ بَطَانَةً مِنْ أَخْلَصِ الْأَوْفِيَاءِ ،
 وَلَا عَجَبَ ؛ فَتِلْكَ طَبِيعَةُ الزَّمَانِ ، مَا كَثَرَ عَنْ نَابٍ إِلَّا ابْتَسَمَ ثَغْرُهُ
 عَنْ نَجَاحٍ بَاهِرٍ ، وَتَوْفِيقٍ كَثِيرٍ . فَالسَّعَادَةُ يَجِبُ أَنْ تُشْتَرَى ،
 وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ ثَمَنِ . وَلَا ثَمَنَ لَهَا إِلَّا تَحْمُلُ الْمُتَاعِبِ وَالْآلَامِ .

(١) مِنْعَمًا سَعِيدًا . (٢) أَخْلَصْتُ لَهُ .

الْقِصَّةُ الْبَاقِيَّةُ

كناسٌ هُولْبُورْن

(جُو) شابٌّ في الثلاثينَ من عُمره ، مديدُ القامةِ ، هزيلُ البدنِ ، طويلُ العُنُقِ ، دميمٌ^(١) الخَلْقَةُ ، ضيقُ الجبهةِ ، ضاقتْ سُبُلُ الارتزاقِ في وجهه ، فلم يَجِدْ حِرْفَةً يَكْتَسِبُ مِنْهَا قُوَّتَهُ غَيْرَ الْكَنَسِ فِي حَيٍّ « هُولْبُورْن بَلَنْدَنْ » .

كان يَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِهِ مُبَكَّرًا . وَقَدْ حَمَلَ عَلَى كَتِفِهِ مِكنَسَةً ، وَمِكتَلًا^(٢) ، وَمَرًّا^(٣) يُزِيلُ بِهِ الثُلُوجَ وَالْأَوْحَالَ المتراكمةَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ . كَانَ لَا يَنْفَكُ يَعْمَلُ صَيْفًا وَشِتَاءً ، لَا يَتَشَبَّهُ عَنْ ذَلِكَ شِدَّةُ الْقَرِّ^(٤) ، وَلَا انْهَمَارُ الْمَطَرِ ، وَلَا تَساقُطُ الصَّقِيعِ . حَيَاةُ مُرَّةٍ قَاسِيَةٍ تِلْكَ الَّتِي كَانَ يَحْيَاهَا « جُو » ؛ فَهُوَ عَلَى الدَّوَامِ رَدِيءُ الْبِزَةِ^(٥) ، قَدِرُ الْمَلَابِسِ ، خَاوِي الْبَطْنِ ، يَسْمَعُ مُرَّ الشِّتَاءِ مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا عَلَى السَّوَاءِ ، إِنْ قَدَّمَ لَهُ بَعْضُ الْأَغْنِيَاءِ شَيْئًا مِنْ فَضْلَاتِ مَوَائِدِهِمُ التَّهَمَّةِ فِي شَرَاهَةِ وَنَهَمٍ ، شَاكِرًا لَهُمْ فَضْلَهُمْ

(٣) الْمَرَّةُ : لَوْحٌ مِنْ

(٥) الْهَيْئَةُ

(٢) شَبْهُ الزَّنْبِيلِ (الْمَقْطَفِ)

(٤) شِدَّةُ الْبَرْدِ

(١) قَبِيحٌ

الْحَدِيدُ يَعْرِفُ « بِالْكَرِيكِ »

وإحسانهم من غير أن يعرف أن ذلك أقل مما يجب عليهم نحوه .
لقد ألفت نفسه الضعة^(١) ، واعتادت عدم الاكتراث لما يناله
من ذلٍ وتحقير .

نشأ فقيراً معدماً ، لا يعرف له أباً ولا أمّاً ، هو ابن السبيل ،
نشأ فيه وتربى بين شوارع وحاراته . وجد الناس يُنادونه باسم
« چو » ، وهو لا يعرف اسمَ ذلك الوالد الذي أرسله ليشقى في
هذه الحياة ، ولا اسمَ الأسرة التي ينتمى^(٢) إليها .

لم يذهب إلى المدرسة ، ولم يتعلم القراءة والكتابة ، ولم يستطع
تهجئة اسمه ، ولكنه كان يعرف شيئاً واحداً هو : « الصدقُ
فضيلةٌ ، والكذبُ رذيلةٌ » . ولذا كان يقول الحق دائماً ، ويتمسكُ
بالحق ، ولا يعرف إلا الحق . وكان مع هذا يعرف شيئاً آخر
هو الجوع ؛ فقد جاع كثيراً ، وقاسى آلام الجوع ، وعرف معنى
الجوع وأعراضه ودواءه .

كان « چو » يسكن في حيٍّ « تُم أول ألونز » وهي ناحيةٌ
قذرةٌ تراكُم فيها الفضلات التي تنبعث منها الروائح الكريهة .

(١) تعودت المذلة (٢) ينسب

وشوارعها ضيقةٌ مُتَعَرِّجَةٌ يَكْثُرُ فِيهَا الطِينُ وَالْوَحْلُ . منازلُها
قَدِيمَةٌ مُتَدَاعِيَةٌ ، لَا مَنَفَذَ فِيهَا لِضِيَاءِ ، وَلَا مَسَرَى لِهَوَاءِ .

قَدْ يَبْلُغُ عَدْدُ سُكَّانِ الْحِجْرَةِ الْوَاحِدَةِ عَشْرَةَ يَنَامُونَ جَنْبًا إِلَى
جَنْبٍ بِأَجْرٍ تَافِهِ يَدْفَعُونَهُ آخِرَ كُلِّ أُسْبُوعٍ . وَكَانَ لَا يَسْكُنُ فِي
ذَلِكَ الْحَيِّ إِلَّا أَفْقَرُ الطَّبَقَاتِ مِنْ فَقَرَاءِ لَنْدَنَ ، تُغَطِّي أَجْسَامَهُمْ
أَسْمَالُ تَصِفُ الشَّقَاءَ . مَلَابِسُهُمْ لَا تَقِيهِمْ نَافِثَ^(١) الْبَرْدِ ، وَلَا
وَابِلَ^(٢) الْمَطَرِ . لَمْ يَكُنْ « چو » مَجْهُولًا لَدَى سُكَّانِ ذَلِكَ الْحَيِّ ؛
فَمَا مِنْ رَجُلٍ أَوْ سَيِّدَةٍ أَوْ طِفْلِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ « چو » لَمْ
يُقَدِّمْ لِي خِدْمَةً ، أَوْ إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ لِي بِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ . وَقَدْ اعْتَادَ
أَهْلُ ذَلِكَ الْحَيِّ أَنْ يُلَقِّبُوا كُلَّ سَاكِنٍ فِيهِ بِلَقَبٍ يُنَادِي بِهِ ، وَلَا
يَمُتُّ^(٣) إِلَى اسْمِهِ بِصِلَةٍ ، فَإِذَا سَأَلْتَ عَنْ « چو » مَثَلًا قِيلَ لَكَ :
أَتَقْصِدُ « كَارُوتَز » أَمْ « الْكُولُونِيل » أَمْ « الْجَالُوز » أَمْ ...

فِي إِحْدَى اللَّيَالِي الْقَارِسَةِ الْبَرْدِ وَقَفَ « چو » فِي الشَّارِعِ
تَحْتَ أَحَدِ الْمَصَابِيحِ ، وَقَدْ اتَّكَأَ عَلَى الْمُرِّ ، وَوَضَعَ الْمِكْتَلَ تَحْتَ
قَدَمَيْهِ لِيَقِيَهُ الْبَرْدُ ، وَأَسْنَدَ الْمِكْنَسَةَ إِلَى الْجِدَارِ ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ

فيمَن يَقْصِدُهُ مِنْ سَكَانِ الْحَيِّ مُسْتَجِدِّياً^(١) . وَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ رَأَى شَخْصاً يَدْنُو مِنْهُ ، وَتَفَرَّسُ^(٢) فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : « مَا لِي أَرَاكَ زَائِغَ الْبَصَرِ ؟ فِيمَ تَفَكَّرُ ؟ إِخَالُ^(٣) أَنَّكَ مَحْمُومٌ أَوْ جَائِعٌ مَضَتْ عَلَيْكَ أَيَّامٌ بَلْ أَسَابِيعٌ لَمْ تَتَنَاوَلَ مَا تُتَمَسِّكُ بِهِ رَمَقَكَ^(٤) . دُونَكَ^(٥) تِلْكَ الْقِطْعَةُ الْفِضِّيَّةَ . . . أَسْرَعُ إِلَى أَقْرَبِ مَطْعَمٍ . . . وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ تَنْطَلِقَ عَرِّفْنِي مَنْ أَنْتَ ؟ هَلْ لَكَ صَدِيقٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ؟ » .

فَقَالَ ، وَقَدْ فَعَرَ^(٦) فَاهُ دَهْشاً : « إِنِّي « چو » . لَيْسَ لِي صَدِيقٌ . . . أَيْمَكُنْ أَنْ يَجِدَ فَقِيرٌ مُعْدِمٌ مِثْلِي صَدِيقاً !! أَلَا تَتَّخِذُ مِنِّي صَدِيقاً ؟ إِنِّي مِثْلُكَ وَحِيدٌ لَا صَدِيقَ لِي . تَصَافِحَ الرِّجْلَانِ ، وَمَضَى هَذَا لِيُشْبِعَ جَوْعَتَهُ ، وَانْطَلَقَ ذَاكَ إِلَى كُوْخِهِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ مَزْهُواً^(٧) مَسْرُوراً ؛ إِنَّهُ قَدْ وَجَدَ الصَّدِيقَ .

لَمْ يَكُنْ هَذَا الرَّجُلُ أَحْسَنَ حَالاً مِنْ « چو » ؛ فَقَدْ كَانَ مَمَزَّقَ الثِّيَابِ ، أَشْعَثَ^(٨) أَغْبَرَ ، يَعِيشُ مِمَّا يَكْسِبُهُ مِنْ صُنْعِ بَعْضِ اللَّعَبِ

(١) طَالِباً الْعَطِيَّةَ وَالْإِحْسَانَ (٢) يَتَأَمَّلُ (٣) أَظُنُّ (٤) الرَّمَقُ : بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ (٥) خَذَ (٦) فَتَحَ فَهُ (٧) خُفُوراً (٨) مَغْبَرٌ

الساذجة التي يبيعها لأبناء الفقراء بأتفه الأثمان . وقد يمر عليه اليوم إثر اليوم ، وهو يعرض سلعته على الأطفال ، ولا يجد بينهم من يحمل في جيبه درهما يشتري به إحدى اللعب .

كانا يلتقيان كل يوم فيتحدثان طويلاً ، ويقص كل منهما على صاحبه ما لاقاه في يومه ، حتى إذا ما حان وقت النوم انصرفا بعد أن يدس ذلك الرجل في يد « چو » قطعة أوقعتين من البرنز إن كان معه نقود ، وإلا اعتذر له عن عذمه^(١) بقوله : « إننا اليوم في الفقر سواء يا « چو » ، ثم يمضي وهو دافع العين . لقد شاءت الأقدار أن تفرق بين الصديقين اللذين تعارفا على غير موعيد ؛ فقد ضم أحدهما القبر من غير أن يسير إلى جواره غير صديقه ؛ وبقى « چو » ليندب حظه العابر^(٢) ، وليبكي بدمعه المنهمر ذلك الصديق المحسن .

كان « چو » يعمل قبيل الغروب ، فجاءه شرطى وأمره بأن يتبعه إلى دار الشرط . ولما مثل بين يدي الموظف المختص سأل عما يعرف عن الميت ، فقص عليه — ودموعه تنهمر غزيرة من مآقيه — كل ما عرفه عنه من نبئ ، وشهامة ، وفضل . وذكر له

(١) العدم : الفقر (٢) الساقط ، التعس

كلَّ ما سمعه منه خاصًّا بأهله ونشأته . ولما انصرفَ من تلك الدار وجد في جيبه « شلنين » ، فوقع في حيرةٍ من أمره ، وأخذ يُسائل نفسه : أتنى لك ذلك المبلغُ الكبيرُ ؟ وكيف وصلَ إلى جيبك ؟ ولم يدرِ أن مُحسنًا كان يرى بُكاءه ويستمعُ لحديثه ، فأخذته الشفقةُ عليه ، فأسقطَ ذلك المبلغَ في جيبه وهو خارجٌ من دار الشرط .

لقد كان « چو » وفيًّا لصديقه بعد مماته ، كما كان مُخلصًا له في حياته ؛ ففي كلِّ يومٍ يذهبُ إلى قبره ، فيكنُسُ ما حوله ، ويُبَلِّلُ الترابَ بدَمْعِ الغزيرِ ، ويُناجيه ^(١) بألوانٍ من الذِّكري المؤثرة في عباراتٍ عميقة ، ويدعو الله أن يُسكنه فسيحَ جنانه ، ثم ينطلقُ إلى عمله ، وهو يرتقبُ ^(٢) اليومَ الذي يجتمعُ فيه بصديقه في تلك الدارِ التي لا يعرفُ فيها المرءَ ذلًّا ولا هوانًا .

بعد بضعةِ أيامٍ من موتِ ذلك الصديقِ قصدتْ سيدةٌ — تلبسُ السوادَ — « چو » ، ورجته أن يَدُلَّها على المقبرةِ التي دُفِنَ فيها صديقه ، ثم قدَّمتْ له قطعةً مستديرةً صفراءَ ذاتَ بَرِيقٍ أخاذٍ ^(٣) ، فردَّها إليها ؛ لأنه لم يشأ أن يأخذَ أجرًا على عملٍ يحسبه من

واجب الوفاء لصديقه ، ولكنها أبَت أن تستردّها ، ورجّته أن يستعين بها على الجوع والفقر .

سار « چو » أمام السيدة مشغول الفكر بتلك القطعة الصفراء التي مُنِحَها^(١) . لقد حسبها أول الأمر قطعة مُحاسيةً ، ولكنه وجد أنها لا تَمُتُ^(٢) إلى النحاس بصلّة . ألا يمكن أن تكون « الجنيه » الذهب الذي تَمَتَّلَى بأمثاله جيوبُ السادة الأغنياء ؟ بلى ، إنه « جنيه » من الذهب . ثم سارا حتى وصلا إلى المقبرة ، وهناك جثت^(٣) السيدة أمام القبر ، وأخذت تُصَلِّي وتَدْعُو ، بينما كانت دموعها تتساقطُ غزيرةً من مآقيها .

إنها سيدةٌ يَبْدُو عليها الوقارُ ، تُزَيِّنُ أصابعها بخواتم رُصِعتْ بالأحجار النفيسة . إنها تبكي ذلك الفقير الذي طواه الرّدى^(٤) في تلك الحُفرة . ولم تبكيه ؟ أتراها كانت تحبه ؟ إن صحَّ ذلك فلماذا لم تُقدِّم له في حياته يدَ المساعدة ، ولم تُنقِذه من تلك الحياة اللاغية^(٥) التي كان يحياها في خصاصة^(٦) وإقلال ؟ لا ، إن عاطفة أرق وأنبلَ من عاطفة الشفقة هي التي تُسَيِّطُ دموعها . . .

(١) أعطيا (٢) تتصل (٣) خرّت ساجدة (٤) الهلاك والموت
(٥) الكثيرة التعب والإعياء (٦) فقر

مَنْ يَدْرِ لَعَلَّهَا صَدِيقَةٌ أَوْ قَرِيبَةٌ فَرَّقَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ عَوَادِي^(١)
الزمن ، وحوادث الأيام !!!

عاد « چو » إلى مأواه في « تَمَّ أَوَّلُ الْوُزْرِ » ، ثم بدا له أن يتحقق
صديق ما أخبرته به السيدة عن القطعة التي أعطتها إياه . فذهب
إلى أقرب متجّر من منزله ، وطلب من صاحبه أن يبيعه أقةً من
اللحم ، ولما طلب منه الثمن قدّم له (الجنيه) ، فنظر إلى « چو »
في ريبة^(٢) ، ثم قال له : « أَأَقَّةَ لَحْمٍ وَ (جَنِيهًا) ذَهَبِيًّا ؟ من أيّ
مخلوق سرقت هذا ؟ إنني أعرفك لا تملك من متاع الدنيا غير تلك
الأسنم^(٣) البالية التي لا تكاد تسترُ جسمك . أجب وإلاّ أبلغتُ
أمرَك للشرطيّ . . . إنه قريبٌ منا » .

عَبَثًا حَاوَلَ « چُو » أَنْ يُفْهَمَ التَّاجِرَ أَنَّ (الْجَنِيهَ) وَصَلَ إِلَيْهِ
مِنْ غَرَضٍ شَرِيفٍ ، وَأَنَّ سَيِّدَةً مُحْسِنَةً مَنَحَتْهُ إِيَّاهُ ، وَلَكِنَّ هَذَا
الْقَوْلَ كَانَ يَزِيدُ الرَّجُلَ إِيمَانًا بِأَنَّ « چُو » لَصٌّ سَارِقٌ ، وَقَدْ
وَجَدَ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لَاسْتِعْلَالِ فَقْرِ « چُو » وَسَذَاجَتِهِ^(٤) لِمَصْلَحَتِهِ .
فَلَمْ يَدْعُ « چُو » يَغَادِرُ مَتَجَرَّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَنَازَلَ لَهُ عَنْ ثَمَانِيَةِ

(١) الحوادث والنوازل (٢) الريبة : التهمة والشك (٣) الملابس القديمة

(٤) بساطته

(شَلَاتٍ) منه . عاد «چو» إلى مسكنه فتعقبه^(١) لصُّ استطاع بمهارته وحذقه أن يسلب منه باقى (الجنیه) من غير أن يشعر . وهكذا عاد «چو» فقيراً مُعدماً كما كان قبل أن تُلَاقِيَه تلك السيِّدة المحسنة .

ما أمرَ الحیاةَ حينما يجتمعُ الفقرُ وفقدُ الصديق . . . لقد صارت أيام «چو» بؤساً لا حدَّ له ، وشقاءً لا نهايةَ له . . . كان الشرطُ^(٢) يُطارِدونه أُنَّى ذهب ؛ لقذارته ، ورثاةً ثيابه . وكانوا يأمرونه ألا يقفَ ، وإن كان ذلك للاستراحة من عناء^(٣) العمل . وكان كلما ذهبَ إلى شارعِهِ ليكسبَه طرده منه الشرطى المكلفُ حراسته . ولكنه يريد أن يكتسبَ ليا كل . . . إنه جائع . . .

كان يتحملُ كلَّ أذى ويصبرُ على كلِّ شرٍّ حتى لا يموتَ جوعاً . وذاتَ يومٍ تضايقَ منه الشرطى فساقه إلى دار الشرط مُتهماً إياه بوقوفه فى عرضِ الطريقِ من غيرِ عملٍ ، وكلما أمره بالسير أظهرَ الطاعةَ ، حتى إذا ما أنصرفَ عاد إلى الوقوفِ ، واستجداء^(٤) المارة .

حقق السيد «سَنَاجَزْ بَاى» الضابطُ فى تلك الشكوى ، وكان يعلمُ من أمرِ «چو» الشئ الكثيرَ ، فلم يأخذ بكلامِ الشرطى ، بل

(١) تبعه (٢) جمع شُرطة وشرطى (٣) تعب (٤) سؤالهم

قابل قوله باحتقارٍ وازدراءٍ ؛ فهو يعلمُ منه الكذبَ والتدليسَ^(١) والوشايةَ ، ثم قال له في تهكمٍ مُرٍّ : « لا تخفْ من « چو » ؛ فإنه لن يُلحقَ بك أذى . إنه رجلٌ مُسالمٌ لا ضررَ منه على أحدٍ كائنًا من كان . » ثم أمره بأن يَمْضِيَ إلى عمله ، وقالَ چو : « انتظرني في الخارج ؛ لأنني في حاجةٍ إليك . » فصَدَعَ^(٢) بالأمر .

ولما صارَ خارجَ حجرةِ الضابطِ قال الشرطيُّ چو : « أيها الشريرُ ، حذارِ أن تأتيَ إلى حيِّ « هُولبورن » ثانيةً . إنني لورأيتُك فيه إذا لأصابك مني ما لا قِبَلَ^(٣) لك باحتماله . » ثم سارَ قليلاً ، والتفتَ إليه وقال : « لك مُطلقُ الحريةِ في أن تذكرَ للضابطِ ذلكَ الوعيدَ الذي توَعَدْتُكَ به ، ولكنْ تذكرْ ما سيُصيبُك إن أنتَ أقدمتَ على هذا . »

كان الضابطُ قد دَعَا أصدقاءه لتناولِ (الشاي) عنده في مساء ذلك اليوم ، فخطرَ بباله ، وهو يُحقِّقُ مَسْأَلَةَ « چو » أن يأخذه معه عند عودته إلى المنزلِ ، ليقدِّمَ له ما يزيدُ على حاجةِ ضيوفه من فطائرٍ وحلوى ، وقد أنفذَ ذلكَ الخاطرَ . ولأولِ مرةٍ

(١) الغش (٢) صدع بالأمر : أطاع ونفذ (٣) قدرة

أكل « چو » حتى امتلأت معدته ، من أطايب الأطعمة التي كان يراها ، ولا يعرف إن كانت تؤكل أم توضع للزينة .

لقد أحسَّ « چو » فوارق المجتمع المرة القاسية في ذلك اليوم ، فهذا موظف صغير يُقدم لأصدقائه الأربعة فطائر وحلوى بما يكفي إطعامه أربعة أشهر . يا بؤس الرجل الفقير حينما يدرك أنه لا يجدُ الخبز الذي يدفعُ به المسغبة^(١) عن نفسه ، بينما يدرك أن سيواه تتزاحم أطايب الأطعمة على مائدته ، فيتنخم^(٢) من غير أن يتناول شيئاً ؛ لأنه لا يدري ماذا يأكل ، وماذا يُبقى !!!

أظلمت الدنيا في عيني « چو » ، وضاعت سبلُ الارتفاق في وجهه ، وصار ينتقل بين أحياء « لندن » فزعاً مهموماً يبحث عن عمل ، ولكنه لا يدري ماذا يعمل ؛ فهو لم يتعلم صناعة تُدرُّ عليه أخلاقاً^(٣) من الرزق ، ولم يوهب تفكيراً سليماً يكفلُ له الوصول إلى ما يريد . لقد بات طريداً مُشرّداً تُسلح عليه بطنه بالعمل ، ويأمره الشرط بالسير ، وينصح له كلُّ من يستجديه بالعمل . وأخيراً تنوء قدماه بحمله فيسقط على الأرض من جوع ومن إعياء بالقرب من الكوخ القذر الذي يقضى فيه ليله ، فيراه بعض الصبية من

(١) المسغبة : المجاعة (٢) تمتلئ بطنه لدرجة المضايقة (٣) جمع خَلَف وهو ما استخلفته من الشيء

أبناء ذلك الحى، فيجتمعون حوله، ويُبصرونه وهو مُصَفَّرُ الوجه، مُتصلَّبُ الأطرافِ، عديمُ الحركة، فيفزعون منه، ويهرَّبون إلى آباءهم وأمهاتهم ليُخبروهم بما لحقَ «چو». فيتساءل بعضهم، ويتضاحك الآخرون، يبدآن شاباً أخذته الشَّقَّةُ على «چو» حينما سمعَ بما حدث له، فانطلقَ إليه وجسَّ نَبْضَهُ، فأدرك أنه ما زال حياً، فاحتمله بينَ يديه، وانطلقَ به إلى كوخه. ثم مضى إلى منزله، وعادَ إليه بقدرِجٍ من (الشَّاي) الممزوجِ بقليلٍ من اللبنِ، ثم أخذَ يَسْقِيهِ ذلكَ الشَّرَابَ الدافئ. وبعدَ أن استعادَ «چو» بعضَ قُوَّتِهِ انصرفَ الشابُّ من غيرِ أن ينتظرَ كلمةً يشكرُها بها «چو» على ما قدَّم من فَضْلٍ، لأنَّه يُدْرِكُ أن هذا من أهمِّ واجباته.

عاد الأملُ في الحياةِ إلى «چو» بعدَ أن وجدَ إلى جواره ما يُساوِ ثلاثةَ دراهمٍ تركها ذلك الشابُّ عمداً عند انصرافه. ولكن هل تنفعُ الدراهمُ الثلاثةُ رجلاً لا عملَ له، وليسَ له مَورِدُ رزقٍ يُدرُّ عليه مالاً يعيشُ من ورائه؟ لقد انحدرَ في اليومِ الثاني الدرهمُ الثالثُ إلى جيبِ بائعِ الخبزِ، وطَفِقَ «چو» يعدو في

الشوارع هائماً على وجهه ، يمتدُّ بصره الحائرُ إلى الطريق ؛ كأنما يبحثُ عن شيءٍ فُقدَ منه ، وعَهْدُ الجميعِ به أنه لا يَمْلِكُ شيئاً تمتدُّ إليه يدُ سارقٍ فيتعقبه ويبحثُ عنه . فويلٌ للفقيرِ حين يقسو به الإنسان . إن « چو » في الحقِّ يبحثُ عن عقله الذي ضيَّعه الفقرُ وألمُ الجوع ، واجتماعُ الهموم ، وسوءُ الحظِّ .

عرَفَ « چو » من قبلُ عجوزاً فقيرةً ، فكان يقومُ لها بقضاءِ ما تحتاجُ إليه نظيرَ أجرٍ تافهٍ^(١) هو بعضُ لُقيَمَاتٍ ممَّا تعافه^(٢) نفسها . وكان يُدركُ أن تلك المرأةَ أحسنُ منه حالاً ؛ فإن هناك سيدةً مُحَسَّنةً ، تزورها الفينة^(٣) بعد الفينة ، وتركُها بعضَ المالِ ، لتستعينَ به على الحياة . وبينما كان سائراً في طريقه يعمدو إذ أبصرَ تلك العجوزَ تسيرَ على ثلاثٍ^(٤) مُحدَّوْدَةِ الظهرِ ، فما إن رآته على حاله هذه حتى نادته ، فأقبلَ عليها وقال : « إني جائعٌ » . فألقتْ إليه لُقْمَةً فالتهمها^(٥) ، ثم سقطَ على الأرضِ ، وهو يرتعدُ من شدة البردِ .

وبينما كانت العجوزُ تفكرُ فيما تفعلُ لذلك التائه المسكينِ جاءت

(١) حقير (٢) تذكره (٣) الحين بعد الحين

(٤) الثلاث : قدماها وعصاها (٥) التهمها : ابتلعها بمرّة

(٤)

السيدة المحسنة لزيارتها ، وأبصرت « چو » على حاله هذه ، فأمرت خادمها باستدعاء الحوذى ، وكلفته أن يحمله إلى مركبتها وينطلق إلى المنزل بعد أن يُعرج على طبيبها الخاص ؛ ليُسعف المسكين بالعلاج . فأسعفه الطبيب ثم أخذ إلى قصر تلك السيدة الكريمة .

فتح « چو » عينيه فألّفى ^(١) نفسه ينام على فراشٍ وثير ^(٢) في حجرة مضأة ، وإلى جواره وعاءٌ مملوء بالحساء ، فحسب نفسه في حلم ^(٣) ، فحس أعضاءه حتى اقتنع بأنه في حقيقة لا في خيال ، ولا حلم . فتجرّع الحساء عن آخره ، ثم أدرك أنه لن يستطيع البقاء في ذلك الجو الذي لم يُخلَق لمثله ، فغادر الفراش وانطلق يعدو إلى الشارع ، ولم يدر ما حلَّ به . غير أنه وجد نفسه بعد أيام في إحدى المصحات يُعالج من حمى شديدة أصابته في الأمعاء وكادت تقضى عليه .

وقبل أن يتيم بروءه لفظه ^(٤) المستشفى ، فاحتضنته الشوارع يذرعها ^(٥) كما كان يفعل من قبل ، وأبصر به طبيبٌ سائر في الطريق ، وأدرك أنه مريض ، فأقبل عليه وجس نبضه ، ثم مدَّ إليه يده

(١) وجد (٢) مهمد ، مريج

(٣) الحلم بضم اللام وسكونها : ما يراه النائم (٤) رماه (٥) يقبضها

ليتوكأ عليها ، وطلب منه أن يتبعه إلى داره . وهناك أمر خادمه ، أن يهيئ الحمام لذلك المسكين ليغتسل ، ويُعد له ثياباً نظيفةً ، ففعل . وبات « چو » ليلته هادئاً مستريحاً .

وبعد أيام كان الطبيبُ جالساً بالقرب من سرير « چو » ، فقام هذا من فراشه وهو في شدة المرض ، وحاول مُغادرة الفراش ، فقال له الطبيبُ : « ابقَ في مكانك ! ماذا تريد ؟ »

فقال « چو » : « إننى أريد الذهاب إلى المقبرة . إننى أريد للحاق بصديقى الذى جمعتنى به أواصر^(١) المحبة والوفاء . إننى أتوق^(٢) لرؤيته ، وأريد أن أنام بجواره . لقد مضى على فراقنا أمدٌ طويلٌ ، وكان من الواجب ألاَّ نَفترق . لقد استراح وخلفنى لأشقى . إننى أعيش هنا وحيداً ، وهو يعيش هناك وحيداً ، فيجب أن نجتمع ليستأنس كلُّنا بصاحبه .

فقال الطبيب لچو : « نَمْ وستكون إلى جواره فى الوقت الملائم ... »

فقال له : « أتعدنى بدفنى معه ؟ »

فقال الطبيبُ : « لك على هذا » .

(١) جمع آصرة وهى الرحم والقرابة والمنة (٢) أشتاق

فقال (چو): «سَيِّدِي، هناك بقعةٌ طاهرةٌ من الأرضِ اعتدتُ أنْ
أنظِّفَهَا وأُنثِّرَ الرياحينَ فوقَ أرضِهَا، وأُرَوِّيَ جَدَّهَا^(١) بدموعي .
آه... إِنَّ الدُّنْيَا مُظْلَمَةٌ فِي عَيْنِي... أَيْنَ النُّورُ؟ أَيْنَ هُوَ...؟»
الطبيب: «إِنَّ النُّورَ آتٍ سَرِيعًا.» ثم ساد الصَّمْتُ وَخِيَمَتْ
على المَسْكَانِ الرِّهْبَةُ وَالسَّكُونُ، ثم قال الطبيبُ «لِچو»:
(چو، چو)، كَيْفَ أَنْتِ أَيْهَا الْمَسْكِينِ؟»

فقال (چو): «إِنِّي هُنَا أَسْمَعُكَ .»
الطبيب: «أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُرَدِّدَ مَا أَقُولُ؟»
چو: «نعم: نعم.. إِنِّي وَسَطُ الظَّلَامِ الدَّامِسِ أَحْسُّ
عَطْفَكَ، وَأَدْرِكُ رِعَايَتَكَ .»
الطبيب: «قُلْ «الله» .»

چو: «نعم . نعم . «الله القادرُ على كُلِّ شَيْءٍ يَا سَيِّدِي .»
الطبيب: «الله مالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»
چو: «الله مالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . أَيْنَ النُّورُ يَا سَيِّدِي؟»
الطبيب: النُّورُ قَرِيبٌ جَدًّا . وَالْبَقَاءُ لِلَّهِ .

(١) الْجَدُّ بِفَتْحَتَيْنِ : الْقَبْرُ ، وَجَمْعُهُ أَجْدُثٌ وَأَجْدَاثٌ

أَمْسَكَ الطَّيِّبُ عَنِ الْكَلَامِ ، وَصَمَتَ ^(١) (چو) إِلَى الْأَبَدِ .
لَقَدْ أُسْبِغَ عَلَيْهِ النُّورُ نَعِيمَهُ . لَقَدْ انْتَقَلَ مِنْ عَالَمِ الشَّرُورِ وَالْآثَامِ .
لَقَدْ وَدَّعَ تِلْكَ الْحَيَاةَ الْفَانِيَةَ وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِ الَّتِي وَسَّعَتْ
كُلَّ شَيْءٍ ، وَفِي ذَلِكَ الصَّدِيقِ الْمَخْلُصِ الَّذِي سَيَلِقَاهُ عَمَّا قَرِيبٍ ،
وَفِي هَذَا الطَّيِّبِ الَّذِي لَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرَكَهُ لِيُودَّعَ الْعَالَمَ وَهُوَ حَاقِدٌ
نَاقِمٌ عَلَى جَمِيعِ بَنِيهِ .

القِصَّةُ الثَّالِثَةُ

بُولُ دُمْنَى الصَّغِيرِ

أَوْ الْأَمَلِ الضَّائِعِ

كَانَ «دُمْنَى» الصَّغِيرُ ابْنًا لِتَاجِرٍ مُوسِرٍ، وَاسِعِ النِّعْمَةِ، وَافِرِ الثَّرَاءِ، يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ جَافَ الطَّبْعِ، بَارِدَ الشُّعُورِ، تَمَنَّى مُذْ تَزَوَّجَ أَنْ يُعْقِبَ وَلَدًا يَخْلُفُهُ فِي تِجَارَتِهِ الَّتِي شَغَلَتْ فِكْرَهُ كُلَّ عُمْرِهِ؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ شَيْءٍ لَدَيْهِ فِي الْوُجُودِ. وَلَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ يُؤَمِّلَ خَلْفًا يُشْرِكُهُ مَعَهُ فِي عَمَلِهِ، وَيَحْمِلُ اسْمَهُ بَعْدَهُ، ذُوْنُ أَنْ يُبَادِلَهُ الْحُبَّ.

بَدَتْ دَلَائِلُ رَغْبَتِهِ جَلِيَّةً، فَعَنُونُ قَائِمَةُ الْمُسْتَجَرِّ بِاسْمِ «دُمْنَى وَوَلَدِهِ»؛ تَفَاوُلًا بِتَحَقُّقِ طَلِبَتِهِ. وَقَدْ اقْتَضَتْ الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ يُجَابَ نِدَاؤُهُ، فَكَادَ يَطِيرُ سُرُورًا وَطَرِبًا بِهَذَا الْمَوْلُودِ السَّعِيدِ، الَّذِي عَقَدَ عَلَيْهِ الْأَمَلَ الْبَاسِمَ، وَالْمُسْتَقْبَلَ الزَّاهِرَ. وَكَانَ لِمُقَدَّمِهِ رَنَةٌ فَرِحَ تَجَاوَبَتْ أَصْدَاؤُهَا بَيْنَ جَوَانِبِ نَفْسِهِ، فَأَقَامَ لَذَلِكَ مَا أَقَامَ مِنْ شَعَائِرِ التَّرْحِيبِ الْكَرِيمِ، وَالْحَفَاوَةِ الْبَالِغَةِ. مَاتَتْ وَالِدَةُ «بُولٍ» إِثْرَ وَلَادَتِهِ — وَلَكِنْ مَوْتَهَا لَمْ يُحْرِكْ فِي الزَّوْجِ لَوَاعِجَ الْأَسَى. وَمَاذَا يَعْنِيهِ مَا دَامَ الْمَوْتُ قَدْ تَجَاوَزَهُ،

فتركه حياً يرعى فتاه ويتعهد سُؤنه — على أنها قد تركت بجوار
 طفلها ابنة جميلة تدعى « فلورانس » عمرها ست سنوات .
 لم يحن إليها قلب أبيها ، ولم يغمرها بعطفه ، حتى لقد أوشك أن
 يتجاهل معرفتها إذا قابلها في الطريق ؛ ظناً منه أن الفتاة
 لا تفيدُه وشركته ؟

فقدت « فلورانس » حنان الأب ، وشفقة الوالد الرحيم ،
 فظلت تبكي أمها الرؤوم^(١) وهي في عزلتها ، من غير أن تجد
 من يرحم فؤادها الحزين ، وقلبها الكبير^(٢) .

وبعد أشهر قلائل اشتدت مفاصل الصبي ، ونما عوده واستوى .
 حينئذ بدأ يعرف من حوله ، لم يحب أحداً حبه لأخته « فلورانس » ؛
 فقد كان يتسم لها ابتسامة الطفولة البريئة ، ويمد إليها ذراعيه
 مرحباً — وملائكة الرحمة ترفرف عليه حرصاً من كيده الحاسدين —
 كلما شاهدها مقبلة صوبه . ولا غربة ؛ ففي ود أخيه لمست
 كل ما يعزيبها في وحدتها الموحشة ، واعتاضت به عن بر أبيها

(٢) الكظم : الحزن الشديد ، وقلب

(١) الرؤوم : كثيرة العطف

كظيم : شديد الحزن

المتعسف^(١)، فكانت تداعبه في أوقات فراغها، وتقوم بخدمته غير مُكترثة لما يعثرها من نصيب^(٢). ولما بلغ السنّ الملائمة أخذ إلى الكنيسة، وتسمّى باسم أبيه «بول دُمبي» في حفلٍ عظيم أقامه له، وفيه نال إعجاب الحاضرين صورةً وجمالاً.

وفي ذلك اليوم تملكَ الطفلَ بردٌ شديدٌ، أخذَ يتزايدُ يوماً بعدَ يومٍ، حتى ضَعَفَ جسمُه، وَهَنْتْ قُوَّتُه^(٣)، واصفرَّ وجهُه، فأصبحَ مُعرَّضاً لأمراضِ الخُصْبَةِ والجُدريِّ والسُّعالِ الديكي، كما قالتْ مَرِيَّتُهُ «ريشاردز». وكُلِّمَ تَخَلَّصَ من مرضٍ انقَضَ عليه مرضٌ آخرٌ. وكُلِّمَ ظَهَرَتْ لَهُ سِنٌّ أَصَابَتْهُ نوبةٌ من النوباتِ.

وَرَغِمَ ما أَصَابَهُ من نُحُولٍ^(٤) — وهو لا يزالُ صَبِيًّا لم يَتَجَاوَزِ السَّادِسَةَ من عُمرِهِ — فَإِنْ مَسَحَةَ^(٥) الْجَمَالَ ما انْفَكَّتْ مطبوعةٌ على مُحيَاة^(٦)، وبشاشة الوجه لم تُفَارِقْهُ لَحْظَةً، والسُّرُورَ بادٍ عليه كلَّ حينٍ، ولا سِيَّما عِنْدَ ما يَلْعَبُ هُوَ وَأَخْتُهُ فِي حُجْرَتِهِمَا الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ كَانَتْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ آثَارُ الْجُهِدِ وَالْعَنَاءِ. وَمِنْ دَوَاعِي الْعَجَبِ وَإِثَارَةِ الدَّهْشَةِ رُؤْيَاهُ كَالْكِبَارِ، يَفْعَلُ كَمَا يَفْعَلُونَ،

(١) السيِّءُ الخُلُقِ، القاسي في معاملته (٢) النَّصِيبُ : التَّعْبُ (٣) ضَعُفَتْ

(٤) النُّحُولُ : الْهُزُلُ (٥) يَقَالُ عَلَى فُلَانٍ مَسَحَتْهُ مِنْ جَمَالِ أَيْ شَيْءٍ مِنْهُ (٦) وَجْهَهُ

وَيَتَكَلَّمُ كَمَا يَتَكَلَّمُونَ ، وَهُوَ بَيْنَ بَرَاثِنِ الْمَوْتِ وَمَخَالِبِ الْوَبَاءِ ^(١)
السَّامِّ ، مِمَّا حَطَّمْ قَلْبَ مُرَيِّتِهِ الَّتِي وَدَّتْ لَوْ يَكُونُ طِفْلاً يَتَذَوَّقُ ^(٢)
حَلَاوَةَ الطُّفُولَةِ ، وَيَتَمَتَّعُ بِجَمَالِهَا ، فَيُلْعَبُ كَمَا يُلْعَبُ الصِّغَارُ ،
وَيَتَحَدَّثُ كَمَا يَتَحَدَّثُونَ .

وقد اعْتَادَ أَبُوهُ أَنْ يَأْخُذَهُ بَعْدَ الْغَدَاءِ ، وَيُجْلِسَهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ ،
يُجَاذِبُهُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ ، فَكَانَا يَتَّفِقَانِ أَحْيَانًا ، وَيَخْتَلِفَانِ أَحْيَانًا .
وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ الْإِبْنُ فِي جَلِيسَةِ كَعَادَتِهِ سَأَلَ أَبَاهُ :
« مَا النُّقُودُ يَا أَبَتَاهُ ؟ »

الْأَبُ — « هِيَ الزَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنَّحَاسُ يَا بُنَى . إِنَّكَ تَعْرِفُ
مَعْنَى النُّقُودِ يَا (پول) ! »

الْإِبْنُ — « نَعَمْ ، وَلَكِنْ مَا فَائِدَتُهَا ؟ »

فَأَجَابَ الْأَبُ — وَقَدْ أَمْسَكَ يَدَيْ طِفْلِهِ الصَّغِيرِ يَعْبَثُ بِهِمَا :
« بِالنُّقُودِ تَصِلُ إِلَى مَا تَرِيدُ يَا بُنَى الْعَزِيزِ . »

فَسَحَبَ « پُول » يَدَيْهِ بَرَفَقٍ ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتِ خَائِقٍ
تَبْدُو فِي مَقَاطِعِهِ آيَاتُ الْأَسَى ^(٣) وَالْجَزَعِ : « وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ إِنْقَازَ

(١) مرض عام (٢) يتذوقها : يتذوقها شيئاً بعد شيء (٣) الأسى : الحزن

أُحْيِ لَتَبْقَى حَيَّةً تَمْنَحُنِي حَنَانَهَا وَعَظْفَهَا ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَهْبِي الصَّحَّةَ
وَالْقُوَّةَ وَالنُّمُوَّ لَتِمَّ سَعَادَتِي . »

فَلَمْ يَسْعَ الْأَبَ إِلَّا أَنْ يَبْعَثَ الْأَمَلَ فِي نَفْسِ ابْنِهِ الْمُتَقَوِّضَةِ ،
وَيُعِيدَ إِلَيْهِ بِالْإِيحَاءِ مَا ذَوَى^(١) مِنْ صِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَمَا ذَبُلَ مِنْ
زَهْرَةِ طِفْلُولَتِهِ : « دَعُ عَنْكَ هَذَا الْوَهْمَ يَا « پُول » ؛ فَإِنَّكَ قَوِيٌّ
الْبُنْيَةِ^(٢) ، سَلِيمُ الْبَدَنِ كَعَبْرِكَ مِنَ الْأَطْفَالِ . »

فَرَدَّدَ الصَّبِيُّ الصَّوْتَ وَهُوَ يَتَأَوَّهُ وَيَزِفِرُ : « لَا يَا أَبِي ؛
حِينَمَا كَانَتْ « فُلُورَانْسُ » صَغِيرَةً وَفِي مِثْلِ سِنِّي ، لَمْ تَلَقَ الَّذِي
لَا قِيْتُ ؛ مِنْ تَعَبٍ بَعْدَ لَعِبٍ قَلِيلٍ ، وَضَعْفٍ يَسْرَى فِي أَعْضَائِي
سَرِيانَ الدَّمِ فِي الشَّرَايِينِ ، مِمَّا أَقْعَدَنِي وَحَرَمَنِي لَذَّةَ التَّمَتُّعِ بِمَا يَرُغَبُ
فِيهِ أَمْثَالِي مِنَ اللَّعِبِ . »

اسْتَوَلَى الْقَلْقُ عَلَى الْأَبِ ، وَبَرَقَ^(٣) بَصَرُهُ ، وَأَخَذَتْ الْحَيْرَةُ
مِنْهُ كُلَّ مَا خَذِ . فَكُنْتُ تَرَاهُ مُشْدُوهاً^(٤) فَاقْدَ اللَّبَّ^(٥) ، فَأَرْسَلَ
إِلَى أُخْتِهِ يَسْتَشِيرُهَا فِي أَمْرِ « پُول » ثُمَّ اسْتَدْعَى الطَّيِّيبَ لِعِيَادَتِهِ ،
فَأَتَى عَلَى عَجَلٍ ، وَخَفَصَ عَنِ الْمَرِيضِ خَفْصًا دَقِيقًا ، عَرَفَ مِنْهُ عِلَّةَ

(١) ذَوَى : ذَبُلَ (٢) البنية : الفطرة ، الجسم (٣) تحير فلم يَظَرَفَ

(٤) مدهوشاً ، متحيراً (٥) العقل

الدَّاءُ ، ووقفَ على الدَّواءِ فقال : إِنَّ جِسْمَ الطِّفْلِ أَهْيَفُ^(١) لَا يَنَاسِبُ سِنُّهُ ، وَعَقْلُهُ أَكْبَرُ مِنْ جَسَدِهِ . إِنَّهُ يُفَكِّرُ تَفَكُّيرَ الرِّجَالِ ، وَيَبْدُو عَلَيْهِ الْهَمُّ وَالْقَلَقُ ، فِي وَقْتٍ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَرْحِ وَاللَّعِبِ ؛ وَلِذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَغْيِيرِ الْهَوَاءِ عَلَى قُرْبٍ مِنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ ؛ فَإِنَّ نَسِيمَ الْبَحْرِ يُفِيدُ الْأَطْفَالَ أَجَلَ فَائِدَةٍ . »

وَأَفَقَ الْأَبُ عَلَى سَفَرِ ابْنِهِ وَمُهْجَةِ نَفْسِهِ ، تَصَحَّبَهُ أُخْتُهُ وَالْمَرْيُتَةُ ؛ إِجَابَةً لِرَغْبَةِ الطَّبِيبِ النَّطَاسِيِّ ، وَأَمَلًا فِي اسْتِشْفَاءِ طِفْلِهِ الْعَزِيزِ ، إِلَى « بَرَايْتُون » — وَهِيَ مَدِينَةٌ بَحْرِيَّةٌ تَبْعُدُ سَاعَةً عَنْ « لَنْدَن » — فَاخْتِيرَتْ مَصَحَّةً جَمِيلَةً ، حَسَنَةً الْمَوْقِعِ ، كَامِلَةً الْأَدَوَاتِ ، نَزَلُوا بِهَا ، تَدِيرُهَا سَيِّدَةٌ شَمَطَاءُ^(٢) ، عَابَسَةُ الْوَجْهِ ، بَارِزَةُ الْأَنْفِ ، جَاحِظَةٌ^(٣) الْعَيْنَيْنِ ، تُدْعَى السَّيِّدَةُ (بِنَكِينِ) . وَكَانَ يَعِيشُ لَدَيْهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ طِفْلَانِ أَخَوَانِ : فَتَاةٌ ذَاتُ جَمَالٍ ، شَابَ مُقْلَتَيْهَا زُرْقَةٌ ؛ وَغُلَامٌ تَدُلُّ حَرَكَاتُهُ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ حُرْقَةٍ الْجَوَى^(٤) ، وَلَوْعَةٍ الْوَجْدِ الدَّفِينِ ، فَكَثِيرًا مَا سَأَلَ « فُلُورَانْسَ » بِصَوْتِ بَاكٍ ، عَنْ الطَّرِيقِ الَّذِي يُوصِلُهُ إِلَى الْهِنْدِ ، حَيْثُ يَقِيمُ أَبَوَاهُ .

(١) ضَامِرٌ . (٢) شَعْرُ رَأْسِهَا أَيْضٌ يَخَالُطُهُ سَوَادٌ . (٣) يُقَالُ جَاحِظَتْ عَيْنُهُ أَى عَظُمَتْ مُقْلَتَاهَا وَتَنَّتْ . (٤) الْحَزَنُ .

هاجتَ بِلابلِ الرَّجُلِ ، وثارتْ خواطرُهُ ، فأصبحَ لا يُرى
إلا مُكْتَسِبًا حزينًا ، من أجلِ وارثِهِ وفِلَذَةٍ^(١) كبدِهِ ؛ فقد استَهَامَ
به قلبُهُ ، وسهدَ^(٢) له جَفَنُهُ ، فلم يَزِرْ الكَرَى^(٣) مُقْلَتَيْهِ ؛ تعلقًا بفتَاهُ ،
وشغفًا بِجُبَّةِ . وَلَوْ أَنَّهُ ما زالَ غيرَ مُكْتَرِثٍ لِابنتِهِ الْمِسْكِينَةِ ،
يَحْرُمُهَا أَطَافَ^(٤) بَرَّهُ ، ويَحُولُ بينها وَيَبْنِ عَاطِفَةَ الْابْوَةِ الْكَرِيمَةِ
الَّتِي تَرعاها بِالْحُنَانِ ، وتَكَلُّوْها بِالْعَطْفِ وَالْإِحْسَانِ ، فَضْلًا عَمَّا
كَانَ يَتَاجَجُ فِي صَدْرِهِ مِنْ لَظَى^(٥) الْغَيْرَةِ وَنَارِ الْحَقْدِ كُلَّمَا رَأَى
ابْنَهُ يُحْطَبُ وَدَّ أُخْتَهُ أَكْثَرَ مِنْهُ ؛ فَقَدْ كَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يَفُوزَ بِتِلْكَ
الْمَنْزِلَةِ الَّتِي نَالَهَا « فُلُورَانِسُ » مِنْ أَخِيهَا . وَلَكِنَّ هَذَا لَمْ يَوْثُرْ
فِي نَفْسِ الْأَبِ ، فَأَخَذَ يَعُودُ طِفْلَهُ مَرَّةً كُلَّ أُسْبُوعٍ فِي « بَرَايْتُونِ »
حَيْثُ يُعَالَجُ ، ثُمَّ يَسْتَصْحَبُ وَلَدَيْهِ إِلَى الْفُنْدُقِ النَّازِلِ بِهِ ، مِنْ
السَّبْتِ إِلَى الْاِثْنَيْنِ ؛ لِيَقِفَ عَلَى قَدْرِ مَا آلَ إِلَيْهِ الْعِلَاجُ مِنْ
نَجَاحٍ ، وَمَا نَعِمَ بِهِ « يُولُ » مِنْ تَحَسُّنٍ فِي صِحَّتِهِ . وَذَاتَ مَرَّةٍ
قَالَتْ صَاحِبَةُ الْمَصَحَّةِ لِلطِّفْلِ : « أَتُحِبُّنِي أَثِيهَا الطِّفْلُ الْعَزِيزُ ؟ »
فَأَجَابَ وَهُوَ يَهْزُ رَأْسَهُ : « إِنِّي لَا أَحِبُّكَ ؛ بَلْ أَوْدُ أَنْ أُرْحَلَ
مِنْ بَيْتِكَ ؛ لِأَنِّي أَكْرَهُ الْإِقَامَةَ فِيهِ . » وَمَعَ نَفُورِهِ مِنْ لُقْيَاهَا

(١) قطعة من كبده . (٢) الشهاد : الأرق ، وبابه طرب . (٣) الكرى :

النعاس . (٤) أطفه بكذا : برّه به واللطفة : الهدية . (٥) نار .

كَانَ يَجْلِسُ عَلَى أَرِيكَتِهِ وَيُصَوِّبُ إِلَيْهَا نَظْرَهُ مِثْلَمَا يَفْعَلُ مَعَ
وَالِدِهِ بِالْمَنْزِلِ .

مَضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ عِدَّةُ أَسَابِيعَ تَحَسَّنَتْ فِيهَا صِحَّةُ « پُول »
عَنْ ذِي قَبْلِ ، غَيْرَ أَنَّ التَّحَسُّنَ لَمْ يَبْلُغْ شَأْوَهُ ؛ فَإِنَّ الطِّفْلَ
مَا زَالَ ضَعِيفًا لَا يَقْدِرُ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّيْرِ . وَلِذَا أُعِدَّتْ لَهُ عَجَلَةٌ
صَغِيرَةٌ يَدْفَعُهَا شَيْخٌ — بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتْيًا ^(١) ، قَدْ أَلِفَهُ وَاطْمَأَنَّ إِلَى
حَدِيثِهِ — كُلَّ يَوْمٍ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ كِي يَقْضَى سَحَابَةَ النَّهَارِ
أَمَامَ أَمْوَاجِ الْمِصْطَخِبَةِ الْمُتَلَاظِمَةِ ، وَعُجَابِهِ ^(٢) السَّاحِرِ الْمُتَدَقِّقِ ،
مُتَمَتِّعًا بِالْهَوَاءِ الْبَلِيلِ ، وَالنَّسِيمِ الْعَلِيلِ ، يَرْمُقُ ^(٣) الْأَطْفَالَ بِنَظَرَاتِهِ
وَهُمْ يَلْعَبُونَ وَيَسْتَحْمُونَ ، وَيَتَسَامَرُونَ تَحْتَ الْمِظَلَّاتِ ، وَقَدْ انْبَسَطَ
ضَوْءُ الشَّمْسِ فَوْقَ أَدِيمِ الْأَرْضِ الصَّفْرَاءِ .

وَلَشَدَّ مَا كَانَ يُعْجِبُهُ هَذَا الْمَنْظَرُ وَيَعِيلُ إِلَى مُشَارَكَتِهِمْ .
وَلَكِنْ أَنَّى لَهُ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ ؟ فَاقْتَنَعَ بِجَوَارِئِهِ
الَّتِي آثَرَ رُفْقَتَهَا دُونَ سِوَاهَا ، تَقَرَّأَ لَهُ الْقِصَصَ وَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا ،
تَحْتَ أَطْبَاقِ ذَلِكَ الْجَوْ الْجَمِيلِ ، وَفِي رِحَابِ ^(٤) ذَلِكَ الْهُدُوءِ

(١) عَتْيَا الشَّيْخُ عَتِيًّا : أَسَنَّ وَكَبَرَ . (٢) الْمَوْجُ (٣) رَمَقَهُ : نَظَرَ إِلَيْهِ

(٤) الرَّحْبَةُ : السَّاحَةُ الْمُنْبَسِطَةُ أَمَامَ الْمَسْجِدِ ، وَالْجَمْعُ رِحَابٌ ، وَالْمَعْنَى فِي سَاحَةِ
الْهُدُوءِ الْفَسِيحَةِ

الشامل ، وفي كنف تلك الطبيعة الساحرة التي تخلبُ الالباب ،
وتأخذ بمجامع القلوب .

وَذَاتَ يَوْمٍ بينما كَانَ الْقَتَى مَعَ شَقِيقَتِهِ فِي جَلْسَةٍ هَادِئَةٍ ،
ابْتَدَرَهَا مُحَدِّثًا : « إِنِّي أَهِيْمُ بِكَ حُبًّا يَا أُخْتِي ! وَثِقِي بَأَنِّي
سَأَمُوتُ لَوْ ذَهَبْتُ إِلَى الْهِنْدِ كَأَخْتِ ذَلِكَ الصَّبِيِّ . »

فَأَمَلَتْ « فُلُورَانْسُ » رَأْسَهَا إِلَيْهِ ، وَهَمَسَتْ فِي أذُنِهِ : « إِنِّي
لَنْ أَفَارِقَكَ لَحْظَةً مَدَى الْحَيَاةِ . وَيَسْرُنِي أَنْ أَرَكَ مَوْفُورَ ^(١) الصِّحَّةِ ،
قَوِيَّ الْبَنِيَّةِ ، مُعَافًى فِي بَدَنِكَ ؛ لِئَنكُونَ مَعًا تُوَاسِيْنِي وَأُوَاسِيْكَ فِي
هَذِهِ الْحَيَاةِ . »

فَقَالَ « يُولُ » : « نَعَمْ ؛ إِنِّي أَقْدَرُ شُعُورَكَ نَحْوِي أَيْتَهَا الْأَخْتُ
الْعَزِيزَةُ ! وَإِنْ صَحَّتِي فِي تَقَدُّمٍ . اسْمَعِي يَا (فُلُور) ! مَاذَا يَقُولُ الْبَحْرُ ؟ »
فُلُور : إِنَّهُ لَا يَقُولُ شَيْئًا يَا عَزِيزِي ! وَلَكِنْ تَلَاطَمَ الْأَمْوَاجُ
يَحْدِثُ ذَلِكَ الصَّوْتَ الَّذِي تَسْمَعُهُ . »

يُولُ : « نَعَمْ ؛ وَلَكِنْ الْأَمْوَاجُ تَقُولُ شَيْئًا ، وَتَقُولُهُ دَائِمًا .
وَسِرْعَانِ مَا حَوَّلَ مَجْرَى كَلَامِهِ وَقَالَ : « مَا الْمَكَانُ الَّذِي
أَرَاهُ بَعِيدًا يَا (فُلُور) ؟ »

فلور : « إِنَّهُ بِلَدَةٍ أُخْرَى . »

واستمرَّ يتكلمُ مع شقيقته ، ولكنه كثيرًا ما قطعَ اتِّصالَ الحديثِ ؛ ليُصْغِيَ إلى أمواجِ البحرِ ، ويَنظُرَ إلى المكانِ النَّائِي . وبعدَ أن مكثَ في « برايتون » زهاءَ سنةٍ تحسَّنتُ صحتهُ قليلاً ؛ غيرَ أنه لم يزلْ على فُتُوره ونحافتهِ ، هزيلَ الجسمِ ، ضيقَ الصَّدْرِ ، يتعبُ لِأَقَلِّ شَيْءٍ . وفي بَعْضِ زياراتِ أبيه الأسبوعيَّةِ خاطَبَ صاحِبَةَ المصحَّةِ مُستفسِّراً : « كيفَ حالُ ولدي أيتها السيدة ؟ »

فقلت : إِنِّي أَشْعُرُ بِتَقَدُّمِهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .
الأب : حَقًّا إِنَّهُ فِي تَحْسُنٍ ، ولكنه يُحتاجُ إلى سنواتٍ عَشْرِ ؛
بل أَكْثَرَ حَتَّى يَصِحَّ وَيَسْتَجِمَّ قُوَاهُ .

وأخذَ أبُوهُ يَقُولُ — وَالْأَسْفُ مُلْءُ جَنَانِهِ — إِنَّ ضَعْفَهُ سَوْفَ
يُؤَخِّرُ دِرَاسَتَهُ ، وَرُبَّمَا قَضَى عَلَى مُسْتَقْبَلِهِ ، معَ أَنَّهُ الْوَارِثُ الْأَكْبَرُ
لشركةِ « دُمبِي وولده » .

اتَّقَى السيدُ « دُمبِي » معَ « الدكتور بلَمْبَر » أَنْ يُلْحِقَ ابْنَهُ
بِالْقِسْمِ الدَّاخِلِيِّ مِنْ مَدْرَسَتِهِ ، الَّتِي تَقْرُبُ مِنَ المصحَّةِ ، عَلَى أَنْ

تَبَقَى «فلورانس» تحتَ عنايةِ السيِّدةِ «بيكين» صاحبةِ المصحَّةِ ،
للإشرافِ على أخيها ، وزيارتهِ مرَّةً كلَّ أسبوعٍ .

كانت مدرسةُ «الدكتور بامبر» تؤثرُ هذا النمطَ ^(١) من
التربيةِ التي تُعْنَى بِحَسْوِ المعلوماتِ في أدمغةِ التلاميذِ ، من غيرِ
نَظَرٍ إلى ما يلائمُ سنَّهم ، ويوافقُ استعدادهم ؛ إذ كان المشهورُ
عن «الدكتور بامبر» أنه يستطيعُ أن ينهضَ بالتلميذَ أيًّا كانت
مقدِّراته العقليةُ ، وأن يكونَ منه رجلاً في وقتٍ قصيرٍ ؛ ولذا وعدَ
بأنه سيُكوِّنُ مِنْ «پول» رجلاً في أدنى فرصةٍ مُمكنةٍ ، وأقلَّ
زمنٍ مُستطاعٍ .

عندَ ذلك سألَ الأبُّ ابنته : «أَتُحِبُّ أن يكونَ منك رجلٌ ،
وأن تُعاملَ كرجُلٍ يا بُنَيَّ ؟»

الابنُ : «إني أَفْضَلُ أن أكونَ طفلاً ، وأن أعاملَ كطفلي ،
وأودُّ أن أمكثَ مع أختي فلوى .»

تركَ «پول» المصحَّةَ وبدأَ حياته المدرسيةَ ، فاختصَّت بتعليمه
الآنسةُ «بامبر» ابنةُ (الدكتور) وتدعى «كورنليا» وهي مُدرِّسةٌ
مُثَقِّفةٌ تلبسُ مِنْظَارًا ، ولا تعرفُ كثيراً ولا قليلاً عن نَفْسِيَّةِ

(١) النمطُ بفتحيتين : الجماعة من الناس أمرهم واحد، ثم أطلق اصطلاحاً على الصنف والنوع

الأطفال، وميولهم وغرائزهم؛ ولا تفهم ما يلائمهم وما لا يلائمهم، فكانت ترهقه وتحشو ذهنه بمختلف العلوم من بدء اليوم حتى نهايته. فأخذ يئن من كثرة الدروس التي لم يستطع لها فهما، ولم يذق لها طعما. وبدأ يشكو الصداع وضعف الرجلين. ورجع إلى ما كان عليه من تحول الجسم، وشحوب الوجه. وصار كرجل هريم حطمه الدهر، وأفناه الزمن، وامتدت إليه يد البلى. إزاء ذلك لم يجد الناس بدا من دُعائه باسم «الرجل الهرم» بحسب ما تراءى لهم، مع رقة معاملته، واحترامه الصغير والكبير، وإحسانه إلى الغني والفقير، وعطفه على الطير والحيوان، مما قرب إليه الأنفس، وحبب فيه الأرواح، فرثت لحاله، وبكت سوء مآله.

لم يقف أمر صاحب المدرسة عند هذه الغاية؛ بل أوصى ابنته «كورنيليا» أن تبذل جهدا في حشو عقله بكل ما يستطيع من مواد، طارحا العناية بجسمه ومراعاة سنه وراءه ظهريا. فعملت بوصية أبيها، ولم تقصر في تحقيق رغبته، ولكن «فلورانس» لحظت على أخيها في أثناء عيادته شدة الاضفرار

والضعف من العناء والإجهاد ومواصلة الدرس . فكانت أخته
تريح عقله ، وتساعده في إعداد واجبه الأسبوعي ؛ ليستعيد
نشاطه ، ويُقبل على استماع الدرس بفؤادٍ مملوء الغبطة والانشراح .
وقد حدث ذات يوم — بعد انتهاء الدراسة ، وقبل أن تبدأ
العطلة بأسبوعين — أن وضع « پول » رأسه المكدود المتعب
على فخذه أحد قرنائهِ ، ولم يتمكن من رفعه ؛ إذ غشيته إغماءة
أفقده رشده ، فصب عليه الماء ليُفيق ويرجع إليه صوابه .
ولأول وهلة — وقتما أفاق — لحظ أن النافذة مفتوحة ، وأن
وجهه وشعره مبتلان بالماء ، فعرف حقيقة الحال ، ثم رأى
« الدكتور بلمبر » والعريف واقفين يُحدقان^(١) بالنظر إليه .
وما كاد يفتح عينيه حتى فاجأه « الدكتور » مخاطباً :

« كيف حال صديق الصغير الآن ؟ »

« إنَّ حالي حسنةٌ يا سيدي ! ولا يسعني إلا أن أقدم لك
جزيل شكرى ، ووافر ثنائى ، على ما أوليتنيهِ من عطفٍ . »
وبعد قليلٍ ظهرت أمامه أرضُ الحجرة تتحركُ ، وبدت

(١) حدَّقَ إليه بالنظر تحديقاً : شدَّد النظر إليه .

الجُذْرَانِ كَأَنَّهَا تَتَمَلَّيْلُ رُقْصًا، وَلاَحَتْ لَهُ رَأْسُ «الدُّكْتُور» فِي ضَعْفِ حَجْمِهِ الْمُعْتَادِ، وَتَرَدَّدَ صَدَى الطَّبِيعَةِ صَفِيرًا فِي أُذُنِهِ، وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا فِي وَجْهِهِ، فَقَادَهُ رَفِيقُهُ الَّذِي أَسْنَدَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَى غُرْفَةِ نَوْمِهِ، وَسَاعَدَهُ فِي خَلْعِ مَلَابِسِهِ بِرَفْقٍ وَلِينٍ، وَأَرْقَدَهُ عَلَى سَرِيرِهِ بِتَوَدَّةٍ. اسْتُدْعِيَ الطَّبِيبُ فِي الْحَالِ، فَأَتَى وَخَصَّ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَجِبُ أَنْ يُوقَفَ عَنْ اسْتِذْكَارِ دُرُوسِهِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ».

وَبَعْدَ بَضْعَةِ أَيَّامٍ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْهَضَ مِنْ فِرَاشِهِ وَيَسِيرَ فِي حَدِيقَةِ الْمَدْرَسَةِ. وَكَانَ يَعْجَبُ حِينَمَا يَجِدُ كُلَّ مَنْ رَأَاهُ يَتَأَلَّمُ لَهُ، وَيُسْفِكُ عَلَيْهِ، وَيُحِبُّهُ، وَيُحَادِثُهُ، وَيَسْأَلُ عَنْهُ. فَقَابَلَ الْجَمِيلَ بِمِثْلِهِ، وَلَاطَفَ إِخْوَانَهُ بِرِقَّتِهِ الْمَعْهُودَةِ، وَبَادَلَهُمْ حُبًّا بِحُبٍّ، وَإِخْلَاصًا بِإِخْلَاصٍ، حَتَّى ذَلِكَ الْكَلْبَ الْخَشِنَ الَّذِي عَاشَ فِي الْحَدِيقَةِ اعْتَادَ أَنْ يَحِثَّ عَنْ (پول) وَيَزُورَهُ، فَيُلَاقِي مِنْهُ إِحْسَانًا وَرِفْقًا.

وَكَانَ مُدِيرُ الْمَدْرَسَةِ يُقِيمُ كُلَّ عَامٍ حَفْلًا مَسَائِيًّا قَبْلَ بَدْءِ الْإِجَازَةِ السَّنَوِيَّةِ لِتَلَامِيذِ مَعْهُدِهِ، يَحْضُرُهُ جَمْعٌ غَفِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَرَعَبَ (پول) فِي شُهُودِهِ؛ لِأَنَّ أُخْتَهُ «فُلُورَانْسَ» سَتَكُونُ بَيْنَ

الزائرات ، لَتَرَى عَطْفَ إِخْوَانِهِ عَلَيْهِ ، وَتَعْلَقَهُمْ بِهِ . ثُمَّ صَمَّمَ فِي مُغَادِرَةِ الْمَدْرَسَةِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْخَفْلِ .

وَفِي الْمَسَاءِ تَهَافَّتَ الْمَدْعُوُونَ عَلَى الْمَكَانِ ، وَمَلَأُوا صَفُوفَ الْمَقَاعِدِ ، وَانْتَحَى « يُوَل » نَاحِيَةً ، وَجَلَسَ عَلَى أَرِيكَةٍ مُعْتَزِلًا ، فَهَرَوَلَ إِلَيْهِ رُفْقَاؤُهُ يُحْيُونَهُ أَطْيَبَ تَحِيَةٍ ، وَيُبَادِلُونَهُ حُبًّا خَالِصًا مَبْنَعُهُ التَّقْدِيرُ وَالْإِعْجَابُ ، وَحَنَانًا كَرِيمًا تُرْجِيهِ الْأُخُوَّةُ الصَّادِقَةُ — وَهُوَ يَرْقُبُ جَمَالَ « فُلُورَانَسَ » وَاحْتِرَامَ إِخْوَانِهِ لَهَا ، وَإِعْجَابَهُمْ بِكَمَالِهَا .

فَلَمَّا أَسْفَرَ الصُّبْحَ ، وَأَجْفَلَتْ ^(١) جُيُوشُ الظَّلَامِ ، خَرَجَتِ الْغَزَالَةُ مِنْ سِتْرِهَا ، تُرْسِلُ شُعَاعَهَا مُنِيرًا أَرْجَاءَ الْبَسِيطَةِ . هُنَالِكَ أَسْرَعَ الطُّلَابُ وَاحْتَشَدُوا عَلَى سُلَّمِ الْمَدْرَسَةِ ، يُودِّعُونَ صَدِيقَهُمْ وَأَخْتَهُ ، وَبَوَادِرُ الْأَسْفِ لِفُرْقَتِهِمَا تَبْدُو عَلَى وَجْهِهِمْ ، وَدَوَافِعُ الْحُزْنِ مَائِلَةٌ فِيمَا يَتَحَدَّثُونَ . فَشَكَرَهُمْ « يُوَل » جَمِيلَ رِعَايَتِهِمْ ، وَحُسْنَ صَنِيعِهِمْ ، وَسَارَ بَيْنَ تَحِيَةِ الْأَيْدِي الْمَرْفُوعَةِ ، وَهُوَ يَفْتَحُ بَابَ الْمَرْكَبَةِ مِنْ حِينَ لَا خَرَ مُحْيِيًّا إِخْوَانَهُ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَصَحَّةِ . فَبَاتَ لَيْلَةً يُطَلِّبُ الرَّاحَةَ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّفَرَ

إلى بَيْتِهِ ، وهناك حُمِلَ تَوًّا إلى فِرَاشِهِ ، وسأل أُخْتَهُ بعد أن اسْتَجْمَعَ بَعْضُ قَوَاهِ :

« أُخْتِي ! هل كَانَ أَبِي في فِنَاءِ الْبَيْتِ عِنْدَ مَا حُمِلْتُ ؟ »

الْأَخْتُ — « نَعَمْ يَا عَزِيزِي ! »

يُولُ — « هَلْ بَكَى حِينَمَا رَأَى وَذَهَبَ إِلَى حُجْرَتِهِ الْخَاصَّةِ ؟ »

فَلَمْ تَسْطِعْ « فُلُورَانْسُ » أَنْ تَمْلِكَ مَا اخْتَقَى فِي نَفْسِهَا مِنْ شُعُورٍ يَفِضُ بِالْأَلَمِ الْعَمِيقِ ، وَإِحْسَاسٍ بِالْحُسْرَةِ وَالْكَدِّ ، لَتُجِيبَهُ ، وَلَكِنَّهَا طَاطَأَتْ رَأْسَهَا تُحَاوِلُ إِخْفَاءَ وَجْهِهَا وَهِيَ تُقْبِلُهُ قُبُلَاتٍ حَارَّةٍ يُقْرَأُ مَعْنَاهَا مِنْ بَيْنِ ثَنِيَّاتِ ثَغْرِهَا .

وَلَمَّا فَارَقَهُ الشَّهَادُ^(١) وَزَارَهُ الْكَرَى^(٢) هَمَسَ : « إِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ أَنَّ أَبِي بَكَى . » وَظَلَّ رَاقِدًا يَوْمًا بَعْدَ آخَرٍ ، وَهُوَ سَعِيدٌ بِحَالِهِ ، صَبُورٌ عَلَى بَلَوِهِ ، قَانِعٌ بِرُؤْيَا « فُلُورَانْسِ » وَالتَّحَدُّثِ مَعَهَا عَنْ أَحْلَامِهِ الَّتِي رَأَاهَا فِي مَنَامِهِ ؛ إِذْ كَانَ يَحْلُمُ أحيانًا بَأَنَّ أَشْعَةَ الشَّمْسِ تَكْسُو مِيَاهَ النَّهْرِ أَبَدًا . وَأحيانًا يَرَى نَفْسَهُ وَهُوَ يَتَنَزَّهُ فِي زَوْرَقٍ صَغِيرٍ يَسْبَحُ فِي مَاءٍ أَيْضَ مِنْ اللَّجِينِ^(٣) ، وَقَدْ رَسَا عَلَى شَاطِئٍ بَعِيدٍ تَتَعَذَّرُ رُؤْيَاهُ ، ثُمَّ شَاهَدَ

(١) الشَّهَادُ : الْأَرْقُ . (٢) الْكَرَى : النَّعَاسُ . (٣) اللَّجِينُ : الْفُضَّةُ

الْبَحْرَ يَبْرُقُ فَيَسْكَدُ يَذْهَبُ سَنَا^(١) بَرْقَهُ بِالْأَبْصَارِ . وَلَا غُرَابَةً ؛ فَهُوَ
الْآنَ أَقْرَبُ إِلَى الْفَنَاءِ مِنْهُ إِلَى الْبَقَاءِ .

مَرَّتِ الْأَيَّامُ سِرَاعًا وَ « يُؤَلِّسُ » يَجِدُّ فِي خَطْوِهِ إِلَى حَيْثُ
يَنْعَمُ بِرِضْوَانِ رَبِّهِ . وَلَمَّا قَارَبَ النَّفْسَ الْأَخِيرَ انْحَنَى عَلَيْهِ أَبُوهُ
— وَقَدْ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ — يَقُولُ : وَلَدَاهُ ! رَحْمَةً بِأَيِّكَ

الْمَسْكِينِ ! أَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى لِتَشْهَدَ حَالِي ؟
فَارْتَدَّ طَرْفُ الصَّبِيِّ وَقَالَ : « أَبِي ! لَا تَحْزَنْ فَإِنِّي سَعِيدٌ .
أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْوَالِدُ الشَّقِيقُ عَلَيَّ ، وَأَوْصِيكَ بِأَخْتِي ،
أُخْتِي الْمَسْكِينَةِ ، أُخْتِي الْوَحْدَةِ فَلُورَانِسَ . »

ثُمَّ أَخَذَ يُعَالِجُ سَكْرَةَ الْمَوْتِ وَتَسَكَّمُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ :
(فَلَوِي) ! أُخْتِي ! إِنَّ أُخْتِي تُشَبِّهُكَ ، وَأَنْتِ تُشَبِّهِينِي . اقْتَرَبَنِي
مِنِّي لِأَرَاهَا . « وَجْهًا سَكَتَ وَلَمْ يَنْبَسْ يَبْنِتُ شَفَقَةً ؛ إِذْ صَعِدَتْ
رُوحُهُ إِلَى بَارئِهَا ، فَدَارَتْ حَوْلَهُ هَالَةٌ مِنْ نُورِ سَمَاوِيٍّ ،
وَتَوَجَّهَتْ جَبِينُهُ الْوَصَاءَ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، بَيْنَ دُمُوعِ الْأَبِ الَّذِي
عَلَّقَ عَلَيْهِ الْأَمَالَ كُلَّهَا ، وَبَيْنَ الْمُسْتَقْبَلِ كُلِّهِ ، وَبَيْنَ نَحِيبِ الْأُخْتِ
الَّتِي وَجَدَتْ فِيهِ خَيْرَ سَلَوِيٍّ ، وَأَحْسَنَ عَزَائٍ لِفُقْدَانِ أُمِّهَا .

الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ

صانعةُ اللُّعْبِ

أو

من الخيال إلى الحقيقة

بين جُدرانِ كُوخٍ صغيرٍ ، تَظَلُّهُ سُحُبُ الفقرِ ، فيبدو حالَكَ
اللونِ ، مُتصدِّعِ البنيانِ ، يَنِمُّ عن حياةِ أهلهِ الذينَ أَشْقَاهُم الزمانُ ،
— عاش الصانعُ « كَالِبُ يَمَر » مع ابنته العمياء « بَرْتَا »
عيشةً ساذجةً ، لا يُعَكِّرُ صفوَ حياتهما أَلَمٌ ، ولا يشوبُ
عيشهما كَدَرٌ . قَنَعَا بما دأبَا في العملِ فيه ، ورضيا بما قَسَمَ اللهُ
لَهُمَا من رِزْقٍ يسيرٍ ، فأخذَا يصنعانِ اللُّعْبَ التي تُدِرُّ عليهما
القُوَّةَ لشركةٍ « جَرَفٌ وَتِكَاتُون » .

شَعَرَ الأبُ بِضَآلَةِ العيشِ في كُوخِهِ ، وأدركَ ما فيه من ذُلٍّ
وهوانٍ ، وأحسَّ ما يُقَاسِيَانِهِ من بؤسٍ بَئِيسٍ ^(١) ، فاعترته

رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ كَادَتْ تُسَلِّمُهُ إِلَى يَأْسٍ قَاتِلٍ يَعْقِبُهُ سُوءُ الْمَصِيرِ .
ولكن ما لبثَ أَنْ سَكَنَ رُوعُهُ^(١) ، وَهَدَأَ فُؤَادُهُ الْمُتَحِيرُ الْقَلِقُ
خَوْفًا عَلَى تِلْكَ الزَّهْرَةِ النَّاصِرَةِ « بَرِّثَا » مِنَ الذُّبُولِ ، وَعَلَى
رِيعَانٍ صَبَاهَا مِنَ النُّحُولِ ، لَوْ عَلِمَتْ مَا يَقَاسِيَانِهِ مِنَ آلَامٍ ،
وَمَا يَجْرَعَانِهِ مِنْ كُثُوسِ السَّقَامِ^(٢) ؛ بَيْتٌ دَاجٍ^(٣) يَلْتَمَسَانِ فِيهِ
الرَّاحَةَ ، لَا يَنْفِذُ إِلَيْهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَشْعَةِ الضَّوءِ ، وَلَا يَهْتَدِي إِلَى
نَوَافِذِهِ إِلَّا قَبَسٌ^(٤) مِنْ نَوْرِ ، تَكَادُ تُتَمَسُّ فِيهِ الْجُدْرَانُ فَلَا سَبِيلَ
إِلَى الْوَصُولِ . وَتُطَلَّبُ الْأَبْوَابُ فَإِذَا هِيَ صَعْبَةٌ الْمَنَالِ . كَادَتْ
أُسْقِفُهُ تَهْدَمُ ، وَكُلُّ مَا فِيهِ قَدْ اِمْتَدَّتْ يَدُ الْبَلَى إِلَيْهِ ، وَنَسَجَ
الْعَنْكَبُوتُ خَيْطَهُ عَلَيْهِ ، فَأَصْبَحَ بَالِيًا تَنْصَرِفُ الْأَعْيُنُ عَنْ رُؤْيَتِهِ ؛
لَمَّا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ وَضَاعَةِ الشَّانِ ، وَحَقَارَةِ الْقَدَرِ .

أَنِفَ الْأَبْ أَنْ تَعْلَمَ ابْنَتُهُ حَقِيقَةَ الْحَالِ ، وَتَتَبَيَّنَ سُوءَ الْمَالِ ،
فَهْدَاهُ الْخِيَالُ أَنْ يُصَوِّرَ لَهَا الْعَيْشَ فِي بَيْتٍ أُنِيقٍ ، تُحِيطُ بِهِ
الْأَشْجَارُ الْوَارِفَةُ^(٥) الظِّلِيلَةُ ، وَيَحْوِي أَنْخَرُ الْأَثَاثِ ، وَأَحْسَنَ
الرِّيَاشِ ، يَطِيبُ الْمَقَامُ فِي حُجْرَاتِهِ ، وَتَلْذُّ الْحَيَاةُ بَيْنَ جَنَابَاتِهِ ،

(١) الرُّوعُ بِالضَّمِّ : الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ ، وَبِالْفَتْحِ الْفَزَعُ (٢) الْمَرَضُ (٣) مَظْلَمٌ
(٤) الْقَبَسُ : بِفَتْحَتَيْنِ شَعْلَةٌ مِنْ نَارٍ يَنْتَبِشُهَا الشَّخْصُ . (٥) الْكَثِيرَةُ الظِّلُّ .

قد زُيِّنَتْ غُرْفُهُ بِتَذَكِّراتِ مَخْدومه السَّيِّدِ « تَكَلُّتُونَ » الذى
صَوَّرَهُ الأبُّ لها بأنه رَحِيمُ القلبِ ، شَفِيقُ الفُؤَادِ ، جَمِيلُ
الْمَحْيَا^(١) ، حَسَنُ الْقَوَامِ^(٢) ، عَفِيفُ النَفْسِ ، رَقِيقُ العَاطِفَةِ
وَالوَجْدَانِ ، نَبِيلُ الإِحْسَاسِ وَالشُّعُورِ ، كَرِيمُ الْأَخْلَاقِ وَالطَّبَّاعِ .
وَلَمْ يَقِفْ بِهِ التَّصَوُّيرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، بَلْ انْتَزَعَ مِنْ شَخْصِهِ
رَجُلًا قَوِيَّ الْجِسْمِ ، سَلِيمَ الْبَنِيَّةِ ، مُكْتَمِلَ الصِّحَّةِ ، قَادِرًا عَلَى
أَدَاءِ مَا يُعْهَدُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالٍ ، وَيُكَلَّفُهُ مِنْ وَاجِبَاتٍ ، عَلَى
الرَّغْمِ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ شَيْخُوخَةٍ بِالْفِعْلِ ، ابْيَضَّ لها شَعْرُ رَأْسِهِ ،
وَتَقَوَّسَ ظَهْرُهُ ، وَانْحَنَتْ ضُلُوعُهُ ، وَانْبَرَتْ عِظَامُهُ ، حَتَّى أَصْبَحَ
هَيْكَلًا بِلَا رُوحٍ ، وَجَسَدًا بِلَا عَظْمٍ ، وَنَفْسًا تَنْوُءُ بِالْأَرْزَاءِ^(٣) ، وَقَلْبًا
مُقَطَّعَ النِّيَاطِ^(٤) . وَفَضْلًا عَمَّا عَانَاهُ مِنْ قَسْوَةِ الرَّجُلِ الَّذِى
يَعْمَلُ عِنْدَهُ — فَقَدْ قُدَّ قَلْبُهُ مِنْ صَخَرٍ جَاهِمُودٍ ، لَا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ ،
وَالرَّحْمَةُ لَا تَعْرِفُهُ ؛ يُحْمَلُهُ مَا لَا يُطِيقُ ، وَيُنْقَلُ كَاهِلُهُ بِمَا لَا يُسْتَطَاعُ —
أُورَثَهُ الْهَمُّ وَالْغَمُّ ، وَالضَّجَرُ وَالْمَلَلُ . تَرَاهُ مُقَطَّبَ الْوَجْهِ ،
يَفْتَرُّ^(٥) ثَعْرُهُ عَنِ بَسْمَةِ الْحَزَنِ الْأَلِيمِ ، وَالشَّجَنِ^(٦) الدَّفِينِ .

(١) الوجه (٢) القامة (٣) المصائب . (٤) النِّيَاطُ : عِرْقٌ مُتَصِلٌ بِالْقَلْبِ

مِنَ الْوَرْتَنِ إِذَا قُطِعَ مَا تَصَاحَبَهُ (٥) افتر : ضحك ضحكًا حسنًا . (٦) الحزن .

ولكنَّهُ في سبيلِ إِسعادِ ابنتِهِ الْوَحْدَةِ ، وإِدْخالِ السُّرورِ إلى رُوعِها^(١) ، كي لا تسكنَ إلى هواجسِ أَفكارِها ، وشواردِ عَقْلِها تكَلَّفَ أنْ يُصوِّرَ لها حَياتِهِ بِصورةٍ خياليَّةٍ ؛ رَحمةً بها ، وإِسْفاقاً عليها ؛ لتَشعُرَ بالسَّعادةِ النَّفْسِيَّةِ ، واللَّذَّةِ الرُّوحِيَّةِ .

كان الأبُّ يَبْذُلُ غايةَ جُهدِهِ ، وَيَدْفَعُهُ جُبهَ لَابنتِهِ — منذَ نَعومةِ أَظفارِها — أنْ يَجْعَلَ حَياتِها سَعِيدَةً ، بَعِيدَةً عَنِ مَواطِنِ السَّكْدَرِ ، وَمَنازِلِ الْأَلَمِ ، حَتَّى لا تَحْزَنَ لِذِهابِ بَصَرِها ، وفُقْدانِ نورِ الحَيَاةِ الْوَضَاءِ مِنْ عَيْنَيْها ، في ذَلِكَ الْوَجْهِ الَّذِي تَشِعُّ مِنْهُ آيَاتُ الْجَمالِ ، وَعَلاماتُ الذِّكاءِ . وَقَدْ بَلَغَ مَأْمُولَهُ ، وَحَقَّقَ قَصْدَهُ ؛ فَلمَسَتْ ابْنَتُهُ الْغَبْطَةَ عَنِ كِثَبِ^(٢) ، وَأَحْسَسَتْ الْهَناءَةَ تَحومُ حَولَها ؛ إِذْ كَانَتْ تَرى كُلَّ شَيْءٍ في الْوُجودِ بَعينَي أَيْيها ، اللَّتين كَانَتَا تُصَوِّرانِ الظَّلَامَ نُوراً ، وَالشَّقَاءَ سَعادَةً ، وَالْفَقْرَ غِنى .

وذاكَ يَوْمٍ كَانَتْ « بَرِّثا » مَشغولَةً بِعَمَلِ مَلابِسِ اللَّعْبِ في حُجْرَةِ الْجُلوسِ الَّتِي ظَهَرَتْ كَمَصْنُوعٍ ، زَيَّنَتْ جُدْرانَهُ بِرُفوفٍ صُنِّفَتْ عَلَيْها صَناديقُ مَمْلوءَةٌ بِاللُّعْبِ مِنْ كُلِّ حَجْمٍ وَصِنْفٍ ، عَلَي

مراتب مُتَبَايِنَةٍ فِي الْقَدْرِ ، مِنْهَا مَا يَصْلَحُ لِأَبْنَاءِ الْعَامَّةِ ، وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ أَبْنَاءَ الْخَاصَّةِ . وَأَمَّا الْفَتَاةُ خِوَانٌ عَلَيْهِ قِطْعٌ مِنْ النِّسِيَجِ الْمُلَوَّنِ ، تَصْنَعُ مِنْهَا مَلَابِسَ الدُّمَى ^(١) ، وَحَوْهًا أَكْوَامٌ مَشْهُورَةٌ ، مِنْ سُفْنٍ وَعَجَلَاتٍ ، وَأَحْصِنَةٍ وَطُبُولٍ ، فِي حِينَ أَنْ أَبَاهَا قَدْ وَقَفَ بِالْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْخِوَانِ ، يُلَوِّنُ بِرِيْشَةِ الرَّسْمِ صِنَادِيقَ اللَّعْبِ — فَقَالَتْ : « أَبِي ! إِنَّكَ خَرَجْتَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ بِمِعْطَفِكَ الْجَمِيلِ الْجَدِيدِ . »

فَأَجَابَ أَبُوهَا ، وَقَدْ نَظَرَ — وَالْأَسْفُ يُمَلِّأُ قَلْبَهُ — إِلَى مِعْطَفٍ مِنَ الْخَيْشِ مُعَلَّقٍ لِتَجْفِيفِهِ — : « نَعَمْ ؛ قَدْ خَرَجْتَ بِمِعْطَفِي الْجَمِيلِ الْجَدِيدِ . »
الابنة : « مَا أَشَدَّ سُورِي بِشِرَائِكَ إِيَّاهُ يَا أَبِي ! »

الأب : « وَلَقَدْ خَاطَمْتُهُ لِي يَدٌ حَازِقَةٌ ، وَيَكْبُرُ عَلَى مِثْلِي أَنْ يَسْتَحَقَّهُ . »

عند ما سَمِعَتِ الْفَتَاةُ الْوَفِيَّةُ قَوْلَ أَبِيهَا ، صَاحَتْ بِصَوْتٍ يَنْمُ عَنْ الْعَجَبِ — وَقَدْ افْتَرَّ ^(٢) فُوهَا عَنْ ابْتِسَامَةٍ عَذْبَةٍ

(١) جمع دُمِيَّة . وهى الصورة من العاج وغيره ، أو الثياب التى فيها التصاوير وهو المراد (٢) ضحك ضحكاً حسناً .

رقيقة — وهي تُصَفَّقُ بيديها : « أهو جميلٌ لا تستحقه ؟ أهناك
 شئٌ يُعْظَمُ على أبي الباسمِ الوجهِ ، الأسودِ الشعرِ ، الجميلِ المُحْيَا ^(١) ؟
 أيمكنُ أن يكونَ في الحياةِ شئٌ جميلٌ ليسَ أبي أهلاً له ؟ »

دارَ هذا الحديثُ بين الأبِ وابنته « برّثا » التي تخالُ ^(٢) أن
 السعادةَ قد أظلمتْ سماءَ حياتهما ، وما كانت تعلمُ أن تلكَ
 السَّعادةَ من نَسِجِ الخيالِ أو الوهمِ الَّذي تكلفه والدها . ولو
 استطاعت المسكينةُ أن تراه — وقد حطَّمه الدهرُ ، وأحناه الزمْنُ —
 بظهره المُقَوَّسِ ، ووجهه العابسِ ، دائباً في عمَلِه ، والعرقُ يسيلُ
 على جبينه من كثرةِ الكدِّ والجهدِ ، يُخْرِجُ زَفَرَاتِ الحسرةِ
 وتأوهاتِ الندمِ المُحرِّقة — لأثرَ هذا المنظرِ في نفسها تأثيراً
 تدمعُ له عيناها ، وتَقَطَّعُ أوصالُ فؤادها ، فتخِرُ مَغْشِياً عليها من
 هولِ تلكَ الصَّدمةِ العنيفةِ ، رحمةً بالأبِ المسكينِ وحناناً .

أخذَ الأبُ « كالبُ » يُؤدِّيَ عملهَ بهمةٍ ونشاطٍ ، ورغِبَ
 في أن يُسرِّيَ عن نفسه بعضَ ما أَلَمَّ به من شَجْنٍ ^(٣) ، وما رَزَحٍ ^(٤)
 فيه من نَصَبٍ وعناءٍ ، فبدأ يُغْنِي حَوْلَ طائرٍ من الطيورِ ، ولكنَّ

(١) الوجه (٢) تظن (٣) حزن . (٤) رزحت الناقة : سقطت إعياء .

صَعَفَهُ ، وما كَانَ يُبْلِقِيهِ مِنْ سُوءِ الْعَيْشِ وَشَقْوَةِ ^(١) الْحَيَاةِ ، كُلُّ ذَلِكَ بَدَأَ بَيْنَ نَبْرَاتِ صَوْتِهِ جَلِيلًا ، فَارْتَجَفَتْ نَفَمَاتُهُ ، وَاضْطَرَبَتْ إِيقَاعَاتُهُ ، وَاهْتَزَّتْ عَضَلَاتُ لِسَانِهِ ، وَكَادَ صَوْتُهُ يَتَلَشَّى .

وَعَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ، دَخَلَ الْخَدُومُ « تَكَلَّتُون » لِيُشْرِفَ عَلَى الْعَمَلِ ، فَرَأَتْهُ تِلْكَ الْحَالُ ، وَخَاطَبَهُ بِصَوْتِ مُزْعِجٍ غَاضِبٍ :
« حَذَارِ يَا (كَالِبُ) أَنْ تَعْمَلَ وَتُغْنَى ؛ فَإِنَّ الْغِنَاءَ مُلْهُ عَنِ الْعَمَلِ ، مَضِيعَةٌ لِلزَّمَنِ . حَذَارِ أَنْ أَرَاكَ ثَانِيَةً تُغْنَى وَقْتَ الْعَمَلِ . » فَهَمَسَ « الْأَبُ » فِي أُذُنِ « بَرِّثَا » حَتَّى لَا تَتَأَثَّرَ بِذَلِكَ الْخَطَابِ الْقَاسِي :
« إِنَّكَ لَا تَرِنُ كَيْفَ يَنْظُرُ السَّيِّدُ إِلَى بَعِينِيهِ مَازِحًا ، مُدْعِيًا أَنَّهُ يُوبِّخُنِي . »

فَضَحِكَ الْفَتَاةُ ، وَأَوْمَأَتْ إِلَى أَبِيهَا مُصَدِّقَةً مَا قَالَ ، وَقَدْ أَخَذَتْ يَدَ « تَكَلَّتُون » وَهُوَ نَافِرٌ مِنْ إِعْطَائِهَا إِيَّاهَا ، وَقَبَّلَتْهَا بِلُطْفٍ ، فَانْتَرَعَهَا مِنْهَا بِغِلْظَةٍ وَقَالَ مُتَذَمِّرًا :
« مَاذَا يَفْعَلُ الْمَعْتَوَةُ (كَالِبُ) ؟ »

فَظَنَّتْ « بَرِّثَا » أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَمَزُحُ وَقَالَتْ : « أَشْكُرُكَ

(١) الشَّقَا ، وَالشَّقَاءُ وَالشَّقْوَةُ وَالشَّقْوَةُ : الشَّدَّةُ وَالْعُسْرُ .

يا سيدي على شجرة الورْد التي تفضّلت بإهدائها إليّ . «
وكان أبوها قد اشتراها لها بما اقتصده من دراهمه المكدودة ،
وجعلها تعتقد خطأ أنها هديّة من « تكثون »
تاجر اللّعب .

ولم تكذّ تنتهي من كلامها حتى بادّرها ^(١) السيّد مُتسائلا :
ماذا تريدن أيتها الحمقاء ؟ « فلم تُحرّ جواباً . وللحال أمر
« كالب » بأداء بعض الأعمال مع قسوة في المعاملة ، خالية من
الجمالة ، وخرج دون أن يُودّع أحداً .

أوصد الباب بعد خروج « تكثون » وأصبح الأب
في جوّ حرّ طليق ، فلم يجد مناصاً ^(٢) من التحدّث إلى فتاته ،
ليزيل ما عساه أن يكون قد علّق ^(٣) بذهنها من الخواطر
والهواجس ، حتى لا تبدو الحياة أمامها مُرّة قاسية ، وحتى لا ينهار
ذلك الصّرخ ^(٤) الذي شيّده لها من السّعادة الخياليّة .

فقال وقد مال برأسه إليها : « لورأيت يا (برثا) وهو ينعطف
إلى بعينه مازحاً لأذكركِ أنّه يتظاهر بالنعف ، ويدّعي خُشونة
المعاملة ، ليفرّ من حمْد الناس وثنائهم . »

(١) عاجلها (٢) مفرا ، ملجأ . (٣) تعلق . (٤) القصر ، وكل بناء عال

فقلت : « إِنَّ طَبْعَهُ كَذَلِكَ يَا أَبَتَاهُ ! خَلَقَهُ قَوِيمٌ ، وَأَصْلُهُ كَرِيمٌ ؛ إِذْ يَأْتِي أَنْ يَشْكُرَهُ إِنْسَانٌ عَلَى هَدَايَاهُ ؛ فَهُوَ مَلَكٌ يُنْزَحَ لَيْسَرُنِي كُلَّمَا أَتَانَا . »

ولقد حفزَ الأبَ إلى خِدَاعِ ابنتِهِ وَمُهْجَةِ حَيَاتِهِ عَلَى هَذَا النِّحْوِ ،
 مِنْ تَصْوِيرِ الْبَاطِلِ لَهَا حَقًّا ، وَالْخِيَالِ حَقِيقَةً — مَا يُكِنُّهُ لَهَا
 مِنْ حُبِّ طَاهِرٍ ، وَمَا يَخْتَلِجُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ مِنْ حُنُوٍّ وَإِشْفَاقٍ عَلَى
 رُوحِهَا الطَّاهِرَةِ ، وَنَفْسِهَا الْبَرِيَّةِ . فَقَدْ مَثَّلَ لَهَا مَخْدُومَةً
 « تِكَلْتُون » بَرِيْشَةَ رَسَّامٍ مَاهِرٍ ، مُفَتَّنٍ ^(١) فِي صِنَاعَتِهِ ، بَارِعٍ
 فِي فَنِّهِ — فِي صُورَةِ رَجُلٍ نَبِيلٍ ، طَيِّبِ الْقَلْبِ ، عَظِيمِ الْمَرْوَةِ ،
 مُحِبِّ « لِبْرُنَا » . فَهَامَتْ بِهِ حُبًّا ، وَكَانَتْ سَعِيدَةً بِعَقِيدَتِهَا ؛
 وَلَكِنْ لَمْ تَدْعُهَا الْأَيَّامُ تُرْعَى ثَمَارَ بَذْرِهَا ^(٢) ، وَتَهْنَأُ بَغْرِسِ يَدَيْهَا ،
 بَلْ صَوَّبَتْ إِلَيْهَا رِمَاحَ قَسِيَّهَا النَّافِذَةِ ، فَأَصَابَتْ الْغَرَضَ ،
 وَنَالَتْ الْهَدَفَ ، وَتَرَكْتَهَا رَهِينَةَ الْأَلَامِ ، سَجِينَةَ الْخَوَاطِرِ ،
 تَصَلَّى ^(٣) سَمِيرَ الْهَوَى الْفَادِرِ ، إِذْ أُخْبِرَتْ ذَاتَ يَوْمٍ
 بِأَنَّ مَالِكَ رُوحِهَا ، وَآسَرَ لُبَّهَا ^(٤) ، تَزَوَّجَ ، فَلَمْ تَسْطِعْ أَنْ

(١) افتنَّ في صِنَاعَتِهِ : جَاءَ بِالْأَفَانِينِ (٢) زَرَعَهَا .

(٣) تَصَلَّى : تَحْتَرَقُ (٤) عَقَلَهَا

تُخْفِي عَنْ أَبِيهَا مَا أَثَارَ رَوْعَهَا^(١) مِنْ شَجَنِ^(٢) مُلِمٍّ ، وَحَزَنِ كَثِيرٍ ،
حِينَما سَمِعَتْ نَبَأَ قَرَانِهِ .

فَهَمَّ الْأَبُ الْحَقِيقَةَ ، وَعَرَفَ مَا وَقَعَتْ فِيهِ فَتَاتُهُ ، فَصَاحَ
وَهُوَ يَتَنُّ مِنْ وَخْزِ^(٣) الضَّمِيرِ : « يَا لَلسَّمَاءِ ! هَلْ خَدَعْتُكَ يَا « بَرْتَا »
مَدَى عُمْرِكَ لَا كَسِرَ قَلْبِكَ فِي النَّهَايَةِ ؟ » ثُمَّ أَخَذَ يُعْتَفُّ نَفْسَهُ
عَلَى مَا ارْتَكَبَهُ مِنْ خَطَأٍ كَبِيرٍ ، وَاقْتَرَفَ مِنْ إِثْمٍ عَظِيمٍ ،
بَاحِثًا عَمَّا يُكْفِّرُ بِهِ عَنْ جَنَايَتِهِ الْعَظْمَى ، وَيُزِيلُ عَنْ ابْنَتِهِ
شَبَحَ سَقَامَهَا^(٤) الْمُجَسِّمَ .

وَأَخِيرًا لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الْاعْتِرَافِ بِالْوَاقِعِ فَقَالَ :
« عَزِيزَتِي بَرْتَا ! إِنْ لَدَيَّ نَبَأٌ يَجِبُ أَنْ أُبَوِّحَ^(٥) لَكَ بِهِ .
هُنَاكَ شَيْءٌ فِي نَفْسِي لَا بُدَّ أَنْ أُسِرَّهُ إِلَيْكَ ، فَأُصْنِئَ إِلَيْ
وَأَعِيرِنِي سَمْعَكَ ، وَلَا تَظْنِنِي قَاسِيًا عَلَيْكَ . »
فَتَوَجَّهَتْ نَحْوَهُ « بَرْتَا » قَائِلَةً : « أَلْأَصْدَقُ أَنَّكَ تَقْسُو
عَلَيَّ يَا أَبِي ؟ »

الْأَبُ : « إِنِّي لَا أَقْصِدُ ذَلِكَ يَا ابْنَتِي الْعَزِيزَةُ ! وَمَا خَطَرَ لِي

(١) فزعها (٢) حزن (٣) تأنيب (٤) السَّقام : المرض . (٥) أظهره

أَنْ يُخَالَجَكَ مِثْلُ هَذَا الظَّنِّ . ابْنَتِي الْمِسْكِينَةُ ! إِنَّ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ
وُثِّقَتْ بِهِمَا قَدْ غَشَّتَاكَ . إِنْ الْعَالَمَ الَّذِي صَوَّرْتَهُ لَكَ لِتَعِيشِي
مُنْعَمَةً بِلَذَاذَةِ الْعَيْشِ فِيهِ ، سَعِيدَةً هَانِئَةً — لَا وُجُودَ لَهُ . لَقَدْ
كُتِمَتْ عَنْكَ مَا يَشْلُمُ^(١) عَوَاطِفِكَ ، وَأُظْهِرْتُ لَكَ مَا تَقَرُّ بِهِ
عَيْنُكَ ، وَيَبْعَثُ فِيكَ الْأَمَلَ . وَأَخْرَجْتُكَ مِنْ عَالَمِ الْحَقِيقَةِ إِلَى
عَالَمِ الْخَيَالِ الْوَاهِي . وَجَعَلْتُ الْبَيْدَةَ الَّتِي تَحِيطُ بِكَ بَيْدَةً
خَيَالِيَّةً بَعِيدَةً عَنِ الْوَاقِعِ . »

بِرْتَا : « وَلَكِنَّ الْأَحْيَاءَ مِنَ النَّاسِ لَيُسَوُّوا بِخَيَالَاتٍ ، وَلَيْسَ
فِي اسْتَطَاعَتِكَ أَنْ تَتَنَاوَلَهُمْ بِالتَّبْدِيلِ . »

الْأَب : « لَقَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ يَا بِرْتَا ! وَانْخَدَعْتُ بِخَيَالَاتِي
الْكَاذِبَةِ ، فَاصْفَحِي عَنِّي وَسَامِحِيْنِي إِنْ الرَّجُلَ الَّذِي يُحْتَفَلُ بِزَوَاجِهِ
الْيَوْمَ ، لَيْسَ مَنْ وَصَفْتُهُ لَكَ بِالْأَمْسِ . إِنَّهُ قَاسَى الْقَلْبَ ، لَا يَتَأَلَّمُ
لِأَحَدٍ ، وَلَا يَحْزَنُ لِأَحَدٍ . إِنَّهُ نَافِرُ الطَّبْعِ ، غَلِيظُ الْقَوْلِ ،
سَيِّئُ الْمَعَامَلَةِ ، لَا يَجْزَعُ لِإِخْوَانِهِ ، وَلَا يُشَاطِرُهُمْ مُصَابِهِمْ .
لَا يَعْرِفُ الشَّفَقَةَ ، وَالشَّفَقَةُ لَا تَعْرِفُهُ . »

(١) يمسُّ بَأَذَى

بِرُّنَا : « يَا لَهِ ! مَا أَعْظَمَ مَا رُزِئْتُ بِهِ مِنْ فَقْدِ الْبَصَرِ !
 كَيْفَ تَخْدَعُنِي يَا أَبِي ! وَأَنَا عَاجِزٌ لَا عَوْنُ لِي وَلَا نَاصِرٌ ؟ »
 فطَاطَأَ « الْأَبُ » الْمُسْكِينَ رَأْسَهُ نَحْوَ الْأَرْضِ أَسْفَا . ثُمَّ
 سَأَلَتْهُ ابْنَتُهُ أَنْ يَصِفَ لَهَا بَيْتَهَا ، فَقَالَ : « إِنَّهُ مُتَوَاضِعٌ تَبْدُو عَلَيْهِ
 سِيمَا ^(١) الْفَاقَةِ ، وَدَلَائِلُ الْهَوَانِ وَالضَّرَاعَةِ ^(٢) ، فَهُوَ عَشُّ الْحَرَمَانِ
 وَالْخِصَاصَةِ ^(٣) ، ذُو حُجَرٍ مُقْفِرَةٍ ، وَسُقْفٍ مُنْهَارَةٍ ^(٤) ، وَعَمْدٍ ^(٥)
 خَاوِيَةٍ ، بَالٍ كَمِعْطَفِي الْخَيْشِيِّ . » ثُمَّ أَتَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَكْشِفَ
 عَنْ سِرِّ الْهَدَايَا الَّتِي قَدَّمَتْ إِلَيْهَا فَأَحْبَبَهَا . فَلَمْ يُجِبْ رَغْبَتَهَا ،
 فَعَرَفَتْ أَنَّهُ اشْتَرَاهَا مِنْ تَقْوَدِهِ الَّتِي اقْتَصَدَهَا مِنْ قُوَّتِهِ ،
 وَقَالَتْ : « الْآنَ أَنْظُرْ إِلَيْكَ أَيُّهَا الْوَالِدُ الشَّفِيقُ ! فَصِفْ لِي
 نَفْسَكَ ، وَأَيَّ شَيْءٍ تُشَبِّهُهُ ؟ »

الْأَبُ : « إِنَّنِي هَرِمٌ يَا بُنَيَّةُ ! نَحِيفُ الْجِسْمِ ، مُقْوَسُ الظَّهْرِ ،
 مَنَهُوكُ الْقُوَى ، مُخَادِعٌ أَحْمَقٌ ، قَدْ وَخَطَنِي ^(٦) الشَّيْبُ ، وَعَلَانِي
 الْهَمْ ، وَافْتَرَسَتْنِي حَوَادِثُ الدَّهْرِ ، وَمَحَنُ الْأَيَّامِ ، وَتَتَابَعْتُ عَلَى
 صُرُوفِ الزَّمَانِ كَقِطْعِ اللَّيْلِ ، فَأَكَلَتْ مِنِّي الْأَخْضَرُ وَالْيَاسَسَ .

(١) علامة . (٢) الذل . (٣) الفقر . (٤) مهدمة .

(٥) عمد ، عمد : جمع عمود . (٦) خالطني

جُثَّتِ (١) الفتاةُ أمامَ أبيها ، وأدارتْ ذِراعَيْها حَوْلَهُ تَبْكِي
وتَقُولُ : « لقد عادتُ إلى بَصيرَتِي ، ورجعَ إلى نَظْري ، وأرى
الآنَ أبا حَقًّا . إني لمَ أَرِ أبا حَقًّا إِلَّا الآنَ . هَلْ يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّ
عَلَى وَجْهِهِ البَسِيطَةَ أَبًا شُجاعًا أَحِبُّهُ كُلُّ الحُبِّ ، وَأَفِي لَهُ كُلُّ الوَفاءِ ،
كَذلِكَ الشَّيخُ الوَاهِنُ الأَبْيَضُ الشَّعْرُ ؟ أباي ! لَنْ أُنْسَى فِي أَدْعِيي
وَتَبَتُّلِي ، وَصَلَاتِي ، وَتَشْكُرَاتِي لِلَّهِ — شَعْرَةٌ بِيضاءٍ مِنْ رَأْسِكَ . »
فانْحَدَرَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَسَالَتْ عَلَى وَجْنَتَيْهِ وَقَالَ :
« ابْنَتِي ! إِنَّ أَبَاكَ لَا يَسْتَحِقُّ عَطْفَكَ بَعْدَ أَنْ خَدَعَكَ عَنْ حَسَنِ
نِيَّةٍ ، وَسَلَامَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَأَذْهَبَ سَعَادَتِكَ النَّفْسِيَّةَ . »

بِرَثًا : « أَبَتَاهُ ! وَارْحَمَتَاهُ لِفَتَاتِكَ ! فَإِنَّكَ لَمْ تَذْهَبْ
بِسَعَادَتِي يَا أَعَزَّ الآبَاءِ . وَكُلُّ مَا أُبْتَغِيهِ قَدْ تَحَقَّقَ لِي فِي
أَبُوتِكَ . كُنْتُ سَعِيدَةً قَانِعَةً فِيمَا مَضَى ، وَلَكِنِّي الآنَ أَكْثَرُ
سَعَادَةً وَقَانَعَةً ؛ فَقَدْ عَرَفْتُكَ حَقَّ المَعْرِفَةِ ، وَقَدَّرْتُكَ حَقَّ
التَّقْدِيرِ . وَرَأَيْتُ العَالَمَ كَمَا هُوَ ، وَالحَيَاةَ كَمَا هِيَ . فَلَسْتُ
بِعَمِيَاءَ بَعْدَ اليَوْمِ . »

القِصَّةُ الْخَامِسَةُ

« الْمَرْكَبُ الْيُونَانِي »

أو

الْخَادِمُ الْمُسْكِينُ

عاش السيدُّ « سَمْسُونُ بَرَّاسُ » المحامى مع أختٍ له جُبِلَتْ على
الفاظظة والقسوة تُدعى الآنسة « سَالِي بَرَّاس ». وكان على النقيض
منها كاتبٌ أخيها السيدُّ « دِكْ سُوَيْقَلَر » ؛ فهو مَرِحٌ خفيفُ الروحِ ،
متواضعٌ لا يُحِبُّ الظهور . ولقد وَقَفَ في صباحِ اليومِ الأولِ
من عمله مع المحامى على كثيرٍ مما انطوت عليه نفسُ أخته ؛
إِذْ أَخَذَتْهُ بِالْغِلْظَةِ وَعَسَفَتْ^(١) به ، وضيقت الخناق^(٢) عليه ، فأخذَ
يُنْتَهزُ الفرصةَ للخلاصِ منها . وما كادت تغادرُ المكتبَ حتى
أحسَّ زوالَ الرقابةِ عنه ، وانطلقَ يُزِيلُ عن نفسه الهمَّ ؛ فقفزَ
من كرسيِّه ، وأخذَ يَغْنَى في فناءِ الحجرةِ . وبينما هو غارقٌ في
سروره إِذْ سَمِعَ دَقًّا خَفِيفًا خارجَ الحجرةِ أعقبه دَقٌّ هادئٌ على

(١) ظلمته (٢) الخناق : حبل يُخْنَقُ به

باب حجرة المكتب فقال : « ادخل » . فتكلم الطارق بصوتٍ خافتٍ ^(١) هادئ : « أسمحُ يا سيدي بأن تجيء لتُرى الحُجَر من يريدون الشُكْنَى ؟ »

رفع (الكاتب) رأسه فإذا أمامه فتاةٌ هزيلةٌ الجسم ، ترتدى ^(٢) ميّدةً ^(٣) خشنّةً قدرّةً ، قد أسدلت على رأسها غطاءً ظهر منه وجهها ويدها . فخطبها قائلاً : « لماذا ؟ ومن أنت ؟ » فلم تُجِر الفتاةُ جواباً إلاّ أنّها قالت : « أرجوك يا سيّدي أن تأتي لتُرى الغُرف الساكنين الجُدُد . »

قال (الكاتب) : « إنه لاصلةٌ لي بالحُجَر ، أخبريهم بالحضور ثانيةً في وقت آخر . » فقالت : « أرجوك يا سيّدي أن تقوم بما عرّضتُ عليك ؛ لأنّ الآنسة (سالي) لم تشأ أن أقابلهم ؛ لتلا يجدوا في صِغري ما يدعوهم إلى الاعتقادِ بعدمِ العنايةِ بهم ، والقيام بخدمتهم خير قيام . »

فقال (الكاتب) وهو مُتَذَمِّرٌ ^(٤) وأماراتُ الغضبِ باديةً ^(٥) على وجهه : « هذا شيءٌ غريبٌ . أتريدون أن تقولوا إنك القائمةُ بأمرِ الخدمةِ في المنزل ؟ » ثم ذهب من فُورِهِ وأرى الغُرف الساكنين .

(١) منخفض (٢) تلبس (٣) ثوب العمل (٤) مستاء (٥) ظاهرة

عاد الكاتبُ إلى مكتبه ، وقد تَأَلَّمَ لتلك الخادم الصغيرة المسكينة ؛ إذ كانت تعيشُ عيشةَ البؤسِ والشقاء ، في سردابٍ مظلمٍ تحت الأرضِ ، ولا يتسنى^(١) لها الخروجُ إلا تلبيةً لنداءِ أجراسِ القاطنين^(٢) ، فما خرجتْ للتنزهِ مطلقاً ، وما خلعتْ ميدعتها الخشنةَ ، وما رأتها الشمسُ إلا مراتٍ معدودةً ، وما أُتيحَ^(٣) لها أن تمكثَ في الهواءِ المنعشِ إلا قليلاً ، ولم تُواتها الفرصةُ لتركنَ إلى الراحةِ ، ولم يأتِ أحدٌ للاستفسارِ^(٤) عنها أو الاستئناسِ بها ؛ لأنها لا تعرفُ أحداً ، ولا يفكرُ فيها أحدٌ .

وذاتَ يومٍ قال الكاتبُ لنفسه : « إني مُستعِدٌّ لأن أُمْنَحَ^(٥) مكافأةً عظيمةً مَنْ يدلُّني على مسكنٍ هذه الخادمِ المسكينة ويُخبرُني كيف تُعاملُ ، وكيف تعيشُ . » وبينما هو غارقٌ في آماله إذ حانتْ منه التفاتةٌ فذهبَ إلى بابِ المكتبِ ففتحه ، وإذا الآنسةُ (سالي) هابطةٌ إلى المطبخِ في سردابِ^(٦) تحت الأرضِ فقال : « واعجباً ! إنها ذاهبةٌ لإطعامِ الخادمِ الجائعةِ . » وبعد أن اخترقتْ الآنسةُ (سالي) حُجُبَ الظلامِ ، وتوارتْ^(٧) عن الأنظارِ

(١) يتيسر (٢) الساكنين (٣) قُدِّرَ (٤) السؤال

(٥) أعطى (٦) السرداب : بناء تحت الأرض للصيف (معرب) (٧) اختفت

خَفَّ (الكاتبُ) إلى السُّلَمِ واقتفى آثارها حتى وصل إلى بابِ
المطبخِ الخلفيِّ، بعد أن دخلته الآنسةُ (سالي) وقد حملت في يدها
نَحْذاً من لحم الضأنِ .

كان هذا المطبخُ مُنخفضاً جداً قد ضربت الرطوبةُ في أنحائه،
وانتشرت الظلمةُ في نواحيه، وخيمَ البؤسُ والشقاءُ عليه، وكانت
فيه قِطعةٌ نحيفةٌ يبدو عليها الجوعُ، تلمسُ ما يتساقطُ على الأرضِ
بشرهٍ شديدٍ، وكان كلُّ ما في المطبخِ مُحْكَمَ الإغلاقِ حتى لا يتسنى
لأحدٍ الوصولُ إلى شيءٍ منه، ولا يستطيعُ كائنٌ من هَوامِّ الأرضِ
أن يعيشَ فيه؛ لأنه لا يجدُ ما يستطيعُ به الحياةَ .

وقفت الخادِمُ أمامَ سيدتها موقفاً الخنوعِ والذلةِ، وانحنَتْ
نحوَ الأرضِ . فقالت الآنسةُ (سالي) : « هل أنتِ هنا ؟ »

فأجابت الخادِمُ بصوتٍ ضعيفٍ : « نعم يا سيّدي ! »
فقالت : « لا تقربِي نَحْذا الضأنِ ؛ فإنِّي أخشى أن تلتقيها . »
فانزوت^(١) الخادِمُ المسكينةُ في جانبٍ من المطبخِ .

أخرجت الآنسةُ (سالي) مفتاحاً من جيبيها، وأخرجت بعضاً

من البطاطس الباردة التي لا تؤكل، وقالت: «أترين هذه البطاطس؟ خذيها.» ثم قطعت لها قطعتين صغيرتين من اللحم البارد، وأمسكتهما بالشوكة، وأعطتهما إياها، وقالت لها: «لعلك لا تذهبين إلى أحد ثم تدعين أنك لا تجدن هنا لحمًا؛ فهذا هو اللحم فتناوليهِ.»

فنظرت إليها الخادم الصغيرة بعينين ملوئهما الجوع، ثم انقضت على الطعام فالتقمته في أقل من ارتداد الطرف^(١).

قالت الأنسة (سالي): «أترين شيئًا أكثر من هذا؟» فأجابت — والجوع قد أخذ منها مأخذه، فلم تستطع الكلام إلا همسًا: «لا يا سيديتي.»

وضعت الأنسة (سالي) اللحم في الخزانة وأحكمت إغلاقها، ثم اقتربت من الخادم، وأخذت تردد النظر إليها، ثم بدأت تقرأها مرة على رأسها، وأخرى على يديها، وثالثة على ظهرها^(٢)، كأنها وجدت من المستحيل أن تقف بالقرب منها دون أن ينالها بعض الأذى، ثم تناولت شيئًا من العاطوس^(٣) وصعدت في السلم، فتسلل أمامها الكاتب إلى المكتب من غير أن تراه.

(١) البصر (٢) يُعامل الخدم الآن في إنجلترا معاملةً كلها عطف وشفقة.

(٣) ما يعطس منه مثل النشوق

رجع الكاتبُ (دِكْ) إلى مكتبه والحزنُ يُجْزُ^(١) في قلبه ،
وعلاماتُ الضَّجَرِ والألمِ باديةٌ على مُحْيَاهُ^(٢) ؛ لهَوَلٍ ما رآه من سوءِ
معاملةِ تلكِ الخادِمِ البائسةِ المسكينَةِ التي لا تجدُ من الطعامِ
ما تُمسِكُ به رَمَقَهَا^(٣) ، ولا تَشْمُ من الهواءِ ما يُقَوِّيها ، ولا ترى
الشمسَ إلا غِرَارًا^(٤) ، فكانت تَقْضِي طولَ وَقْتِهَا بينَ جُدرانِ
ذلكِ المطبخِ الرطبِ المظلمِ ، فكثُرَ تفكيرُهُ في أمرِها ، ووَدَّ لو
استطاعَ إنقاذَها وإخراجَها من ظُلُماتِ سِجْنِها .

وذاكَ لَيْلَةٍ بينما هو جالسٌ في مكتبه سَمِعَ غَطِيظًا آتِيًا من
جَهَةِ البابِ ، فظَنَّ أَنَّهُ صوتُ الخادِمِ لا مُحَالَةً ؛ فكثيرًا ما كانت
تُصابُ بالبردِ لِرُطوبَةِ المطبخِ الذي تعيشُ فيه . ولقد حانت منه
التفاتَةُ ، فنظَرَ نحوَ البابِ ، فرأى عَيْنًا تنظُرُ من ثَقْبِ المفتاحِ ،
فذهبَ إِلَيْهِ بِخَفَةٍ وهدوءٍ وفتحَهِ ، وإذا بالخادِمِ خَلْفَهُ ، فأمسَكَ
بِيَدِها قبلَ أنْ تُحَسَّ اقْتِرَابَها مِنْها ، فذُعِرَتْ وصاحتْ ؛ ظانَةً أَنَّهُ
سَيُعاقِبُها . وأخذتْ تحاولُ الْفِرارَ وتوسَّلُ إِلَيْهِ قائلةً : إِنِّي لَمْ أَبْغِ
من وراءِ نَظَرَتِي رِيبةً يَا سَيِّدِي . وما أَتَيْتُ إِلَى هُنَا إِلَّا لِأَنِّي

(١) يقطع (٢) وجهه (٣) الرَّمَقُ : بقية الحياة . (٤) فترات قصيرة

سَمَّتُ الحَيَاةَ تَحْتَ الأَرْضِ ، وَبَيْنَ جُذُرَانِ ذَلِكَ المَطْبِخِ المَظْلَمِ
الرُّطْبِ . فَأَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي أَنْ تَرْفُقَ بِي ، وَتَرْحَمَ ضَعْفِي ، فَلَا
تُخْبِرَ الْآنَسَةَ (سَالَى) بِشَيْءٍ مِمَّا حَدَثَ وَإِلَّا قَتَلْتَنِي شَرًّا قَتْلَةً . »

فَقَالَ الْكَاتِبُ : « أَطْمَئِنِّي وَلَا تَخَافِي أَحَدًا ، وَلَا يَتَسَرَّبْ
إِلَى ذَهْنِكَ أَى فِكْرٍ فِي إِيْذَانِكَ أَوْ إِحْلَاقِ الضَّرَرِ بِكَ ، ثُمَّ سَكَتَ
هُنَيْهَةً ، وَسَمَحَ لَهَا بَعْدَهَا بِالدُّخُولِ فِي حَجَرَتِهِ لِتُدْفِقَ نَفْسَهَا ،
وَأَمَرَهَا بِالْجُلُوسِ .

قَالَتِ الْخَادِمُ : « إِنِّي لَا أَجْسُرُ ^(١) عَلَى ذَلِكَ ، وَأَخْشَى أَنْ تَقْتُلَنِي
الْآنَسَةُ (سَالَى) إِذَا عَرَفَتْ أَنِّي أَتَيْتُ إِلَى هُنَا . »

الْكَاتِبُ : « أَعِنْدَكَ نَارٌ فِي المَطْبِخِ ؟ »
فَأَجَابَتْ . « عِنْدِي نَارٌ ضَعِيفَةٌ . »

الْكَاتِبُ : « إِنَّكَ تُرَيْنَ نَحِيفَةً هَزِيلَةً . أَيُمْكِنُكَ أَنْ تَتَنَاوَلَ
شَيْئًا مِنَ الخَبْزِ واللَّحْمِ تُقِيمِينَ بِهِ أَوْدَكَ ^(٢) ؟ »

قَالَتْ : « نَعَمْ ، وَأَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي . »
قَالَ : « مَا عَمْرُكَ ؟ »

(١) أَفْدَمَ (٢) اعْوَجَاجَكَ ، صَحْنِكَ السَّيْئَةِ .

قالت : « لا أعرفُ يا سيدي ، ولكنني أظنُّ أن عُمرى
عشرُ سنوات .

فنظر إليها (الكاتبُ) والأسي^(١) يملأُ جوانحه ، والأسفُ يُقْضِ^(٢)
مَضْجَعَهُ ، ثم أحضرَ ما تيسَّرَ من الطعامِ والشرابِ ، وتبعَهَا إلى
المطبخِ ، فوضعه أمامَهَا وأمرَهَا بتناوله . وما كادت الخادِمُ المسكينَةُ
تَرى الطعامَ حتى هوتَ عليه فَاتَّت على ما في الإناء . وبعد أن
انتهت من الشرابِ قام (الكاتبُ) وأخذ يُدرِّبُهَا على القيام ببعض
الألعابِ المنزلية حتى أجادتها . ثم قال لها : « اسمحي لي لكي
يَتِمَّ سروري أن أناديكَ (بالمرَّكيُونِس) أسمعِينَ ؟ » فأومأت
الخادِمُ المسكينَةُ أن نعم ، ثم أخذَا يلعبان حتى دَقَّت الساعةُ العاشرةُ ،
فتذكَّرَ أنه يجبُ عليه أن يذهبَ إلى حجرةِ مكتبهِ قبلَ أن يعودَ
(الحامي وأخته) ، فاستأذنها في الخروج وقال : يا (مرَّكيُونِس) ،
أرجو أن تعدِّني صديقاً لك ، وآملُ أن نلعبَ كثيراً حتى
أَدْخَلَ السرورَ على نفسك . وقبل أن أغادِرَكَ أريدُ أن
أسألكَ مرةً أُخرى عن السببِ الذي حدا بكِ إلى النظرِ

(١) الحزن (٢) يقلقه .

من فتحة الباب . فأجابت وقد استولى عليها الذُّعْرُ^(١) ، وتملَّكها
الفرعُ : « ما كنت أريد شيئاً أكثر من أن أسألك قطعةً من
الخبز ؛ فقد تغلبَ علىَّ الجوعُ ، ولم تُعطني سيِّدتي ما يكفي من
الطعام . ولوتركت لي مفتاحَ الخزانةِ ما امتدَّت يدي إلى أكثر
مما يحفظ الحياة ، ويُزيلُ ألمَ الجوع .

دارت الأيامُ دورتها وتركَ الكاتبُ عمله مع المحامي ،
وعاش في حُجرةٍ صغيرةٍ مُنعزلةٍ عيشةَ الفقرِ والشقاء . وذات ليلةٍ
دبَّ ديبُ المرضِ في جسمه ، فأوى^(٢) إلى فراشه يتلوَّى من
فرطِ الداءِ ، ووطأة^(٣) المرضِ ، وشعرَ بظماً شديداً لا يستطيعُ
إطفاءه ، وأخذَ يحلُمُ في تلك الليلةِ أحلاماً مُزعجةً . وهكذا قضى
ليلتَه في بحرٍ لُجِّيٍّ^(٤) تتقاذفه^(٥) الأهوالُ ، وترتطمُّ به الهمومُ .
وفي إحدى الليالي مرَّ به طيفُ السكرى^(٦) ، فأزال عن عينيه
شبحَ^(٧) السهادِ ، فاستسلمَ للنومِ ، وانقطعت عنه أحلامه وآلامه ،
فاستيقظَ من نومه وقد سرى النشاطُ في أعضائه ، وأحسنَ
الراحةَ تعمُّ جسمه ، فأخذَ يتذكَّرُ الماضيَ ، وما ألمَّ^(٨) به

(١) الفرع والخوف . (٢) لجأ (٣) شدة (٤) عميق (٥) تتلقفه

(٦) النوم (٧) جسمه (٨) نزل

من آلام وأحزان . وبينما هو ساجد في بحار خياله إذ تذكر أنه نسي باب الحجرة مفتوحاً ، فأزاح الستائر بيده ، ونظر إلى الحجرة فوجدها مغلقة ، ولكنه شاهد فيها تغيراً كثيراً ؛ فقد وجدها نظيفة مرتبة الأثاث ، نقية الهواء ، تختلف كثيراً عما كانت عليه حينما أوى إلى فراشه . ولشدهما كانت دهشته عند ما وقع نظره على زجاجات الأدوية . وسرعان ما عادت إلى نفسه ذكرى (المركيونيس) ، فتخيلها وهي واقفة أمامه تلاعب نفسها على الخوان .

وتذكر كل ما دار بينهما من حديث . فظن أنه في حلم من الأحلام ، فوضع رأسه على الوسادة ، واستسلم لأحلامه ، ولكنه عاد فرفع الستائر ثانية ، وأخذ يحول بنظره في الحجرة ، فوجد (المركيونيس) واقفة في ناحية منها وقد تملكها الفرح ، وشملها^(١) السرور . فأخذت تضحك وتصفق يديها ، وأعربت^(٢) عن سرورها لشفائه ، وما لاقته من همٍّ وحيرة في مرضه . فنظر إليها (دك) نظرة العطف والرحمة ، وطلب إليها أن تدنو منه حتى يقف على ما أصابه من ألم أضنى^(٣) جسمه ، وضعف أنهلك^(٤) قواه ، فهزّت

(١) عَمَّهَا . (٢) أَبَانَ . (٣) أَتَعَبَ . (٤) أَذْهَبَ

(المركيونيس) رأسها وعاودها بُكاؤها . فتحرّك (دك) في فراشه وقال : « الآن فهمتُ أنى كنتُ مريضاً مرضاً شديداً . »
فأجابت الخادمُ الصغيرةُ وهى تمسحُ الدموعَ المنحدرةَ على خديها : « لقد كنتُ مريضاً حقاً ، وكنتُ قابَ قوسينِ ^(١) أو أدنى من الموت . ولقد مضى عليك الآن ثلاثة أسابيع وأنت طريحُ الفراشِ . » فقال (دك) : « يا (مركيونس) ، كيف حالُ (سالى) ؟ » فحارت قليلاً ، ولم تُحرّ جواباً ، ولكنها هزت رأسها وقالت : « لا أعرفُ عنها شيئاً ياسيدى ؛ فقد هربتُ من خدمتها ، وأسألُ اللهَ لك الشفاءَ التامَّ . » فسألها : « وأين تعيشين الآن . »
فأجابت : « إني أعيش هنا . »

زفر (دك) زفراتٍ طويلةً ، ثم وضعَ رأسه على الوسادةِ وقد وقعَ فى نفسه حديثُ (المركيونيس) موقعَ النبأِ فى الأهدافِ ، وقال : « أخبرينى كيفَ فكرتِ فى المجئِ إلى هنا ؟ »
فأجابت : « لقد أصبحتُ بائسةً منذ غادرتَ العملَ فى مكتبِ المحامى ، فلم يكنْ لى أحدٌ يُفكرُ فى سواك . وفى صباحِ أحدِ الأيامِ كنتُ قريبةً من المكتبِ ، فسمعتُ قائلاً يقولُ : إنك مريضٌ جداً ، وليسَ لديكِ أحدٌ يهتمُ بشأنك ، أو يُعنى بخدمتكِ . »

وسمعتُ المحامى يقول : « ليس ذلكَ من شأنى . » ورددتُ
أخته تلكَ العبارةَ أيضاً ، فلم أطقُ صبراً على وَحْدَتِكَ ومرضِكَ ؛
ولذلكَ هَرَبْتُ وَأَتَيْتُ إِلَى هُنَا ، ومكثْتُ بجوارِكَ هذه المدةَ
أسهرُ على خِدْمَتِكَ ، وأغنى بِشُؤْنِكَ . »

فصاح (دِك) : « إِنْ هَذِهِ (الْمَرْكِوْنِس) الصَّغِيرَةُ قَدْ
حَمَلَتْ نَفْسَهَا مَا لَا طَاقَةَ لَهَا بِحِمْلِهِ ، وَتَجَشَّمتُ ^(١) هَذِهِ الْمَتَاعِبَ
وَتِلْكَ الْأَلَامَ حَتَّى أَوْهَنْتُ صَحَّتَهَا . » فقالت : « لَا ! إِنِّى وَجَدْتُ
فِى تَمْرِىضِكَ سُرُورًا عَظِيمًا ، وَلَمْ أَلْقَ تَعَبًا قَطُّ ، فَلَا تَفَكَّرْ فِىَّ .
وَيَسِّرْ لِي أَنْ صَحَّتَكَ الْآنَ فِى تَقْدِيمِ مُسْتَمِرٍّ يَا سَيِّدِى . »

فقال (دِك) : لَوْلَاكَ يَا (مَرْكِوْنِس) لَمُتُّ وَحِيدًا فِى هَذِهِ
الْحَجْرَةِ ، فَيَاتِى وَصَحَّتِى وَرَاحَتِى مَنَسُوبَةً إِلَيْكَ ، وَإِلَى حَسَنِ
عَنَائَتِكَ بِى ، فَلَنْ أُنْسَى لَكَ هَذَا الْجَمِيلَ مَا حَيَّيْتُ .

أَنْ لِّلْسَيِّدِ (دِك) أَنْ يَفِىَّ بِجَمِيلِ تِلْكَ الْفَتَاةِ الْمُسْكِينَةِ ؛ فَقَدْ
وَرِثَ بَعْضَ الْمَالِ عَنْ أَحَدِ أَقَارِبِهِ ، فَاشْتَرَى (لِّلْمَرْكِوْنِس)
مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ حُلَلٍ جَدِيدَةٍ جَمِيلَةٍ ، وَأَحْلَقَهَا بِالْمَدَارِسِ لَتَنَالِ
نَصِيبَهَا مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ . وَهَلَّا بَلَغَتْ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهَا
بَنَى ^(٢) عَلَيْهَا ، وَعَاشَا مَعًا زَوْجَيْنِ سَعِيدَيْنِ .

(١) تكبدت (٢) أضعفت (٣) تزوجها

الْقِصَّةُ السَّادِسَةُ

(دُرَّت) الصَّغِيرَةُ

كان المَدِينُ بانجلترا — في القرونِ الماضيةِ — يُحَكِّمُ عليه بالسَّجْنِ إِذَا عَجَزَ عَنْ أَداءِ ما عليه من الدُّيُونِ . وذاتَ مرَّةٍ خَسِرَ أَحَدُ الرِّجَالِ المَهْدِيِّينَ ما لَدَيْهِ مِنْ مالٍ ، فَاخَذَ إِلَى سِجْنِ (مَرْشَالِسى) . وكانَ لذلِكَ الرِّجُلِ زَوْجٌ وَفِيَّةٌ ، وابنٌ يُدْعَى (إِدْوَارْدَ) سِنَّهُ ثَلَاثُ سِنِينَ ، وابْنَةُ اسْمُهَا (فَانِي) تَبْلُغُ مِنَ العُمُرِ سَنَتَيْنِ . لمْ تَجِدِ الأمُّ أَمَلًا فِي أَداءِ تِلْكَ الدُّيُونِ ، فَذهبتْ بِطِفْلِهَا لِلْمَعِيشَةِ فِي السَّجْنِ بِجِوَارِ زَوْجِهَا المَسْكِينِ . وكانَ القانونُ الإِنْكَلِيزِيُّ إِذْ ذاكَ يُبَيِّحُ لِلزَّوْجَةِ أَنْ تَكُونَ مَعَ زَوْجِهَا السَّجْنِ فِي مُعْتَقَلِهِ . ضَمَّهمُ السَّجْنُ بَيْنَ جُدْرَانِهِ الضَّخْمَةِ ، وصَارُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا وُجُوهَ المَسْجُونِينَ ، وَلَا يَبْصُرُونَ مِنَ العَالَمِ الْخَارِجِيِّ إِلَّا الْأَشْعَةَ الَّتِي تَنْفِذُ إِلَيْهِمْ مِنْ خِلَالِ النِّوَاظِدِ الضَّيِّقَةِ . يَبْدُو^(١) أَنَّهُ كَانَ يُسَمَّحُ لِلْأَطْفَالِ بِاللَّعِبِ فِي فِنَاءِ السَّجْنِ ، فَلَمْ يَشْعُرِ الطِّفْلَانِ بِآلامِ الحَبْسِ ، وَلَمْ يَدْرِكَا كَيْفَ كَانَتْ حَالُ أَيُّهُمَا مِنْ قَبْلُ مِنْ

(١) غَيْرَ أَنَّهُ .

الثراء^(١) والنعمة، والعيشة الرغد^(٢)، وكيف حال الأسرة اليوم، وما هي فيه من ضيق وشقاء، وذلل وهوان.

وُلِدَ للرجل وزوجته في السجن بنتٌ سَمَّيَها (دُرَّتْ)، عاشت في السجن ولم تخرج منه في طفولتها، وكانت ذكيّة العقل، عميقة التفكير، حسنة الوجه، خفيفة الروح، أحبّها كلُّ مَنْ رآها من السجناء، فأقبلوا عليها يُداعِبونها^(٣) ويُقدِّمون لها ما يسرُّها.

وكان السجناء «بوب» أكثر الناس إعجاباً بها، وعطفاً عليها، يحبُّها كما يحبُّ ابنته.

وحيثما تعلّمت المشى اشترى لها كرسيّاً صغيراً وضعه لتجلس عليه بجانب الموقد في حُجْرته بالسجن. وكان يقدِّم لها اللعب والدُمى^(٤) لتلهو بها. وقد أحبَّت (دُرَّتْ) السجناء كما أحبّها. لا تفارقه إلا حينما تأوى إلى فراشها بجوار أمّها في المساء.

كان نظام السجن يسمح للزوجة وأولادها بالخروج منه للرياضة في أوقات مُعيَّنة، ولكنها حرمت نفسها وأولادها ذلك

(١) الثراء : كثرة المال (٢) عيشة رغد يسكون الغنى وفتحها أى واسعة طيبة . (٣) يمازحونها (٤) جمع دُمىة : التمثال الصغير

لتكونَ إلى جوارِ زوجها ؛ حتى لا يشعرَ بأنَّ شريكَةَ حياتِهِ تنعمُ
بزيارةِ الحدائقِ والبساتينِ من دُونِهِ .

نشأتُ (دُرْتُ) وهى لا تعرفُ مِنَ الدنْيا غيرَ السَّجَنِ
ذى الأبوابِ الضخمةِ ، والسَّيَاحِ^(١) المرتفعِ ، والنوافذِ الضيقةِ .
وكانت أمُّها لا تُحدِّثُها عن شَيْءٍ من أحوالِ الأسرةِ حتى لا تشعرُ
وهى فى مَهْدِها بآلامِ الحياةِ .

وذاتَ يومٍ جَلَسَتْ (دُرْتُ) إلى جانبِ السَّجَنِ فى حُجْرَتِهِ
وأخذتْ تُحدِّقُ^(٢) بنظرها إلى النافذةِ ، وتُقلِّبُ طرفَها^(٣) فى
السَّمَاءِ ، فلحَظَها السَّجَانُ وقالَ لها :

« فِيمَ تَفَكِّرِينَ يا (دُرْتُ) ؟ أَتَفَكِّرِينَ فى الحقولِ ؟ »

فَقالتْ : « مَا الحقولُ ؟ وأين هى ؟ »

فأجابَ السَّجَانُ — وقد أشارَ بمفتاحٍ فى يده : إنها قَرْيَةٌ من
هنا . ألمَ يَقعْ نَظْرُكَ عليها من قَبْلُ ؟

بلى : إننى لم أَرها . هل الحقولُ تُفْتَحُ وتُغْلَقُ كما يُفْتَحُ
السَّجَنُ ويُغْلَقُ ؟

(١) السَّيَاح : السور
(٢) حدَّق : شدد النظر
(٣) عيناها

تَأْلَمُ السَّجَانُ فِي نَفْسِهِ لِسُؤَالِهَا هَذَا ؛ لِأَنَّهُ أَحْسَنُ مَا يُخَالِجُ^(١)
فُؤَادَهَا مِنْ مَرَارَةِ الْأُسْرِ . ثُمَّ قَالَ لَهَا : « لَا يَا بُنَيَّتِي ، إِنَّهَا
لَا تَعْلُقُ دَائِمًا . »

فَسَأَلَتْهُ : « هَلِ الْحَقُولُ جَمِيلَةٌ يَا (بُوبُ) ؟ وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ
تُنَادِيَهُ بِاسْمِهِ مُجَرَّدًا .

فَأَجَابَ (بُوبُ) : « وَى^(٢) ! إِنَّهَا جَمِيلَةٌ جَدًّا يَا (دُرَّتُ) ، وَسَأَخْذُكَ
مَعِيَ حَيْثُ أُخْرِجُ ؛ لِتَمْتَعِيَ بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ ، وَتَرَى بِعَيْنِكَ الْأَشْجَارَ
الْمُثْمِرَةَ ، وَالْحَدَائِقَ الْغَنَاءَ ، وَالْمَتَنَزَّهَاتِ الْعَامَةَ وَقَدْ اكْتَسَتِ أَرْضُهَا
بِسَاطِ سُنْدُسٍ جَمِيلٍ ، وَازْدَانَتْ بِالْأَزْهَارِ الَّتِي تَبْعَثُ فِي الْجَوِّ
أَرْيَجَهَا^(٣) الْمُنْعَشَ ، وَجَرَتْ فِيهَا الْجُدَاوِلُ صَافِيَةً رَقْرَاقَةً تَحْمِلُ الْحَيَاةَ
وَالنَّمَاءَ لِلنَّبَاتِ ، يَقْصِدُهَا النَّاسُ لِلتَّنَزُّهِ وَاللَّعْبِ .

دُرَّتُ : وَهَلِ النَّاسُ جَمِيعًا يَتَمَتَّعُونَ بِمَا فِي الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ ؟
بُوبُ : نَعَمْ يَا (دُرَّتُ) . إِنْ فِي قَدْرَتِكَ أَنْ تَذْهَبِي إِلَيْهَا ،
وَتَأْخُذِي حَبْلَكَ وَتَقْفِزِي بِهِ هُنَا وَهَنَّا كَمَا يَحْلُو لَكَ .

دُرَّتُ : أَفِي الْحَدَائِقِ أَطْفَالٌ كَثِيرُونَ أَسْتَطِيعُ اللَّعِبَ مَعَهُمْ ؟
بُوبُ : سَتَجِدِينَ كُلَّ مَا يَسُرُّكَ وَيُفَرِّحُكَ هُنَاكَ .

(١) خَالَجَ قَلْبِي أَمْرٌ : نَازَعَنِي فِيهِ فِكْرُ (٢) كَلِمَةٌ لَاتُعْجَبُ (٣) رَاحَتُهَا الطَّبِيعَةُ

دُرَّت : وهل كان أبي يتنزه في تلك الحديقة ؟
السجّان : أجبها متألماً : نعم كان يتنزه فيها ، ويتمتع
بمناظرها أحياناً .

دُرَّت : أهو أسيفُ الآن حرّمانه الحرية في الحياة ؟
السجّان : أظنه غير أسيفٍ كثيراً .

دُرَّت : أليس السجّان أسيفين لا تقطعهم عن العالم ،
وحرمانهم الرياضة والتنزه ؟ أجب يا (بوب) ! ما لي أراك
تصمت ؟ لم يُحر^(١) السجّان جواباً ، وتنقّس الصّعداء^(٢) . وللتخلّص
من الإجابة غير موضوع الحديث ، ثم حملها بين يديه ، وأخذ
يسلّيها بلعبة جديدة كان قد اشتراها ليقدمها لها في عيد الميلاد .
صار (بوب) بعد ذلك يأخذ (دُرّت) كلّ يوم أحد إلى
الحدائق والمتنزهات فتلهو وتلعب ، وتقطف الأزهار الجميلة ،
وتنظّم منها طاقين تقدّمهما لأبويها حين عودتها في المساء
إلى السجن .

وحينما بلغت (دُرّت) من العمر ثمانية أعوام توفيت أمها ،
فحزن الأب والأطفال عليها حزناً شديداً . وبفقدتها فقدوا من

(١) لم يدّر (٢) تنقّساً طويلاً

يُعْنَى بِأُمُورِهِمْ ، وَيَهْتَمُّ بِشُؤْنِهِمْ ؛ فَقَدْ كَانَتْ الْابْنَةُ (فَانِي) فَتَاةً لَا تَعْرِفُ شَيْئًا ، وَلَا تَهْتَمُّ بِشَيْءٍ . وَكَانَ الْابْنُ (إِدْوَارْدُ) خَامِلًا بَلِيدًا ، لَا يَعْمَلُ ، وَلَا يُحِبُّ الْعَمَلَ . وَلَمْ يَكُنْ لَدَى الْأَبِ الْمِسْكِينِ مَنْ يِعْتَمِدُ عَلَيْهِ سِوَى ابْنَتِهِ الصَّغِيرَةِ (دُرَّتْ) . وَمُنْذُ صِغَرِهَا كَانَتْ تَحْمِلُ قَلْبًا شَفِيقًا ، وَرُوحًا وَثَابَةً ، وَعَزِيمَةً قَوِيَّةً ، وَذِهْنًا حَاضِرًا . فَلَمْ تَلَبِّثْ أَنْ رَاضَتْ ^(١) نَفْسَهَا عَلَى الْعَمَلِ ، وَأَخَذَتْ تَفَكَّرُ - كَأَمٍّ حَازِمَةٍ - فِي أَبِيهَا وَأَخْتِهَا وَأَخِيهَا .

وَلَقَدْ قَاسَتْ كَثِيرًا فِي سَبِيلِ أَنْ تَتَعَلَّمَ ، وَيَتَعَلَّمَ أَخَوَاهَا ؛ فَكَانَتْ تُرْسِلُهُمَا إِلَى مَدْرَسَةٍ نَهَارِيَّةٍ ، وَتَقُومُ هِيَ بِشُؤْنِ الْأُسْرَةِ ، وَتَعْمَلُ طَوِيلَ النَّهَارِ مُنْفَرِدَةً ، فِي جِدِّ وَدَأْبٍ ^(٢) ، حَتَّى إِذَا مَا جَنَّ ^(٣) عَلَيْهَا اللَّيْلُ تَرَكَتْ الْمَنْزَلَ ، وَذَهَبَتْ إِلَى مَدْرَسَةٍ لَيْلِيَّةٍ لَتَتَعَلَّمَ فِيهَا الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ وَالْحِسَابَ .

وَحِينَمَا بَلَغَتْ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهَا أُلْفَتْ ^(٤) نَفْسَهَا قَدْ حَذَقَتْ ^(٥) التَّدْيِيرَ الْمَنْزِلِيَّ ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَقْرَأَ وَتَكْتُبَ .

دَخَلَ السَّجْنُ سَجِينٌ جَدِيدٌ لَدَيْنِ كَانَ عَلَيْهِ ، وَسَمِعَتْ ^(دُرَّتْ)

(١) عودت (٢) جد وتعب . (٣) ستر (٤) وجدت (٥) مهرت

أنه معلمٌ للموسيقا . وكانت تجدُ في أختها (فاني) ميلاً لذلك الفنّ ، فذهبتُ إليه وقالت له :

سيدي ، أسمحُ لي بالتحدُّثِ إليك ؟

السجين الجديد : نعم ، إنني مُنصتٌ^(١) لكلِّ ما تقولين . ولن أبخلَ عليكِ بأيةِ معونةٍ تكونُ في طاقتي أيُّها السيِّدة الصَّغيرةُ .

درت : شكراً لك يا سيدي . إنني أريدُ أن أرجوَك شيئاً لا لنفسي ، بل لأختي الكبيرة ، وهو أن تسمحَ بتعليمِها الموسيقا . فهل لك أن تُسدي^(٢) إلينا يداً^(٣) لن ننساها أبداً الدهر بتعليمِها ذلك الفنَّ الجميلَ ؛ علها تستطيعُ فيما بعدُ أن تكسبَ منه ما تُعينُ به أسرَتنا العائرة^(٤) الجُدَّ ، ولن نبخلَ عليكِ بما يصلُ إلى أيدينا من مالٍ ؟

السجين الجديد : بكلِّ سرورٍ سأقومُ بتعليمِ أختك من غيرِ أن أنتظرَ أيَّ أجرٍ على القيامِ بواجبٍ .

واظبتُ (فاني) على دروسِها ، وأظهرتُ براعةً ومقدرةً ، وعُني^(٥) بها المدرِّسُ عنايةً كبيرةً ، وأعجبَ بتقدُّمِها في الموسيقا

(١) ساكت ومستمع (٢) تحسن (٣) اليد : النعمة والإحسان

(٤) السيئة الحظ (٥) اهتم

يوماً بعدَ يومٍ . ولم يَنْقَطِعْ عن الحضورِ لتعليمها حتى بعدَ أن أدَّى ما عليه من الدِّينِ ، وأُطْلِقَ سَراحَهُ مِنَ السِّجْنِ .

سُرَتْ (درت) كثيراً بِنَقْدِ أَخِيهَا ، فَدَعَاها ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَتَعَارَفَ بِسَيِّدَةٍ سَجِينٍ كَانَتْ تَتَّخِذُ خِيَاطَةَ الْمَلَابِسِ لِلْسَيِّدَاتِ مَهْنَةً لَهَا . وَرَجَّهَ أَنْ تُعَلِّمَهَا . فَاعْتَذَرَتِ السَّيِّدَةُ ؛ مُدَّعِيَةً أَنَّ (درت) ضَعِيفَةٌ الْبَنِيَّةِ ، صَغِيرَةُ الْجِسْمِ ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْتَمِلَ آلامَ تَعَلُّمِ الْحَيَاكَةِ . وَلَكِنْ (درت) أَظْهَرَتْ لَهَا فِي جِدِّ وَدَأْبٍ ^(١) ، وَعَزْمَةٍ صَادِقَةٍ ، أَنَّ فِي قُدْرَتِهَا أَنْ تَتَعَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ رَغِبَتْ فِي تَعَلُّمِهِ ، وَأَنَّ لَدَيْهَا اسْتِعْدَاداً لِلْفَهْمِ إِذَا سَمَحَتِ السَّيِّدَةُ بِتَعْلِيمِهَا .

فَعَارَضَتْ السَّجِينَةُ قَائِلَةً : « إِنَّكَ لَا تَزَالِينَ صَغِيرَةً ، وَصَغِيرَةٌ جَدًّا . »

فَقَالَتْ (درت) : « نَعَمْ ، أَنَا صَغِيرَةٌ ، وَصَغِيرَةٌ حَقًّا . » وَأَخَذَتْ تَبْكِي ، فَتَأَلَّمَتْ لَهَا السَّيِّدَةُ ، وَأَخَذَتْهَا بَيْنَ يَدَيْهَا ، وَعَظَفَتْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ بَدَأَتْ تُعَلِّمُهَا ، فَوَجَدَتْهَا ذَكِيَّةً ، قَوِيَّةَ الْمُلَاحَظَةِ ، كَثِيرَةَ الصَّبْرِ ، شَدِيدَةَ الرَّغْبَةِ فِي التَّعَلُّمِ . وَسُرْعَانَ مَا أَظْهَرَتْ نَجَاحاً بَاهِراً فِي الْحَيَاكَةِ وَالتَّطْرِيضِ .

(١) دَأْبٌ فِي عَمَلِهِ : جَدُّ وَتَعَبٌ ، وَبَابُهُ قَطَعَ وَخَضَعَ

اشتغلت (فاني) بالموسيقا في إحدى دُورِ الملاهي ، واستطاعت
 أن تَكْسِبَ عَيْشَهَا بِنَفْسِهَا ، وعاشتْ مع عَمَّهَا الهَرِمِ الْمِسْكِينِ
 خَارِجَ السَّجْنِ . وَحَدَّثَتْ^(١) (دُرْتُ) حِرْفَةَ الْخِيَاطَةِ ، وَبَدَأَتْ
 الْحَيَاةُ تَبْسِمُ لَتِلْكَ الْأُسْرَةِ الْمُنْكَودَةِ ؛ فَإِنَّ (دُرْتَ) نَجَحَتْ فِي
 عَمَلِهَا ، وَأَخَذَتْ تَفَكَّرُ فِي إِخْرَاجِ أَخِيهَا مِنَ السَّجْنِ ، لِتُنْقِذَهُ مِنْ
 مِنْ أَخْلَاقِ السُّجَنَاءِ وَيُنْثِيَهُمْ . وَبِمُسَاعَدَةِ (بُوبِ) الصَّدِيقِ
 الْقَدِيمِ أَمَكْنَهَا أَنْ تَجِدَ لَهُ عَمَلًا يَكْسِبُ مِنْهُ قُوَّتَهُ ، وَلَكِنْ
 وَالْأَسْفَاهُ ! كَانَ كُلَّمَا أَحَقَّقَتْهُ أُخْتُهُ بِعَمَلٍ أَظْهَرَ مِنَ الْكَسَلِ
 وَالْإِهْمَالِ وَالْتَقْصِيرِ مَا يُلْجِي^(٢) صَاحِبَ الْعَمَلِ إِلَى طَرْدِهِ وَالِاسْتِغْنَاءِ
 عَنْهُ . وَأَصْبَحَ عِبْنًا^(٣) ثَقِيلًا عَلَى (دُرَّتِ) الصَّغِيرَةِ حَتَّى يَنْثُتَ مِنْ
 إِصْلَاحِ حَالِهِ ، فَعَمِلَتْ عَلَى أَنْ تَقْتَصِدَ مِقْدَارًا مِنَ الْمَالِ يَكْفِي سَفَرَهُ
 إِلَى (كَنْدَا) ؛ لِلْبَحْثِ عَنْ حَظِّهِ هُنَاكَ . وَكَانَ يَهَاجِرُ إِلَيْهَا الْفُقَرَاءُ
 الْمُعْدِمُونَ فَيَعُودُونَ مِنْهَا أَغْنِيَاءَ . ادَّخَرَتْ^(٤) الْقَدْرَ الْكَافِيَ وَقَدَّمَتْهُ
 لِأَخِيهَا (إِدْوَارْدَ) ، وَطَلَبَتْ مِنْهُ الْمَهَاجِرَةَ ، وَزَوَّدَتْهُ بِنَصَائِحِهَا
 الثَّمِينَةِ ، وَوَدَّعَتْهُ عِنْدَ مَغَادِرَتِهِ بِقَوْلِهَا : « أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَخُ

(١) مَهَرْت (٢) يَضْطَر (٣) الْعَبءُ : الْحَمْلُ . (٤) اقْتَصَدَتْ

العزيرُ . أرجو لك النجاحَ في (كندا) ، وآملُ أن تكتبَ إلينا .
ولا تنسَ أن تعودَ لرؤيتنا حينما يكتبُ لك الله الفوزَ والتوفيقَ .
أخذَ (إدواردُ) النقودَ من شقيقته ومضى . ولكنه لم يسافرْ
إلى (كندا) ، بل مكثَ في (ليثربول) حتى فقِدَتْ نقودُه ،
ثم عادَ إلى (درت) المسكينةِ بعد شهرٍ ، دأبى القدمَ ، مُمزقَ
السيابِ ، رثَ^(١) الهيئةَ فذُعِرَتْ^(٢) أخته ذُعراً شديداً حينما رأتَه ،
واستولى عليها الحزنُ والألمُ حينما قصَّ عليها قصَّته ، وأخبرها بأنَّ
نقودَه سُرِقَتْ منه في (ليثربول) ؛ فلم يتمكنْ من السفرِ إلى
(كندا) ، واضطُرَّ إلى الاستدانةِ ، فحُكِمَ عليه بالسجنِ .

فَزِعَتْ لقوله هذا الفزعَ كُلَّهُ ، وَرَجَتْهُ أَلَّا يردَّ كلمةَ
« السجن » ؛ لأنها تبعثُ في نفسها كلَّ غَمٍّ وَهَمٍّ ، وألا يُخبرَ أباه
حتى لا ينفطرَ^(٣) قلبه كمدًا وحُزنًا ، ولا تتضاعفَ آلامُه ، وينوءَ
تحتَ تلكَ الأرزاءِ فيخِرَ صريعاً .

اثنتانِ وعشرونَ سنةً قضتها (درتُ) في شقاءٍ دائمٍ ، وألمٍ
مستمرٍّ ، وهَمٍّ مُقيمٍ . ألمٌ تَبزُغُ^(٤) شمسُ حياتها في غياهبٍ^(٥)

(١) الرث : البالي (٢) فزع (٣) ينقطع (٤) تطلع
(٥) الغيب : الظلمة ، والليل

الظلمات ؟ أَلَيْسَتْ رَبِيبَةَ السَّجْنِ ، وابنةَ طريدِ المجتمع ؟ أَلَمْ تَجَاهِدْ فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ وَهِيَ لَمْ تَعُدْ الثَّامَنَةَ مِنْ عُمْرِهَا ؟ أَلَمْ تَحْمِلْ أَوْصَابَ ^(١) الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ تَعْلِيمِ إِخْوَتِهَا وَإِنْقَاذِ أَسْرَتِهَا ؟

« رَبَّاهُ ! أَنْقِذْنِي مِمَّا أَعَانِي ^(٢) . لَقَدْ احْتَمَلْتُ مَا لَمْ يَحْتَمِلْهُ أَحَدٌ ، وَقَاسَيْتُ مَا لَمْ تُقَاسِهِ فَتَاةٌ . لَقَدْ تَعَبْتُ كَثِيرًا ، وَشَقِيتُ طَوِيلًا . رَبَّاهُ ! عَفُوكَ وَرَحْمَتِكَ ! وَإِحْسَانَكَ وَرِضْوَانَكَ . »

بهذه الكلماتِ الحارَّةِ كانت تتضرَّعُ إِلَى رَبِّهَا بِأَكْبَرِ صَبَاحِ مَسَاءٍ . وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا الصَّادِرَ عَنْ تِلْكَ النَّفْسِ الطَّاهِرَةِ ، وَالرُّوحِ الْبَرِيئَةِ ، وَأَخَذَ الدَّهْرُ يُبْتَسِمُ لَهَا ؛ فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ لَتَلَبَّيْ دَعْوَةَ سَيِّدَةٍ غَنِيَّةٍ اسْتَدْعَتْهَا لِتَخِيطَ لَهَا ثِيَابَهَا فِي بَيْتِهَا . وَكَانَ لِمَلِكِ السَّيِّدَةِ ابْنُ كَرِيمٍ الْخُلُقِ ، شَرِيفِ النَّفْسِ ، رَضِيَ الطَّبَعِ ، كَثِيرُ الْعَطْفِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، يُدْعَى السَّيِّدَ (كَلِينَامَ) . عَرَفَ قِصَّةَ (دُرَّت) وَمَا قَاسَتْهُ مِنْ آلَامٍ ، وَمَا قَامَتْ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ ، فَأَخَذَتْهُ الشَّفَقَةُ عَلَيْهَا ، وَالرَّأْفَةُ بِهَا ، فَعَزَمَ عَلَى أَدَاءِ دَيْنِ أَبِيهَا وَأَخِيهَا ، وَإِنْقَاذِهَا مِنْ غِيَاهِبِ ^(٣) السَّجْنِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَا عَائِدَيْنِ إِلَى الْمَنْزِلِ — بَعْدَ أَنْ مَرَّ بِالْدَائِنِينَ
 لِمَعْرِفَةِ مِقْدَارِ الدِّينِ — فَسَمِعَتْ (دُرَّتُ) صَوْتًا يُنَادِيهَا :
 « أُمِّي الصَّغِيرَةُ . » فَتَلَفَّتْ نَحْوَ مَصْدَرِ الصَّوْتِ ، فَرَأَتْ فَتَاةً
 تَعْدُو نَحْوَهَا . وَمَا كَادَتْ تَصِلُ إِلَيْهَا حَتَّى أَلْقَتْ بِنَفْسِهَا بَيْنَ يَدَيْهَا ،
 وَقَدْ سَقَطَ مِنْهَا مَا كَانَ بِيَدِهَا مِنَ (الْبَطَاطِسِ) . فَعَرَفَتْهَا (دُرَّتُ)
 وَقَالَتْ لَهَا بِكَلِّ عَطْفٍ وَحَنَانٍ : مَرْحَبًا بِكِ يَا (مَاجِي) . أَيْنَ
 أَنْتِ ؟ وَمَالِي أَرَاكِ مُشْعَتَةً ^(١) الشَّعْرَ ؟

قَدَمْتُ (دُرَّتُ) الْفَتَاةَ لِلسَّيِّدِ (كَلِينَامَ) ، وَعَرَفَتْهُ أَنَّهَا
 كَانَتْ حَفِيدَةً لْجَارَةٍ لَهَا ، وَأَنَّ جَدَّتَهَا كَانَتْ تَقْسُو فِي مُعَامَلَتِهَا
 وَهِيَ صَغِيرَةٌ ، وَقَدْ أُصِيبَتْ بِحُمَّى شَدِيدَةٍ وَهِيَ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ
 عُمْرِهَا ، فَأُرْسِلَتْ إِلَى الْمُسْتَشْفَى ، فَوُجِدَتْ فِيهِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالْعَنَاءِ
 وَالرَّعَايَةِ مَا لَمْ تَأْلَفْهُ مِنْ جَدَّتِهَا . وَكَثِيرًا مَا تَنَاوَلَتْ فِيهِ شَرَابَ
 اللَّيْمُونِ اللَّذِيذِ ، وَاللَّجَاجِ الشَّهِيِّ ، وَالطَّعَامَ الصَّحِيَّ . فَوَدَّتْ لَوْ
 أَنَّهَا تَبْقَى مَرِيضَةً إِلَى الْأَبَدِ . وَلَكِنْ لِحَسَنِ حَظِّهَا أَوْ لِسُوئِهِ
 بَرَأَتْ ^(٢) مِنْ مَرَضِهَا ، وَخَرَجَتْ مِنَ الْمُسْتَشْفَى ، وَعَادَتْ لَتَلْتَقَى
 مِنْ عَذَابِ جَدَّتِهَا ، وَشِدَّةِ قَسْوَتِهَا الْأَمْرَيْنِ ^(٣) . وَلَكِنَّهَا كَانَتْ

(١) مُغْبِرَّةٌ (٢) سَلِمَتْ وَشُفِيَتْ (٣) الْأَمْرَانِ : الْفَقْرَ وَالْهَرَمَ

مُجِدَّة كَثِيرَةَ الصَّبْرِ ، اسْتَطَاعَتْ بِمُثَابَرَتِهَا أَنْ تَشُقَّ لِنَفْسِهَا طَرِيقًا فِي الْحَيَاةِ ، وَتُوجِدَ لَهَا عَمَلًا تَرْتَرِّقُ مِنْهُ .

قَصَّتْ (دُرَّتْ) عَلَى السَّيِّدِ (كَلِينَامَ) كُلَّ شَيْءٍ عَنْ تَارِيخِ (مَاجِي) إِلَّا مَا كَانَتْ تُقَدِّمُهُ لَهَا مِنْ مَعُونَةٍ ، وَمَا كَانَتْ تَحُوطُهَا^(١) بِهِ مِنْ عَطْفٍ وَرِعَايَةٍ ، وَمَا كَانَتْ تُسَاعِدُهَا بِهِ مِنْ مَالٍ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ فَقْرِهَا وَحَاجَتِهَا . لَمْ تَذْكُرْ لَهُ (دُرَّتْ) أَنَّهَا هِيَ الَّتِي قَدَّمَتْهَا لِإِحْدَى الْأَسْرِ لَتَكُونَ مَرِيئَةً لِأَبْنَائِهَا . وَلَكِنَّهُ فَهِمَ هَذَا كُلَّهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ؛ مِنْ مَنَادَاةِ (مَاجِي) الْمُسْكِينَةِ لِدُرَّتْ «بِأُمِّي الصَّغِيرَةِ» ، وَمِنْ شِدَّةِ تَعَلُّقِهَا بِهَا ، وَمِنْ نَظَرَاتِ الْإِجْلَالِ الَّتِي كَانَتْ تَرْمُقُ^(٢) بِهَا (مَاجِي) أُمُّهَا الصَّغِيرَةَ (دُرَّتْ) .

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي الْقَارِسَةِ^(٣) الْبَرْدِ ذَهَبَتْ (دُرَّتْ) وَمَعَهَا (مَاجِي) إِلَى بَيْتِ السَّيِّدِ (كَلِينَامَ) ؛ لِتُقَدِّمَ لَهُ جَزِيلَ شُكْرِهَا ، وَوَافِرَ^(٤) ثَنَائِهَا ، لِأَدَائِهِ الدِّيُونِ عَنْ أَخِيهَا وَأُيَيْهَا . وَلَكِنَّهَا أَلْفَتْ^(٥) الْبَابَ مُوَصَّدًا^(٦) ، فَلَمْ تَشَأْ أَنْ تَقْرَعَهُ حَتَّى لَا تُزْعِجَ مِنْ فِيهِ . وَعَادَتْ إِلَى السَّجْنِ فَرَأَتْهُ مُغْلَقًا ، وَوَجَدَتْ السَّجَانَ نَائِمًا .

(١) تَكَلَّوْهَا وَتَرَعَاهَا . (٢) تَنَظَّرَ (٣) الشَّدِيدَةُ (٤) كَثِيرٌ

(٥) وَجَدَتْ (٦) مُغْلَقًا

فَقَضَتِ اللَّيْلَةَ فِي الشَّوَارِعِ ، تَجْلِسُ آوَنَةً ^(١) بِجَانِبِ بَابِ السَّجْنِ ،
وَتَمَشِّي آوَنَةً أُخْرَى فِي الطَّرِيقِ . كُلُّ هَذَا (مَاجِي) تَرْتَعِدُ مِنْ
شِدَّةِ الْبَرْدِ . وَكَانَتْ كُلَّمَا هَمَّتْ بِمُؤَالَاةٍ ^(٢) قَرَعَ الْبَابُ مَنَعَهَا
(دُرْتُ) ، وَقَالَتْ لَهَا : « لَيْسَ مِنْ حَقِّنَا أَنْ نَوْقِظَ النَّائِمَ مِنْ
رُقَادِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ فِي شَيْءٍ أَنْ تُتْعَبَ غَيْرَنَا لِنَسْتَرِيحَ .
وَأَخِيرًا انْقَضَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ اللَّيْلَةُ ^(٣) — بَعْدَ أَنْ طَالَ الْإِنْتِظَارُ —
وَأَتَى الصَّبَاحُ ، وَفُتِحَ الْبَابُ ، وَاسْتَرَاخَتْ (مَاجِي) . وَعَانَقَتْ
(دُرْتُ) أَبَاهَا السَّجْنِيَّ ، وَذَكَرَتْ لَهُ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمُحْسِنِ
النَّبِيلِ السَّيِّدِ (كَلِينَامَ) .

خَرَجَ الْوَالِدُ مِنَ السَّجْنِ ، وَشَكَرَ لِلَّيِّدِ (كَلِينَامَ) ذَلِكَ
الْعَطْفَ الْكَثِيرَ ، وَتِلْكَ الْمُرُوءَةَ النَّادِرَةَ ، وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَقْدِرَهُ
عَلَى رَدِّ ذَلِكَ الْجَمِيلِ .

ابْتَسَمَ الدَّهْرُ ثَانِيَةً لَتِلْكَ الْأُسْرَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَزَالَ ذَلِكَ الشَّقَاءُ
الَّذِي كَانَ يُخَيِّمُ عَلَيْهَا ، وَتَغَيَّرَتِ الْحَالُ تَغْيِيرًا كَثِيرًا ، وَتَبَدَّلَتْ مِنْ
شَقَاءٍ إِلَى سَعَادَةٍ ، وَمِنْ سِجْنٍ إِلَى حُرِّيَّةٍ ، وَمِنْ فَقْرٍ إِلَى غِنَى .

(١) مرة (٢) متابعة (٣) ليلة ليلاء : شديدة الظلمة .

سبحانه جلَّ شأنه . « يُعزُّ من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء . إِنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . »

ولكن لم تنسَ (درت) أصدقاءها الفقراء ، ومن مَدُّوا لها يَدَ المعونة ؛ فكانت تُحسِنُ إليهم وترعاهم ، وتُقدِّمُ لهم كلَّ ما تستطيع من مُساعدةٍ وكان أبوها يشجِّعها على الإحسان .

شاءَ القَدَرُ أن يُصبحَ السيِّدُ (كلينام) فقيراً ، وأن يَسْتَدِينَ فيُزَجَّ به في السِّجْنِ . فلم تَنسَ (درت) تلكَ اليَدَ^(١) التي أسداها^(٢) إلى أسرتها ، فعولَّتْ على إنقاذه من السِّجْنِ ، وإِطلاقِ سَرَاحِهِ مَهْمَا كَلَّفَهَا ذَلِكَ . وأدَّى أبوها ما على (كلينام) من ديونٍ ، فَأَخْرَجَ من السِّجْنِ . ومكَّنَ اللهُ والدَ (درت) من أن يَرُدَّ لَهُ الْجَمِيلَ . ولا يَضِيعُ جَمِيلٌ أَيْنَمَا وَضِعَ .

وتزوَّجَ السيِّدُ (كلينام) الأمَّ الصَّغِيرَةَ (درت) ، وعاشَا سَعِيدَيْنِ مَدَى حَيَاتِهِمَا ، تُرْفَرُ عَلَيْهِمَا الْهَنَاءُ وَالسَّعَادَةُ ، يَكُونُهُمَا^(٣) اللهُ بِعَنَائَتِهِ ، وَيَحْفَظُهُمَا بِرِعَايَتِهِ .

(١) النعمة (٢) قدمها . (٣) يحفظهما

الْقِصَّةُ السَّابِعَةُ

« تَم » الكسيحُ الصغيرُ

جَرَتْ عَادَةُ الْأُمِّ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ أَنْ تَتَّخِذَ لَهَا مِنْ بَيْنِ أَيَّامِ الْعَامِ
أَعْيَادًا ، يَنْقَطِعُ فِيهَا الْأَفْرَادُ عَنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَيَلْبَسُونَ جَدِيدَ الثِّيَابِ ،
وَيَتَلَقَّوْنَ مُتَصَافِينَ فَرَحِينَ ، فِي مَظَاهِرِ السَّعَةِ وَالرَّفَاهَةِ ^(١) ،
كُلٌّ عَلَى قَدَرِ طَاقَتِهِ . وَمِنْ تِلْكَ الْأَعْيَادِ يَوْمُ عِيدِ الْمِيلَادِ ؛ فَقَدْ
كَانَ النَّاسُ يُوفِّرُونَ لَأَنْفُسِهِمْ فِيهِ سُبُلَ الرَّاحَةِ وَالذَّعَةِ ^(٢) ، وَوَسَائِلَ
السَّعَادَةِ وَالسُّرُورِ . وَعَلَى النَّقِيزِ مِنْ ذَلِكَ السَّيِّدُ « سَكْرُوجُ »
التَّاجِرُ ؛ فَقَدْ كَانَ غَلِيظَ الْقَلْبِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّئَ الْمَعَامَلَةِ ، لَا يُفَكِّرُ
إِلَّا فِي ادِّخَارِ الْأَمْوَالِ ، وَالتَّقْتِيرِ عَلَى نَفْسِهِ . فَلَا يَأْبَهُ ^(٣) لِسُكُونِ
غَيْرِهِ ، وَلَا يَحْفَلُ ^(٤) بِمَا يَتَمَنَّوْنَهُ مِنْ خَفَضِ الْعَيْشِ ، وَرَغَدِ ^(٥)
الْحَيَاةِ . لِهَذَا أَبْغَضَ الْعِيدَ ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِهِ ؛ إِذْ عَدَّهُ نَوْعًا مِنْ
حُبِّ الظُّهُورِ .

(١) الرفاهة : السَّعَةُ . (٢) السُّكُونُ . (٣) يَأْبَهُ : يَكْتَرِثُ ، يَفْطَنُ .

(٤) يَحْفَلُ . (٥) وَاسِعَةُ طَيِّبَةٍ

عاشَ السَّيِّدُ «سَكْرُوجُ» عَيْشًا وَضِعًا عَلَى نَحْوِ مَا يَعِيشُ
أَهْلُ الْمَتَرَبَةِ وَالْإِمْلَاقِ، فِي حَجَرَتَيْنِ لَا تَنْفُذُ إِلَيْهِمَا أَشْعَةُ الشَّمْسِ،
وَتُدْخِلَانِ الْغَمَّ عَلَى النَّفْسِ، وَتَبْعَتَانِ الْأَلَمَ فِي الْفُؤَادِ. عَاشَ لَا يَشْعُرُ
بِفَرْحٍ، وَلَا يُحْسِئُ جَذَلًا^(١)، بَلْ كَانَ يُبْغِضُ الْفَرْحَ، وَيَمَقِّتُ الْأَعْيَادَ.
وَلَقَدْ تَسَرَّبَ بَوْسُهُ وَتَبَرُّهُ إِلَى كَاتِبَةِ الْمَسْكِينِ؛ فَقَدَّرَ^(٢) عَلَيْهِ
رِزْقَهُ، وَلَمْ يُعْطِهِ إِلَّا نَقُودًا ضئيلةً، لَا تُنَاسِبُ جَهْدَهُ وَنَشَاطَهُ.
حَدَّثَ فِي لَيْلَةِ عِيدِ الْمِيلَادِ — وَقَدْ اشْتَدَّ بَرْدُهَا، وَكَثُرَتْ
تُلوُجُهَا، فَكَسَتْ الشَّوَارِعَ وَالْحَدَاقَ بِسَاطًا نَاصِعَ الْبَيَاضِ —
أَنْ سَمَحَ السَّيِّدُ (سَكْرُوجُ) — عَلَى كَرِهِ مِنْهُ — لِكَاتِبَةِ التَّعْسِ
بَقَضَاءِ يَوْمِ الْعِيدِ فِي بَيْتِهِ مَعَ أُسْرَتِهِ، فَأَغْلَقَ مَكْتَبَهُ وَهُوَ يَكَادُ
يَتَمَيَّزُ^(٣) مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ. وَذَهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ شَارِدَ اللَّبِّ^(٤)،
ضَيِّقَ الصَّدْرِ، لَوْ قَفَ حَرَكَةُ الْعَمَلِ فِي غَدِهِ.

تَنَاوَلَ (سَكْرُوجُ) التَّاجِرُ نَزْرًا^(٥) يَسِيرًا مِنْ طَعَامٍ لَا يُسْمَنُ
وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ. وَجَلَسَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَوْقِدٍ صَغِيرٍ فِي جَانِبِ
مِنْ حُجْرَتِهِ الْعَابِسَةِ، لِيُذْهِبَ عَنْ نَفْسِهِ قُرَّ^(٦) الشِّتَاءِ، ثُمَّ أَوَى

(١) الجذل: الفرح. (٢) قتر: يتقطع. (٣) العقل.

(٤) اللب: القليل النافه. (٥) النزر: برد.

إلى فراشه . وما كاد الكرى^(١) يُناوي أجفانه حتى تراكمت^(٢) عليه الأفكار من كل صوب ، وتزاحمت في عقله بواعث القلق والاضطراب . ففضى ليلته بين أحلام مُزعجة ، وأوهام تُقضى^(٣) المضاجع ، وتورق الأعين .

ولندع الآن التاجر تائهاً في بحار أحلامه المروعة ، مُتقلِّباً على أشواك من حسك السعدان ، فتمنع طرفه^(٤) الرقاد . ولنعد إلى الكاتب العاثر الجدد ، لنرى كيف قضى ابنه (تم) الصغير يوم العيد .

يُدعى ذلك الكاتب (بُوب كراكت) ، وقد عاش مع زوجته وأولاده الستة ، ومن بينهم (تم) الصغير . وهو طفل ضعيف البنية ، لا تقوى قدماه الواهنتان على حمله ، بل لابد له من عصا يتكى عليها ، فنال عطف والديه ومحبة الأسرة . ومع ضعفه وقلة حيلته ، كان رقيق الطبع ، جميل الوجه ، صبوراً على المكاره ، يُحب أبويه وإخوته ، يعطف عليه كل من رآه ، ويرأف به جميع من رنا^(٥) إليه . وكثيراً ما كان يحمله أبوه على كتفه في أوقات

(١) النعاس . (٢) اجتمعت . (٣) تجعلها خشنة . (٤) عينه

(٥) أدام النظر .

فراغه، ويخرج به للزهوة والرياضة بين الحدائق الغناء، والبساتين
الناضرة، والحوانيت الجميلة، واجداً من اللذة والسعادة في إدخال
الشروع على ابنه ما لا يشعر به إلا الآباء الرثماء.

حمل الأب طفله الصغير، وذهب به إلى الكنيسة يوم
العيد، تاركاً زوجته هنيئاً طعام الغداء حتى يحضرا. ولما انتهت
أخذت تسأل أولادها:

« ماذا حدث لأبيكم البار وشقيقكم حتى تأخرا إلى تلك الساعة؟
إني ما عهدت تأخيراً يوم العيد قبل الآن. »

فما إن سمع الأولاد كلامها حتى أسرعوا إلى التآفة يستطلعون
الخبر، فإذا أبوه مقبل يتأفف وتضطك أسنانه من شدة البرد؛
إذ كان يرتدى حلة بالية، لينس عليها معطف يدفع عنه قوارس
البرد، وثلوج الأمطار. وقد حمل على كتفه أخاه الصغير،
وفي يده العصا التي يتوكأ عليها. فصاحوا جميعاً في نفس واحد،
والبشرى تلاً على صفحات وجوههم: « ها هو ذا مقبل يا أمه ! »
وأسرعوا نحوه للقاءه.

ولما قُرب ودخل فناء الدَّارِ سَأَلَتِ الزَّوْجُ : « كَيْفَ كَانَ
سُلُوكُكُمْ » تَمَّ « فِي الْكَنِيسَةِ يَا عَزِيزِي ! »

« حَسَنٌ جَدًّا ، عَلَى خَيْرٍ مَا نَرْجُو وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ بَدَأَ يَشْعُرُ بِالْقَلْقِ
وَضِيقِ الصَّدْرِ لِمَكَثِهِ دَاخِلَ الْبَيْتِ كَثِيرًا ؛ فَقَدْ أَخْبَرَنِي وَأَنَا عَائِدَةٌ
بَأَنَّهُ يَرْجُو أَنْ يَتَذَكَّرَ النَّاسُ — الَّذِينَ رَأَوْهُ فِي الْكَنِيسَةِ
كَسِيحًا ، لَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ عَلَى الْأَقْدَامِ — اللَّهُ الْخَالِقَ الَّذِي
جَعَلَهُمْ قَادِرِينَ عَلَى الْمَشْيِ . »

فَقَالَتْ أُمُّهُ بِصَوْتٍ مُرْتَجَفٍ : « كَلَاهُ^(١) اللَّهُ بِعَيْنِ رِعَايَتِهِ ،
وَبَارَكَ فِي قَلْبِهِ الطَّاهِرِ . »

وَقَالَ الْأَبُ : « إِنَّكُمْ تَمَّ » قَدْ تَحَسَّنَتْ صِحَّتُهُ ، وَأَصْبَحَ أَقْوَى
مِمَّا كَانَ . »

أَعَدَّتِ الْأُمُّ مَائِدَةَ الْغَدَاءِ ، فَوَضَعَتْ فِي وَسْطِهَا إِوْرَةً
كَبِيرَةً ، وَأَحْضَرَتْ « بِلْنْدَا » إِحْدَى بَنَاتِهَا الْخُضَرَ ، وَآتَى
« پِيَتْرَ » بِالْبَطَاطِسِ ، وَنَظَّمَ الْأَطْفَالَ الْآخَرُونَ الْكِرَاسِيَّ
حَوْلَ الْمَائِدَةِ ، ثُمَّ جَلَسَ كُلُّهُمْ فِي مَوْضِعِهِ يَطْعَمُونَ^(٢) ، وَتَمَّ «
بِجَانِبِ وَالِدِهِ يَحْوِطُهُ بِحَنَانِهِ وَعِنَايَتِهِ . وَقَدْ بَدَأَ الْبَشْرُ عَلَى

(١) حفظه . (٢) يأكل .

مُحِيًّا^(١) « تَم » وهو يُرَدِّدُ عباراتِ التَّهَانِي : مَرَحَى . مَرَحَى .

جِيءَ بِمَدِّ ذَلِكِ بِالْعَصِيدَةِ وَالْبَخَارِ يُصَاعِدُ مِنْهَا ، فَاتَّهَمُوهَا
حَتَّى آخِرِ لُقْمَةٍ فِيهَا ، ثُمَّ صُفِّ الْبُرْتُقَالِيُّ أُمَامَهُمْ ، فَأَكَلُوا
هَنِيئًا وَشَرَبُوا مَرِيئًا . وَلَمَّا انْتَهَوْا مِنْ تَنَاوُلِ الْغَدَاءِ قَالَ أَبُوهُمْ :
« عِيدٌ سَعِيدٌ يَا أَبْنَاءِي الْأَعْزَاءُ ! أَعَادَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالْيَمَنِ وَالْإِقْبَالِ . »

فَقَالَ « تَم » : « اللَّهُ يُسْعِدُنَا جَمِيعًا . » وَتَنَاوَلُوا أَقْدَاحَ^(٢)
الشَّرَابِ ، فَشَرَبَ كُلُّ مَنْهُمْ نَحْبَ أَخِيهِ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ
نَحْبَ السَّيِّدِ « سَكْرُوجَ » رَبِّ نَعْمَتِهِمْ . وَأَخَذُوا يَتَجَاذَبُونَ أَطْرَافَ
الْحَدِيثِ وَمُلَحَّحَ الْكَلَامِ ، وَيُغْنِي كُلُّ مَنْهُمْ مَا يَعْرِفُ مِنَ الْأَغَانِي .
وَكَانَ « تَم » عَذَبَ الْحَدِيثِ ، رَخِيمَ الصَّوْتِ ، فَعَنَى أَغْنِيَّةً^(٣)
طَرِيفَةً حَوْلَ طِفْلٍ فَقَدَ فِي الثَّلَاجِ يَوْمَ عِيدِ الْمِيلَادِ .

هَكَذَا قَضَى الْكَاتِبُ يَوْمَ الْعِيدِ سَعِيدًا بَيْنَ أَبْنَائِهِ الصِّغَارِ ،
وَزَوْجِهِ الرَّءُومِ ، قَرِيرَ الْعَيْنِ بِرُؤْيَاهُمْ وَالتَّحَدُّثِ إِلَيْهِمْ . فَلَنَتَرَكُهُ
حِينَئِذٍ تَرْفِيفَ عَلَيْهِ الْقِنَاعَةَ ، وَلَنَعُدَّ إِلَى « سَكْرُوجِ » التَّاجِرِ ؛
لِنَعْرِفَ مَا كَانَ مِنْ أَحْلَامِهِ الْمَرْعُوجَةِ لَيْلَةَ عِيدِ الْمِيلَادِ .

(١) وَجْه . (٢) جَمْعُ قَدَحٍ وَهُوَ مَا يَشْرَبُ فِيهِ . (٣) غِنَاء .

رَأَى التَّاجِرُ فِي نَوْمِهِ أَنَّ رُوحَ الْعِيدِ أَرْتَهُ مِنْزِلَ كَاتِبِهِ ،
 فَرَمَقَ^(١) الْأَطْفَالَ جَائِثِينَ^(٢) بِالْقُرْبِ مِنَ النَّارِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ
 الطَّعَامِ ، وَهُمْ يَشْرَبُونَ نَجْبَهُ ، كَمَا سَمِعَ غِنَاءَهُمْ ، لَا سِيَّامَا أَغْنِيَّةُ « تَم »
 الرِّقِيقَةِ الْعَذْبَةِ . وَفِي أَحْلَامِهِ الْمُرْجَةُ تِلْكَ اللَّيْلَةُ قَدْ طَافَتْ رُوحُ
 التَّاجِرِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مُيُوتِ الْفُقَرَاءِ ، فَشَاهَدَتْ أَرْوَاحًا مُتَبَايِنَةً لِمُخْتَلَفِ
 طَبَقَاتِ النَّاسِ . وَتَوَّأَ عَادَتْ بِهِ ثَانِيَةً إِلَى كُوخِ كَاتِبِهِ الْفَقِيرِ « بَوْب » ،
 فَوَجَدَ زَوْجَهُ جَالِسَةً بِجَانِبِ الْمَائِدَةِ ، تَقُومُ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ الْيَدَوِيَّةِ ،
 وَالْدَمُوعُ تُتَخَدِرُ عَلَى وَجْنَتَيْهَا تَنْعَى حَظَّهَا وَقَوْلُ : « إِنَّ كَثْرَةَ الْعَمَلِ
 بِالْإِبْرَةِ أَضَرَّتْ بَعِيْنِي » . وَرَأَى الْأَطْفَالَ جَالِسِينَ وَالْوُجُوهَ^(٣) مُخْتَمِّمَةً
 عَلَى رُءُوسِهِمْ ، وَالْحُزْنَ يُعَلُّو وَجُوهَهُمْ ، وَالذَّلَّةُ وَالْمُسْكِنَةُ تَمْلِكَانِ
 شِعَابَ أَنْفُسِهِمْ . فَجَالَ يَبْصُرُهُ فِيهِمْ لِيَنْظُرَ « تَم » ، فَلَمْ يَعْرِ عَلَيْهِ
 بَيْنَهُمْ ؛ إِذْ ذَهَبَ إِلَى فِرَاشِهِ . ثُمَّ شَاهَدَ كَاتِبَهُ فِي حِجْرَةِ نَوْمِهِ
 وَقَدْ مَالَ بِرَأْسِهِ كَثِيبًا حَزِينًا ، كَاسَفَ الْبَالِ ، يُخْفِي وَجْهَهُ بَيْنَ
 كَفِّهِ ، بِجَانِبِ سَرِيرٍ صَغِيرٍ تَوَسَّدَهُ طِفْلٌ وَدِيعٌ ، يَلْبَسُ مَلَبِيسَ
 بَيْضَاءَ ، تَرْعَاهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ .

(١) نظر إليهم . (٢) جالسين . (٣) شدة الحزن .

أخذ الأبُ يمسك ويَقْطَرَاتُ الدمعَ تَذْرِفُ^(١) من مآقيه ويتفوه:
« طفلى الوداع الصغير! ولدى الهادئ الجميل! قد افتقدتك ضحية
فقري، ولو كنتُ ثرياً^(٢) لعرضتُك على الطيب . » ثم انحنى
على ابنه، وطبع على وجهه بالاسم قُبلةَ الثاكل الحزين، قُبلةَ
الوداع الأخير. وغادرَ الحجرةَ إلى الطبقة السفلى، ليُحضِرَ بعضَ
الأزهار المقدسة التي لا تزالُ في غرفةِ الطعام المتواضعة.

بعد ذلك أمسك بقبَعته وخرج حزينا قد مَلَكَه الأسى، وهو
يرنو^(٣) إلى هراوة صغيرة وُضِعَتْ في أحدِ أركانِ البيتِ كان
ينحنى عليها « تم » الكسيح، وأغلق الباب خلفه.

رأى التاجرُ ذلك كله في مُحامه، وهو يَغْطُ في نومِهِ، بل
شاهداً أكثرَ وأروع؛ من رؤى^(٤) تنفطرُ منها القلوبُ، وتَنصَدِعُ
لها الأفئدة؛ فقد أَرَتْهُ الرُّوحُ في رحلتها كلَّ ما يمكنُ أن يُرى
في بيوتِ المُعْدِمِينَ المُقْلِينَ^(٥) ليلةَ العيد.

وقد خرج التاجرُ من هذه المعركة الدامية شخصاً جديداً،
مختلفاً كلَّ الاختلاف؛ إذ استيقظ وقد تغيَّرتْ حاله،

(١) تسيل (٢) غنيا (٣) ينظر إلى (٤) جمع رؤيا (٥) الفقراء

وتبدلتْ نَظَرُته الأولى في الحياة ، وأضحى رجلاً آخرَ يشعرُ بما لم يشعرْ به من قبل ، ويرى نفسه قد ابتدأتْ عهداً جديداً لم يكن لها بالأمس ؛ فقد أصبحَ لديها شعورٌ كريمٌ ، وإنسانيةٌ عاليةٌ ، وإحساسٌ نبيلٌ . تلك حياةُ التاجر الثانيةُ التي هبطتْ عليه من السماء ، فقال لنفسه : « لماذا أجدني اليومَ نَشيطاً ، كقدِّيسٍ طاهرٍ ، مرحِّحاً كتلميذِ المدرسةِ . أرجو عيداً سعيداً لكلِّ فردٍ ، وعاماً سعيداً لجميعِ العالمِ . »

وبعد برهةٍ ^(١) اشترى ديكا رومياً سميناً ، لم يستطع الخادمُ حمله ، فأرسله في عَجَلَةٍ هديةً لمنزلِ « تيم » الكسيح .

شاطرَ الأبُ أبناءَه جذَهم ^(٢) يومَ العيدِ . ولما أصبحَ صباحَ اليومِ التالى ذهبَ إلى مكتبه متأخراً بضعَ دقائقَ عن مواعده ، فانتابته ^(٣) الهموم ، واستولى عليه الغمُّ ، وخشى بَأْسَ « سكرُوج » وقوارصِ كلمه اللاذعة . ولكن ما إن وطئتْ قدماه أرضَ المكتبِ ، حتَّى وجدَ سيده مُتَمَصِّباً ^(٤) شخصيةً أخرى ، فأصبحَ لطيفاً في معاملته ، رقيقاً في حديثه ، قامَ إليه وقابلهُ بسيل من

(١) مدة من الزمان (٢) فرحهم . (٣) انتابته : أتته مرةً بعد أخرى

(٤) متخذاً له ، منتحلاً

الإحساس الرقيق ، والشعور الخي ، ووَعَدَهُ أَنَّهُ سِيرَفَع رَاتِبَهُ ،
وَسَأَلَهُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ صِحَّةِ « تِم » ، وَلَدِهِ الصَّغِيرِ . ثُمَّ تَرَكَهُ وَهُوَ
يَقُولُ : « لَا تَنْسَ » يَا بُوبُ « أَنْ تُشْعِلَ نَارًا قَوِيَّةً فِي حَجَرَتِكَ
قَبْلَ بَدْءِ الْعَمَلِ ، حَتَّى لَا يَضُرَّكَ الْبَرْدُ . »

حَارَ « بوب » فِي أَمْرِ سَيِّدِهِ ، وَانْقِلَابِهِ الْفُجْأَتِيَّ ، مِنْ رَقَةٍ
بَعْدَ غِلْظَةٍ ، وَلَيْنٍ بَعْدَ شِدَّةٍ ، وَرَحْمَةٍ بَعْدَ قَسْوَةٍ ، وَجُودٍ بَعْدَ
بُخْلِ ؛ فَلَمْ يَعْتَقِدْ مَا شَهِدَتْهُ عَيْنُهُ ، وَسَمِعَتْهُ أُذُنُهُ ، وَلَكِنَّ الْأَيَّامَ
حَقَّقَتْ ذَلِكَ . فَوَفَى الرَّجُلُ بَوَعْدِهِ ، وَعَطَفَ عَلَى كَاتِبِهِ ، وَزَادَ
رَاتِبَهُ . فَانْقَلَبَ حَالُ أُسْرَتِهِ مِنْ بُؤْسٍ وَفَاقَةٍ ، إِلَى عِزٍّ وَسَعَادَةٍ ؛
وَمِنْ فَقْرٍ وَحُزْمَانٍ ، إِلَى نَعِيمٍ وَيَسَارٍ . وَلَمْ يَمُتْ « تِم » كَمَا كَانَ
يُحْلِمُ أَبُوهُ ، بَلْ بَقِيَ يَتِمَّعُ بِالْحَيَاةِ ، نَاعِمًا فِي ظِلِّ وَالِدَيْهِ ، سَعِيدًا
بِجَوَارِ إِخْوَتِهِ — بَعْدَ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى الطَّيِّبِ ، فَفَحَصَ عَنِ الدَّاءِ
وَوَصَفَ الدَّوَاءَ .

عَادَتْ إِلَى الطِّفْلِ قُوَّتُهُ ، فَأُضْحِي قَوِيَّ الْبُنْيَةِ ، مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ ،
يَرْتَعُ فِي مُجْبُوحةِ الْعَيْشِ الرَّغْدِ ^(١) ، وَيَتَفَيَّأُ ظِلَالِ الْحَيَاةِ الْمُسْنِيَةِ ،

(١) الواسع الطيب .

تَخَفُّقُ عَلَى أُسْرَتِهِ السَّعِيدَةِ أَجْنَحَةُ الْحُرِّيَةِ الْمُطْلَقَةِ بَعْدَ أَنْ طَوَّقَهَا
الذِّلُّ بِقَيُودِهِ وَأَغْلَالَهُ رَدَحًا^(١) مِنَ الزَّمَنِ . وَلَقَدْ تَغَيَّرَتْ حَيَاةُ هَذِهِ
الْأُسْرَةِ فِي كَنَفِ الرَّجُلِ الْجَدِيدِ ؛ رَجُلٍ الْمُرُوءَةِ وَالْإِحْسَانِ
السَّيِّدِ « سَكْرُوجَ » الَّذِي أَحَبَّ « تِمَّ » حُبًّا جَمًّا ، وَتَبَنَّاهُ فَبَادَلَهُ
رِسَالَةَ الْأَبُوَّةِ الْحَقَّةِ .

وَهَكَذَا تَغَيَّرَتْ طَبِيعَةُ السَّيِّدِ « سَكْرُوجَ » فَأَصْبَحَ إِنْسَانًا
كَرِيمًا ، يُحِبُّ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ ، وَيَعْطِفُ عَلَى الْبَائِسِينَ
وَالْمُعْزِزِينَ^(٢) ، مُنْذُ ذَلِكَ الْحَلَمِ الْمُرْعِجِ لَيْلَةَ الْعِيدِ .

(١) رَدَحًا : طَوِيلًا مِنَ الزَّمَنِ .

(٢) الْفُقَرَاءُ .

الْقِصَّةُ الثَّامِنَةُ

مخاطرة « پيب »

أو

لا يَضِيعُ جَمِيلٌ أَيْنَمَا وُضِعَ

نودى « فِيلِبُّ پِرَبْ » باسم « پيب » ، واشتهرَ بين أترابه ^(١) بهذا الاسم . ولم يكن يعرف من أمر أبيه وأمه وإخوته الصغار سوى أسمائهم التي رآها منقوشة على لوحات المقابر في مدفن الكنيسة . وقد عاش في كنف أخته الكبرى ، تحوطه برعايتها ، وتُعنى بشئونه مع زوج طيب القلب ، رقيق العاطفة ، نبيل الإحساس . وكان قيناً ^(٢) يدعى « جُوجِرْ جَرِي » في قرية تبعد عن البحر عشرين ميلاً . وعلى الرغم من حسن خلقه ، ولين طباعه كانت زوجته غليظة القلب ، جافية الطبع ، تُسيء معاملته ، وتقسو على أخيها .

وفي أصيل ^(٣) يوم اشتدَّ برده خرج « پيب » — ولم يتجاوز

(١) الترب بالكسر : اللدة ، ومن وُلد معك (٢) حدّادا .

(٣) الأصيل : الوقت بعد العصر إلى المغرب

السابعة من عمره — لزِيَارَةِ قَبْرِ والدَيْهِ وإِخْوَتِهِ ، وأَخَذَ يُحَاوِلُ
تَعْرِفَ تِلْكَ النُقُوشَ المَحْفُورَةَ عَلَى رُمُوسٍ ^(١) أُسْرَتِهِ ، وَسِرْعَانَ
مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ يَمْحُو آيَةَ النَّهَارِ ، فَشَعَرَ بِالْوَحْدَةِ ،
وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْفَزَعُ مِنْ رَهْبَةِ الْمَكَانِ ، فَبَكَى وَعَلَا صَوْتُهُ
بِالنَّحِيبِ ^(٢) ، فَتَصَدَّى لَهُ رَجُلٌ — لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْعَيْنُ قَبْلُ مِنْ بَيْنِ
الْأَجْدَاثِ ^(٣) — بَشِعُ الْمَنْظَرِ ، مُصَفَّدٌ ^(٤) بِالْأَغْلَالِ ، يَرْتَدِي لِبَاسَ
السُّجْنَاءِ . وَقَدْ لَاحَتْ عَلَيْهِ أَمَارَاتُ الشَّقَاءِ ، وَعَلَامَاتُ الْبُؤْسِ
وَالْهُوَانِ ، تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهُ ^(٥) مِنْ شِدَّةِ الزَّمْهِرِيرِ ، وَتَصْطُكُ أُسْنَانُهُ
مِنْ قَسْوَةِ الْقَرِّ ، وَقَالَ لَهُ بِصَوْتٍ مُخِيفٍ : « قِفْ مَكَانَكَ أَيُّهَا
الْغَلَامُ الصَّغِيرُ ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ ، وَإِلَّا . . . » ثُمَّ خَطَا نَحْوَهُ
وَالشَّرْرُ يُطَايِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَمِنْ رَجْلِ الْغَضَبِ يَفْعَلِي فِي صَدْرِهِ ،
وَزَارَ بِصَوْتٍ مُخِيفٍ كَأَنَّهُ الرَّعْدُ حِينَمَا وَضَعَ أَصَابِعَهُ فِي عُنْقِهِ ،
فَصَاحَ « يَيْب » خَائِفًا وَجِلًّا : « يَا سَيِّدِي ! »
فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ : « أَخْبِرْنِي مَا اسْمُكَ ؟ أَسِرْعُ ! » فَأَجَابَهُ الصَّبِيُّ :

(١) الرُّمُوسُ : تَرَابُ الْقَبْرِ (٢) النَّحِيبُ : رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْبَكَاءِ

(٣) الْجَدَاثُ : الْقَبْرِ (٤) مُقِيدٌ وَمَوْثِقٌ بِالْفَيْوُودِ (٥) الْفَرِيسَةُ لِحْمَةٌ بَيْنَ

الْجَنْبِ وَالْكَتِفِ لَا تَرَالُ تُرْعَدُ مِنَ الدَّابَّةِ

اسمى « پيب » . « فلم يتبين الرجلُ ما قاله الصبيُّ ، وخلق^(١) في وجهه قائلاً : « ارفع صوتك ! » فرفع صوته والروع يملأ فؤاده . فقال الرجلُ : « أين تسكنُ ؟ وفي أى مكانٍ تعيشُ ؟ » فأشار « پيب » إلى قريةٍ تبعدُ ميلاً أو أكثرَ عن الكنيسةِ .

صوب^(٢) الرجلُ نظره نحوَ القريةِ بُرْهةً^(٣) ولم يلبث أن توجهَ إليه ، وأخذ يفتشُ جيوبه ، فلم يجد فيها سوى قطعة من الخبز التقمها بهم^(٤) وشره ، وأخذ يُتمتمُ بعباراتٍ شعر الصبيُّ منها أن لا مناصَ من قتله ، فتضرع^(٥) إليه أن يرحمه ويتركه إلى حيث شاء ، فتوقف الرجلُ وسأله : أين أمك ؟

فأجاب « پيب » : « أمي توفيتُ وجُثمانها في هذه المقبرة . » وأشار إليها . ففكر الشقي في الهرب وفي تركه . ثم وقف ونظر حوله وسأله : « أهذا أبوك المدفونُ بجانب أمك ؟ »

فقال پيب : « نعم يا سيدي ! » فطأ الرجلُ رأسه ، وقال مُتعبجاً : « مع من تعيشُ حينئذٍ إذا خليتُ سبيلك وتركتك لتعيش ؟ »

(١) خلق : فتح عينه ونظر نظراً شديداً (٢) اتجه بنظره (٣) مدة من الزمان (٤) النهم : إفراط الشهوة في الطعام (٥) ابتل

بيب: « أَعِيشْ مَعَ أُخْتِي قَرِينَةَ الْحَدَّادِ . » فَارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ دَهْشَةٌ ، وَنَظَرَ إِلَى رَجُلَيْهِ الْمُسْكَبَتَيْنِ ^(١) بِالْأَصْفَادِ ^(٢) ، ثُمَّ قَبِضَ عَلَى الطِّفْلِ وَهُوَ يَتَرَجَّعُ إِلَى الْوَرَاءِ فَرَقًا ^(٣) . يَحَاوِلُ أَنْ يَفِرَّ مِنْهُ ، وَحَمَلُ ^(٤) فِيهِ قَائِلًا : « الْآنَ مَا زِلْتُ أَفَكِّرُ ؛ هَلْ أَدْعُكَ حَيًّا أَمْ لَا ؟ أَتَعْرِفُ الْمِبْرَدَ ؟ . »

بيب : « نعم »

الرجل : « وهل تعرف الطعام ؟ »

بيب : « نعم »

الرجل : « يجبُ أَنْ تُحْضِرَ لِي مِبْرَدًا وَطَعَامًا . »

دَارَ هَذَا الْحَدِيثُ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَى (بيب) الْمُسْكِينِ حَتَّى كَادَ يُغْمَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « إِيَّاكَ وَالتَّهَاوُونَ فِيمَا طَلَبْتُ . غَدًا فِي الصَّبَاحِ الْمُبَكَّرِ أُرَاكَ حَامِلًا مَا أُرَدْتُ . وَإِيَّاكَ أَنْ تُخْبِرَ أَحَدًا بِشَأْنِي أَوْ تُعَلِّمَهُ مَكَانِي . سَوْفَ أَتْرُكُكَ حَيًّا إِذَا نَفَذْتَ رَغْبَتِي . » فَوَعَدَهُ « بيب » بِشَرْفِهِ أَنْ يُجِيبَ رَغْبَتَهُ ، وَيَكْتُمَ سِرَّهُ . حِينَئِذٍ خَلَّى الرَّجُلُ سَبِيلَهُ قَائِلًا : « تَذَكَّرْ مَا دَعَوْتُكَ إِلَيْهِ ، وَلَا تَنْسَ مَا تَعَاهَدْتَ بِهِ . إِذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ آمِنًا تَصْحَبُكَ الْعَنَاءَةُ الْإِلَهِيَّةُ . »

(١) القيدتين (٢) القيود ، مفردهما صَفَدٌ (٣) خوفًا (٤) فتح عينيه ونظر نظرًا شديدًا .

خِيَّاهُ «يَيْب» تَحِيَّةُ الْمَسَاءِ، وَأَسْرَعَ فِي عَدْوِهِ ^(١) خَافَةً أَنْ يُغَيَّرَ رَأْيُهُ فَيُلْحَقَهُ وَيُوقِعَ بِهِ الْأَذَى . وَلَكِنَّ الرَّجُلَ قَالَ : « يَكْفِي ذَلِكَ . »
وَقَدْ سَرَّحَ طَرْفَهُ ^(٢) فِي الْفَضَاءِ حِينَ اشْتَدَّ الْبُرْدُ ، وَتَرَكَ الصَّقِيعَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَتَمَنَّى لَوْ كَانَ ضِفْدَعَةً تَحْتَمِي بِالْأَعْشَابِ ، أَوْ جُرْذًا ^(٣) يَأْوِي إِلَى الْأَجْحَارِ .

وَصَلَ « يَيْب » إِلَى الْمَنْزِلِ عَلَى عَجَلٍ ، وَصَعِدَ فِي السَّلَمِ إِلَى حُجْرَتِهِ ، فَوَجَدَ صِهْرَهُ جَالِسًا يَنْتَظِرُهُ ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنْ أَخْتَهُ قَدْ خَرَجَتْ بَاحِثَةً عَنْهُ وَالْعَصَا فِي يَدِهَا ؛ لَتُعَاقِبَهُ جَزَاءَ تَأَخُّرِهِ إِلَى غَسَقِ ^(٤) اللَّيْلِ . فَوَقَعَ هَذَا النَّبَأُ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعَ الْأَلَمِ ، وَوَقَفَ فِي جَانِبٍ مِنَ الْغُرْفَةِ مَشْدُوهاً ^(٥) ، حَتَّى أَتَتْ تُصَعَّدُ زَفَرَاتِ الْغَضَبِ ، وَمَا إِنْ وَقَعَ نَظَرُهَا عَلَيْهِ حَتَّى أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ بِالْعَصَا تُذِيْقُهُ مَرَارَتَهَا .

أَعَدَّتِ الزَّوْجَةَ (الشَّايَ) ، وَدَعَتْ زَوْجَهَا وَأَخَاها لِشُرْبِهِ ، ثُمَّ تَنَاوَلَتْ قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنْ الْخُبْزِ وَالزُّبْدِ قَسَمَتْهَا بَيْنَهُمَا ، فَاتَهَنَزَ « يَيْب » الْفُرْصَةَ وَأَخْفَى نَصِيْبَهُ لِيَقْدِمَهُ لِلصَّ وَفَاءً بِوَعْدِهِ ، وَبَرًّا بَعَهْدِهِ . ظَنَّ الزَّوْجُ أَنَّهُ قَدْ التَّقَمَّ الْخُبْزَ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، فَأَسْدَى إِلَيْهِ

(١) جَرِيه (٢) عَيْنَه (٣) الْجُرْدُ : ضَرْبٌ مِنَ الْفَأْرِ ، وَالْجَمْعُ جِرْدَانٌ
(٤) أَوَّلُ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ . (٥) حَاطًا مَدْهُوشًا .

النُّصَحَ قَائِلًا : « صَغُرَ اللَّقْمَةُ يَا « پَيْب » ، وَلَا تُسْرِعْ فِي الْأَكْلِ ،
وَامْضُغِ الطَّعَامَ جَيِّدًا ، وَإِلَّا وَقَعْتَ فِي الضَّرَرِ ، وَلَعِبْتَ مَعِدَتُكَ .
أَنْتِ تَعْلَمُ مَغْبَةً ^(١) الْإِسْرَاعَ فِي الْأَكْلِ وَعَدِمَ الْمَضْغَ جَيِّدًا ، كَمَا
تَعْرِفُ مَقْدَارَ حُبِّي وَإِخْلَاصِي لَكَ . لَقَدْ مَحَضْتُكَ ^(٢) النَّصِيحَةَ . »

فصاحت أختُه « هل كان يبتلعُ طعامَه ؟ »

فقال (چو) : « حينما كنتُ صغيرًا كنتُ أَزْدَرِدُ ^(٣) الطَّعَامَ
مِثْلَكَ أَزْدِرَادًا ، وَإِنَّكَ لَا تَزَالُ أَقَلَّ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَطْفَالِ فِي
التَّقَامِ الطَّعَامِ . »

فقامتِ الزَّوْجُوهُ وهى تكاد تميزُ ^(٤) مِنَ الْغَيْظِ ، وَنَفْسُهَا تَغْلِي
غَضَبًا ، وَقَبِضَتْ عَلَى أَخِيهَا ، وَجَذَبَتْهُ مِنْ شَعْرِهِ ، وَانْهَالَتْ عَلَيْهِ
تَعْنِيفًا وَتَوْبِيخًا . كَانَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ — وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي هُمْ فِيهَا
« پَيْب » بِالْوَفَاءِ بوعده — فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُحَرِّكَ حُلَاوَى الْعِيدِ بَيْنَ
السَّاعَةِ السَّابِعَةِ وَالثَّامِنَةِ ، وَلَكِنَّهُ وَجَدَ أَنَّ قِطْعَةَ الْخُبْزِ تَحُولُ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْمِضْيِ فِي سَبِيلِهِ ، فَخَرَجَ خُلْسَةً ، وَذَهَبَ إِلَى حِجْرَةِ نَوْمِهِ
نَجْبًا الْقِطْعَةَ فِيهَا .

(١) عاقبة (٢) صدقتك (٣) أبتلع (٤) تنقطع

جاء ميعاد النوم فذهب « پيب » إلى فراشه ، علّ طيف
السكرى^(١) يمر بأجفانه ، ولكن أنى له ذلك وهو مُبلبلُ الخاطر ،
مُشتّتُ الفكر ، كثيرُ الهواجس ، شاردُ اللبِّ مما عساه أن يكونَ
من أمرِ نزيلِ المقبرةِ المسكَّبلِ بالحديد . وما زال كذلك حتى طلعَ
الفجرُ ، فانسَلَّ من فراشه ، وغادره بهدوءٍ ورفقٍ وهو يتخيّل أن
كلَّ شيءٍ بالمنزلِ يُحدِّقُ^(٢) إليه بالنظرِ ويقول : « أوقفوا هذا
اللصَّ . استيقظي يا (مِسز چو) لترى ما يفعله أخوك . » وقبل
أن يرتدَّ طرفه أخذ « پيب » قطعةً كبيرةً من الخبزِ ، وأخرى
من الجبنِ ، وثالثةً من اللحمِ ، وبعضاً من فطيرٍ مخشوّ باللحمِ ممّا
جهّزته أخته لضيوفها ، وغير ذلك ممّا لذّ طعمه ، وطابَ مذاقه من
طعامٍ شهيّ ، وشرابٍ لذيذٍ . ثم أتى بالمبردِ ، وحملَ السُّكَّلَ ، وسارَ
في طريقه إلى حيثُ ينتظرُ ذلك السَّجينُ الهاربُ .

خرج « پيب » في الصباح الباكر ، حيثُ البردُ قارسٌ ،
والطريقُ وعرةٌ ، والجوُّ ملبدٌّ بالضبابِ الكثيفِ ، وخيالُ الرجلِ
لا يبرحُ فؤاده ؛ فقد ظنَّ أن كلَّ الحيواناتِ التي مرَّ بها تنظرُ إليه ،
وكانَ لسانُ حالها يقولُ : « أين تذهبُ أيها اللصُّ الصغيرُ ؟ »

(١) النعاس (٢) يشدد النظر إليه .

سَارَ حَتَّى اعْتَرَضَهُ ثَوْرٌ أَسْوَدُ اللَّوْنِ، مُخَطَّطُ الْإِهَابِ^(١)، تَمَّ نَظَرَاتُهُ
عَنْ رِيَّةٍ فِي أَمْرِ الصَّبِيِّ. فَارْتَاعَ « پَيَب » وَمَلَأَ الْخَوْفُ قَلْبَهُ ،
فَتَقَدَّمَ إِلَى الثَّوْرِ قَائِلًا: « إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ خَارِجٌ عَنْ إِرَادَتِي ، وَلَمْ آخِذُ
ذَلِكَ لِنَفْسِي . » فَأَخْنَى الثَّوْرُ رَأْسَهُ ، وَزَفَرَ مِنْ أَنْفِهِ سَحَابًا كَالدُّخَانِ ،
ثُمَّ اخْتَفَى وَهُوَ يُحَرِّكُ ذَنْبَهُ .

وَصَلَ « پَيَب » إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَوَجَدَ الرَّجُلَ يَنْتَظِرُهُ عَلَى أَحَرٍّ
مِنَ الْجَمْرِ ، وَالْجُوعُ كَادَ يَذِيقُهُ الْمَوْتَ ؛ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ الطَّعَامَ ،
وَمَا لَبِثَ أَنْ تَنَاوَلَهُ بِشَرِّهِ وَنَهَمَ اسْتَرْعَى نَظَرَ « پَيَب » فَقَالَ :
« إِنِّي مُسْرُورٌ لِأَنَّكَ بِشَهِيَّةٍ » .

الرَّجُلُ : « شُكْرًا لَكَ يَا بَنِي ؛ فَقَدْ أَدْرَكْتَنِي بَعْدَ يَأْسٍ ،
وَأَنْقَذْتَنِي مِنَ الْمَوْتِ . »

وَلَمَّا فَرَغَ الرَّجُلُ مِنْ طَعَامِهِ ، تَنَاوَلَ الْمِبْرَدَ ، وَأَخَذَ يَبْرُدُ أَغْلَالَهُ^(٢) ،
وَلَكِنْ « پَيَب » خَشِيَ التَّأَخُّرَ فِي الْعُودَةِ ، فَأَسْلَمَ سَاقِيَهُ لِلرَّيْحِ ،
وَعَادَ أَسْرَعَ مِنَ الْبَرْقِ الْخَاطِفِ .

أَخَذَ « پَيَب » يُفَكِّرُ فِيمَا أَلَمَّ بِهِ مِنْذُ الصَّبَاحِ ، تَقَرَّعُ أذُنَيْهِ فِي

(١) الجلد ما لم يدبغ (٢) قيوده .

كل لحظة أسئلةُ أخته عن الفطير الذي أخذَه ، ولكنها كانت في شغلٍ عنه بإعدادِ مائدةِ الغداءِ لبعضِ الزائرين ؛ فقد هيأت لهم من اللحمِ المملحِ ، وبعضِ الخضرِ ، والدجاجِ السمينِ والعصيدةِ ^(١) اللذيذة — طعاماً شهياً .

تناولَ الزائرون طعامهم والفرحَ يعمُرهم ، وأمّاراتُ البشرِ تعلو وجوهمهم . وقُبيلَ نهايةِ الطعامِ شعرَ « ييب » بأنه قد حانَ وقتُ افتضاحِ أمرِهِ ؛ فقد قالت أخته في رقّةٍ ورشاقةٍ لضيوفها : « سأخضر لكم هديةً لذيذةً جميلةً هي فطيرةٌ محشوَّةٌ باللحم . » فلم ينتظرَ ليسمعَ من أخته أكثرَ من ذلك ؛ بل غادرَ المائدةَ خفيةً إلى البابِ ، فقابلته جماعةٌ من الشرطِ ، خرجت للبحثِ عن مجرمين من الأشقياء ؛ فرأت تحتَ جُنحِ الليلِ من عنتِ ^(٢) السجنِ وقسوةِ الحياةِ فيه ، وانقطاعِ السجينِ عن العالمِ . وقد أمسكَ أحدهمَ بيده زوجاً من الأغلالِ الحديديةِ أفسدَهما هذان الشقيان . وبينما كانت المضيفةُ ذاهبةً لتخضرَ هديّتها الجميلةَ ، سمعتَ جلبةً وضوضاءً أنستها ما ذهبت إليه ، فالتجّمت شطراً ^(٣)

(١) سميت بذلك لأنها تعصد أي تقلب وتلوى

(٢) إمّ ، عذاب (٣) نحو الباب .

الباب ، فإذا الشرطُ واقفون مع « ييب » ، فأسرعت نحوهم
وسألتهم : « ما خطبكم ^(١) ؟ » فأجابها أحدُهم : « إننا نريدُ « چو »
لإصلاح القيدَين . » فعادت إلى ضيوفها ذاهلةً حَيْرَى ^(٢) ،
لم تُحضرَ لهم ما وعدتهم به .

خرج « چو » إلى الشرط ^(٣) ، فأصلح القيدَين ، وذهب في
صحبتهُم مع أحدِ ضيوفه للبحثِ عن هذين المجرمين ، وقد حملَ
معه « ييب » على ظهره .

همس « ييب » في أذنِ « چو » : « إني آملُ يا « چو » ألاَّ نَجدهما . »
فأجاب : « إني سأمنحك (شِلنًا) مكافأةً إذا كانا قد قطعَا
أغلالهما وفرّا . »

ولكن سرعانَ ما قبضَ عليهما الشرطُ ، وكان أحدهما ذلك
الشقي التعس الذي عرفه « ييب » . فلم يكذب يقع نظره عليه ،
حتى هزَّ الطفلُ رأسه محاولاً أن يفهمه أنه لم يقل شيئاً ، ولم يَبْح ^(٤)
إليهم بسرّه ، ولكنَّ المجرمَ أخبرَ الشرطى بأنه يريدُ الإقرارَ بشيءٍ
قبلَ أن يقتادوه إلى السِّجْنِ ليمنعَ الشبهةَ عن غيره ، فقال :

(١) ما أمركم ؟ (٢) حائرة (٣) الشرطُ جمع ، مفردة شُرطة وشُرطى
(٤) باح بسرّه : أظهره ، وبابه قال .

« إِنِّي فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ قَدْ سَطَوْتُ عَلَى مَنْزِلِ الْخَدَّادِ ،
فَسَرَقْتُ مِنْهُ بَعْضَ الطَّعَامِ . » وَيَبْنِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي ادَّعَى أَنَّهُ سَرَقَهَا .
وَالْحَقُّ أَنَّ الْغَلَامَ أَحْضَرَهَا لَهُ .

فَسَأَلَ الشَّرْطِيُّ : « هَلْ فَقَدْتَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ أَيُّهَا الْخَدَّادُ ؟ »
قَالَ : « نَعَمْ ، إِنْ زَوَّجْتَنِي فَقَدْتُ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ كَانَتْ تَبْحُثُ عَنِ
الْفَطِيرَةِ قَبْلَ مَجِيئِكَ فَلَمْ تَجِدْهَا . أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا « پَيَب » . »
فَقَالَ الْمَجْرُمُ وَقَدْ نَظَرَ إِلَى « چو » : « إِذَا أَنْتَ الْخَدَّادُ . أَنَا
أَسِيفٌ لِأَنِّي أَقُولُ : إِنِّي قَدْ اضْطُرَرْتُ إِلَى أَكْلِ فَطِيرَتِكَ . »
فَقَالَ (چو) : « اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مُسْرُورٌ بِأَكْلِكَ إِيَّاهَا ، وَمَا كُنْتُ
أَوَدُّ أَنْ تَمُوتَ جَوْعًا مِنْ أَجْلِ فَطِيرَةٍ أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُسْكِينُ الْبَائِسُ .
ثُمَّ اقْتَادَ الشَّرْطِيُّ السَّجِينَ ، وَأَعَادُوهُ إِلَى سِجْنِهِ ، وَحَمَلَ « چو »
« پَيَب » ، وَرَجَعَ إِلَى الْمَنْزِلِ .

تَوَالَّت السَّنُونَ ، وَتَتَابَعَتِ الْأَعْوَامُ ، وَحَيَاةُ « پَيَب » مُفْعَمَةٌ^(١)
بِالْحَوَادِثِ ، مَمْلُوءَةٌ بِالْخَاطِرِ لَوْلَا أَنَّ الْعَنَايَةَ الْإِلَهِيَّةَ كَفَلَتْهُ حَتَّى صَارَ
شَابًّا يَافِعًا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ صَدِيقٌ مُجْهُولٌ — وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي مِيعَةِ
الصَّبَا^(٢) — تَقُودًا لِيُنْفِقَهَا فِي تَعْلِيمِهِ ؛ كَيْ يَكُونَ رَجُلًا مُتَقَفًا .

استمرت النقود تردُّ إليه دون أن يَعْرِفَ لها مصدراً، أو يتبين لها مورداً. فعمرتُه الدهشةُ ومن معه، وحسبَ أول الأمر أنها آتية من قِبَلِ سَيِّدَةٍ عجوزٍ صديقةٍ، ولكن اتَّضحَ خطأُ زعمه عند ما جاوزَ العشرين عاماً من عمره؛ فقد انجلت الحقيقة، وانكشف السِّرُّ، فعرفَ أَنَّهُ ذلك الرجلُ المسكينُ الذي أنزلَ الرُّعبَ^(١) بين حَنَائِيَا فَوَادِهِ في تلك اللَّيْلَةِ القارسِ برْدُهَا، الحالكِ سوادُهَا، ليلة عيد الميلادِ.

قال «بيب»: «ذاتَ ليلةٍ شرَّعتُ في تركِ كتابي على المكتبِ، وكانت الساعةُ الحادية عشرة مساءً. فسمِعتُ فجأةً وقعَ أقدامٍ على درجاتِ السلمِ، فرَّ بخاطري أنها لأختي. ولا أدري كيف خطرَ ذلك بيالي. ثم أرهفتُ^(٢) أذني، فإذا الخطواتُ تتعثرُ. تذكَّرتُ أن نورَ السلمِ مُطْفَأٌ، فأخذتُ مصباحَ المطالعةِ، وخرجتُ اضِيءً للصَّاعدِ وسطَ هذا الهدوءِ الشاملِ، وهذه الطَّبيعةِ الصامتةِ. وسرعانَ ما توقَّفتُ عن الصُّعودِ فسألتُ:

«أهناك رجلٌ على السلمِ؟»

فأجابَ صوتٌ في الظَّلامِ: «نعم»

(١) الفزع، الخوف (٢) أصغيت كل الإصغاء

يُيب : « آيَة طَبَقَة تَرِيد ؟ »

الرجلُ : « الطَّبَقَة العَلِيَا أَيُّهَا السَّيِّدُ النَّابِه (يُيب) .

يُيب : « هَذَا اسْمِي . أَحَدَثَ شَيْءٌ ؟ »

الرجلُ : « كَلَّا ! لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ . »

« ابْتَدَأَ الرَّجُلُ يُتِمُّ صَعُودَهُ ، وَأَنَا فِي انْتِظَارِهِ بِمَصْبَاحِي الضَّئِيلِ
الَّذِي لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْقِرَاءَةِ . فَشَاهَدْتُ عَنْ كَشَبٍ ^(١) رَجُلًا غَرِيبًا ،
يَبْدُو عَلَيْهِ التَّأَثُّرُ لِرُؤْيَايَ ، وَالسَّرُورُ بِلِقَائِي .

تَحَرَّكَتُ نَحْوَهُ ، وَتَحَرَّكَ نَحْوِي ؛ فَإِذَا هُوَ يَرْتَدِي اللَّبَاسَ
الضَّرَرِيَّ ؛ كَأَنَّهُ قَادِمٌ مِنْ رَحَلَةٍ بَحْرِيَّةٍ . وَشَعْرُهُ طَوِيلٌ أَشْهَبُ ،
أَسْمَرُ اللَّوْنِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ . يُنَاهِزُ ^(٢) عَمْرُهُ السَّتِينَ ،
تَلُوحُ عَلَيْهِ سِيمَا ^(٣) الرُّجُولَةِ ، وَدَلَائِلُ الْقُوَّةِ . ارْتَقَى السَّلَمَ ، وَمَدَّ يَدَهُ
يَصَافِحُنِي بِشَغَفٍ زَائِدٍ ، وَتَلَهَّفُ كَثِيرٌ . فَعَجِبْتُ لِأَمْرِهِ ، وَاسْتَوَلَى
عَلَى الدَّهْشِ ^(٤) مَعَ شَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْقَلَقِ . سَأَلْتُهُ : « مَاذَا
تَرِيدُ يَا سَيِّدِي ؟ »

فَأَجَابَ بَعْدَ تَفْكِيرٍ وَرَوِيَّةٍ : « سَوْفَ أَخْبَرُكَ يَا بُنَيَّ بَعْدَ . »
يُيب : « أَتَرِيدُ أَنْ تَمَكَّثَ مَعَنَا اللَّيْلَةَ ؟ »

(١) قُتْرَب (٢) يَقَارِبُ ، يَدَانِي (٣) عَلَامَةُ (٤) التَّحِيرُ

الرجل : « نعم . »

كان في سؤاله شيء يدل على النفور والفرع ؛ فقد استأثرت من شدة تعلقه بي وأنا لا أعرفه . ولكنني قد أتته إلى حجرتي ، ووضعت المصباح على المكتب ، وطلبت منه أن يشرح لي حاله .

أخذ يُجيب^(١) الطرف قليلاً حوله وهو متعجب ، فتملكتُه حيرة خالطها السرور . ولم أكن أقل منه استغراباً . ثم خلع معطفه وقبعته ، فبدأ أصلع الرأس ، مُسترسِل الشعر من الجوانب . ولم يلبّ طلبتي ، بل شرع يمدُّ يديه إليّ ، فصيحّت مدعوراً — وقد ظننت أنه مخبول : « ماذا تقصد ؟ »

فأشار الرجل بالصمت ، ومسح رأسه بيده اليمنى ، وتكلم بصوت مُتهدِّج^(٢) يغلب عليه التأثر : « إن من الخطأ أن تُحدث إنساناً قطع مرحلة طويلة في سفر شاقّ بتلك اللهجة التي تدل على سرعة في الحكم ، وبعد عن الأناة والتريث . ولكن لا لوم عليك ولا عليّ . فاصبر يا بُنَيّ . سأخبرك بعد ثوانٍ معدودة عما تريد . »

جلس الرجل على كرسيّ وُضع أمام الموقد ، وغطّى جبهته يديه السمراوين . فنظرت إليه نظرة المتعرِّف له ، ولكن لم أستطع معرفته . ثم قال وهو يدير البصر يمنة ويسرة :

(١) يُدير (٢) متهدج : متقطع في ارتعاش .

« لا أحد قريبٌ منا . أليس كذلك ؟ »

فقلت : « لم أتيتَ أيُّها الغريبُ إلىَّ في ذلك الوقتِ المتأخِّر من الليلِ ؟ فأومأَ إلىَّ بنظرةٍ حبٍّ وحنانٍ ، وقال :

« إني مسرورٌ بلقائك ورؤيتك شاباً مثقفاً . لا تتسرَّع في الاستيلاء مِنِّي والحكم عليَّ ، وإلاَّ أسِفْتَ كثيراً فيما بعدُ على ما حدَّثَ منك . »

فازدادَ عندي الأمرُ غموضاً ، وتعمَّدت في ذهني مُشكلةُ ذلك الرجلِ الغريب . وأخيراً لجأتُ إلى الماضي البعيدِ أستوحيه ما غابَ عني ، وأستنبئه عِلْمَ ما لم أعلم . وتصفَّحتُ سِجِلَ طُفولتي ؛ علِّي أجدُ فيه ما يكونُ عوناً لي على تعرُّفه . ثم رَدَدْتُ طرْفِي إليه ، فعرفتُ فيه صورةَ الرَّجلِ المسكينِ الذي وقفتُ أمامه وجهاً لوجهٍ عند مدفنِ الكنيسةِ منذ سنواتٍ كثيرةٍ . ولكنَّ تَواردَ الأيامِ وتعاقبَ الحوادثِ غَيَّرَتْ سِجَنَتَهُ ، فلم أَتَثَبْتُ من حَقِيقَتِهِ .

ترك الرجلُ مَجْلِسَهُ ، وأخذ يَذْرَعُ^(١) أرضَ الحِجْرةِ ذهاباً وجيئةً ، وهو ينظرُ إلىَّ ، وقد أخرجَ من جيبِهِ مِبْرَدًا لِيُرِيَنِي إِيَّاهُ . ثم أخذَ مَنديلاً وضعَهُ على رَقَبَتِهِ ، ولفَّهُ حَوْلَ رَأْسِهِ ، فلم أَلْبَثْ أَنْ تَيَقَّنْتُهُ ، وتحققتُ صورتهُ .

(١) يقيس ، يسير .

أَقْبَلَ الرَّجُلُ إِلَىَّ وَقَدْ قَتُّنَا مِنْ مَكَانِي ، وَتَنَاوَلَ يَدَيَّ بِلَهْفَةٍ
وَشَوْقٍ ، وَرَفَعَهُمَا إِلَى شَفَتَيْهِ ، وَقَبَّلَهُمَا ، ثُمَّ قَالَ :

« لَقَدْ أَسَدَيْتَ ^(١) إِلَىَّ مِنَ الْجَمِيلِ وَأَنْتَ طِفْلٌ مَا يُسَدِيهِ النَّبْلَاءُ .
إِنَّكَ نَبِيلٌ . يَا « يَيْب » . فَلَا زِلْتُ أَذْكُرُ مَا قَدَّمْتَهُ إِلَيَّ يَوْمَ
الْعِيدِ عِنْدَ الْمَقْبَرَةِ ، وَسَأَذْكُرُهُ مَا حَيَّيْتُ . »

ثُمَّ أَخْبَرَنِي بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ النُّقُودَ لِأَتَعَلَّمَ فَأَصْبَحَ رَجُلًا
مُهَذَّبًا ، أَدِيبًا مُتَّقِفًا ؛ فَقَدْ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا وَمَوْثِقًا مِنْذُ أَنْ
التَّقَى بِي عِنْدَ الْمَقْبَرَةِ أَنْ يَتَوَلَّى تَرْيِيتِي ، وَالْقِيَامَ بِشُؤْنِي إِذَا قُدِّرَ
لَهُ الْخُرُوجُ مِنَ السَّجْنِ . فَلَمَّا تَحَقَّقَتْ أَمْنِيَّتُهُ ، سَافَرَ إِلَى (أُسْتْرَالِيَا) .
وَهُنَاكَ صَادَفَهُ حَسَنُ الْحِطِّ فَكَانَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ . وَاسْتَمَرَّ يُحَدِّثُنِي :

« لَقَدْ تَبَنَيْتُكَ يَا « يَيْب » ؛ فَأَنَا أَبُوكَ الثَّانِي ، بَلْ أَنْتَ أَجْدَرُ
بِالْبُنُوَّةِ مِنْ أَيْ ابْنِ آخَرَ . وَقَدْ ادَّخَرْتُ لَكَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ ،
وَحَفِظْتُكَ لَكَ حِينَمَا كُنْتُ أَسْكُنُ فِي كُوخٍ صَغِيرٍ مَنَعَزِلٍ عَنِ الْعَالَمِ ،
وَأَقُومُ بِرِعْيِ الْغَنَمِ . وَقَدْ نَسِيتُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى وَجُوهَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَجْهَكَ الْبَاسِمَ ، وَشَخْصَكَ الْوَادِعَ الَّذِي مَلَأَ الْمَكَانَ
أُنْسًا ، وَبَدَّدَ مَا فِيهِ مِنْ وَخْشَةٍ . »

وَكُنْتُ أَذْكُرُكَ آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، وَأَتَخَيَّلُ صُورَتَكَ

(١) قَدَّمْتُ ، أَحْسَنْتُ

وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى عِنْدَ مَقْبَرَةِ الْكَنِيسَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ السَّوْدَاءِ .
وَكَلَّمَا ذَكَرْتَكَ أَكَّدْتُ عُرَا الْعَهْدِ ، وَأَحْكَمْتُ الصَّلَاةَ ، حَتَّى
هَيَّأَ اللَّهُ لِي مِنْ أَمْرِى رَشْداً^(١) ؛ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ ، وَمَهَّدَ
لِي سُبُلَ الْوَفَاءِ . وَهَآنَذَا أَرَاكَ الْآنَ وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ فِيكَ أَمَلِي .
وَهَذِهِ آثَارُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ ؛ حَيْثُ هَيَّأَ لَكَ مَا تَسْتَحِقُّ مِنَ
النَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ .

« أَيْ بُنَى ! إِنَّكَ سَتُصْبِحُ » « لُورْدَا مِنْ اللُّورْدَاتِ » ؛ بَلْ
اتَّقَاعُلْ بِأَنَّكَ سَتَفُوقُهُمْ وَتَعْلُو عَلَيْهِمْ .

ثم استطرَدَ فِي حَدِيثِهِ ، وَقَدْ أَخَذَ السَّاعَةَ مِنْ جَيْبِي ، وَنَظَرَ
إِلَى الْخَاتَمِ فِي إِصْبَعِي وَقَالَ : « أَنْظُرْ إِلَى تِلْكَ السَّاعَةِ الذَّهَبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ !
أَنْظُرْ إِلَى الْخَاتَمِ الْمَاسِيِّ الَّذِي يَتَلَأَلُ فِي يَدِكَ ! إِنَّهُ خَاتَمُ رَجُلٍ نَبِيلٍ .
أَنْظُرْ إِلَى مَا لَدَيْكَ مِنْ أَثَاثٍ فَاخِرٍ ، إِنَّهُ بَلَغَ غَايَةَ الْجُودَةِ
وَالْإِحْكَامِ ، وَحُسْنِ التَّنْسيقِ وَالْإِتْقَانِ . »

ثم أَخَذَ يَنْظُرُ فِي نَوَاحِي الْغُرْفَةِ وَقَالَ :
« أَنْظُرْ إِلَى تِلْكَ الْمَكْتَبَةِ الْجَمِيلَةِ وَقَدْ جَمَعْتَ مِنَ الْكُتُبِ
الْثَّمِينَةِ ، وَالْمَجَلَّاتِ النَّفِيسَةِ مَا سَأَلْتُذُ بِسَمَاعِهِ . وَسَأَسْهَدُ بِاجْلُوسِ إِلَى

جَانِبِكَ تُتَرْجِمُ لِي مَا حَوَّثَهُ مِنْ قِصَصٍ رَائِعَةٍ ، وَأَدَبٍ جَمِّ ، وَعِلْمٍ غَزِيرٍ . وَسَأُكُونُ نَخْوَرًا بِكَ ، شَائِدًا بِذِكْرِكَ فِي كُلِّ نَادٍ .

قال « ييب » : ثم عاد المحسنُ ثانيةً يَطْبَعُ عَلَى يَدَيَّ قُبْلَةَ العطفِ والحنانِ الأبويِّ .

هَكَذَا يُؤَثِّرُ الْمَعْرُوفُ فِي أَفْتَدَةِ ذَوِي النَفُوسِ النَّبِيلَةِ ؛ فَلَقَدْ كَانَ جَمِيلُ « ييب » سَبَبًا فِي مُنْمُو عَاطِفَةِ الرَّحْمَةِ فِي قَلْبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ السَّجِينِ ، فَصَارَ وَالِدًا شَفِيقًا ، وَأَبًا كَرِيمًا ، يُنْفِقُ عَلَى « ييب » مِنْ مَالِهِ ، وَيُرِيئُهُ بِمَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ ، حَتَّى أَصْحَى سَعِيدًا جَزَاءً وَفَاقًا لِمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ .

عَرَفَ « ييب » ذَلِكَ فَلَمْ يَسَعُهُ إِلَّا الشُّكْرُ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى يَدَيْهِ يُشَبِّهُهُمْ لَثَمًا وَتَقْبِيلًا ؛ تَقْدِيرًا لَوْفَائِهِ ، وَاعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ . ثُمَّ قَدَّمَ الْمَعْذِرَةَ عَلَى مَا أَبْدَاهُ مِنْ نَفُورٍ فِي سُؤَالِهِ ، وَاشْتِبَاهٍ فِي أَمْرِهِ . وَعَاشَ يَنْعَمُ بِعُطْفِهِ وَحُبِّهِ ، وَالرَّجُلُ قَرِيرُ الْعَيْنِ بِإِخْلَاصِهِ وَحُسْنِ رِعَايَتِهِ لِلْجَمِيلِ . وَلَا رَيْبَ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَبْدُ الْإِحْسَانِ ، وَأَسِيرُ الْمَعْرُوفِ .
أَحْسِنِ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ

فَطَلَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ

الْقِصَّةُ النَّاسِعةُ

« نِل » الصغيرة وجدّها

أو

الضّاحية

هُنَاكَ فِي ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي لَنْدُنْ حَيْثُ أُرْخِيَ الشُّكُونُ
سِتَائِرَهُ، وَتَجَلَّى الْهُدُوءُ يَنْفُثُ فِي الْقُلُوبِ شَيْئًا مِنْ عُرْسِ الطَّبِيعَةِ
وَبَهْجَتِهَا، عَاشَتْ « نِل » الصَّغِيرَةُ مَعَ جَدِّهَا — وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ
عِتْيًا — فِي مَنْزِلٍ عَتِيقٍ طَوَّحَ الزَّمَانُ بِجَدْرَانِهِ، فَأَصْبَحَ خَاوِيًا عَلَى
عُرْشِهِ^(١). عَاشَ الْجَدُّ وَحَفِيدَتُهُ بَعِيدَيْنِ عَنِ الْعَالَمِ؛ فَقَدْ آثَرَا
حَيَاةَ الْعِزْلَةِ وَالْإِنْفِرَادِ. وَلَكِنْ رُوحَ الْفَتَاةِ الطَّاهِرَةِ وَجَدَتْ
السَّعَادَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَعَلِمَتْ الْبَسَمَاتُ ثَغَرَهَا، وَبَدَتْ لِلنَّاضِرِ
مَرَحَةً كَأَنَّهَا فِي هَنَاءٍ، وَهِيَ فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ الرَّهِيبِ^(٢) الَّذِي
يَرُوعُ^(٣) قَلْبَ مَنْ يَأْوِي إِلَيْهِ، أَوْ يَتَوَي^(٤) بِهِ.

أَحْبَبَتْ « نِل » جَدَّهَا حُبًّا جَمًّا، وَقَدَّسَتْهُ الْمُقَدِّسَ كُلَّهُ،

(١) جمع عريش وهو بيت أو خيمة من خشب وثمام. (٢) المفرع الخفيف

(٣) راعه فارتاع: أى أفزعته ففزع. (٤) يقيم به

ولم يكن الجُدُّ أَقلَّ منها تعلقًا وشغفًا ؛ فكثيرًا ما يَرُؤُ^(١) إليها
بنظراتِ العطفِ والحنانِ حتى في أَشدِّ ساعاتِ ألمِه ، ولحظاتِ
يأسِه ، رغمَ ما يُقاسِيه من حُزنٍ دفينٍ كادَ يَقْضِي عليه ، وَيُزْهِقُ
رُوحَه ؛ لكثرةِ التفكيرِ في أمرِ قوتِه ، وما يُخَبِّئُه المستقبلُ لتلك
الطفلةِ المسكينَةِ إذا نَعاها الدهرُ ، واختَرَمَتُه^(٢) يدُ المنيَّةِ . فاشتدَّ
به الهمُّ ، وأصبحَ كثيرَ الغمِّ . لم يَطْفُ بِحُفْنِيهِ طائفُ الكرى^(٣) ،
ولم يَذُقْ للنومِ طعما ، ولم يجدِ للراحَةِ سبيلاً ، إلَّا في تلكِ الفتراتِ
القصيرةِ التي كانَ يَقْضِيها في نَومٍ متقطعٍ في أثناءِ النهارِ على
كرسيِّ حَطْمِ البليِّ بجانبِ الفتاةِ وهي جاثيةٌ^(٤) أمامَه تحاولُ أنْ
تَتَبَّنَ من أساورِ وجهِ المتجعِّدةِ أسبابَ سُرُودِ عقلِه ، وبَلْبَلَةِ^(٥)
أفكارِه . وعَبَثًا ما أَرادَتْه ؛ فقد كانَ أمرُ الشيخِ غامضًا ، ودونِ
الوُصولِ إليه خَرُطٌ^(٦) القَتَادِ .

تَوَارَتْ الأيَّامُ وتَتَابَعَتِ الليالي ، والجُدُّ يَزْدَادُ شُحُوبُهُ ، وتَضَعُفُ
قُوَّاه يوماً بعدَ يومٍ ، حتى صارَ هَيْكَلًا خُفِيْفًا ، صَرَغَتْهُ الهمومُ

(١) رنا إليها : أدام النظر (٢) قطعته واستأصلته (٣) الكرى : النعاس

(٤) جالسة (٥) اضطراب أفكاره ، وشدة همه

(٦) قال في المختار : وفي المثل : دونه خَرُطُ القَتَادِ . نخرط الورق حَتَّه ، وهو أنْ
يقبض على أعلاه ثم يمر يده عليه إلى أسفله . والقَتَادُ شجر له شوك .

وشدائدُ الأسي ، وانشغالُ البَالِ ، وطَحْنَةُ طَحْنِ الرَّحَى بُفَاهَا^(١) .
ازدادَ أَلَمُ الْفَتَاةِ ، وكادَ قَلْبُهَا يَنْفَطِرُ مِنْ هَوْلِ مَا تَرَاهُ ، وقسوةِ
مَا رَمَتْهَا بِهِ السَّنُونُ وَالْأَيَّامُ فِي أَمَلِ حَيَاتِهَا ، وَعَتَادِ مُسْتَقْبَلِهَا .
ولم تَجِدْ « نِل » مناصاً مِنْ أَنْ تَمْتَثِلَ لِلْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ ، والقَدَرِ
الْمَحْتَوِمِ ، فَصَبَّرَتْ نَفْسَهَا ، وَسَكَنَتْ إِلَى بَلَوَاهَا .

لم يَعُدْ ذَلِكَ الْجَدُّ يَحْتَمِلُ أَكْثَرَ مِمَّا احْتَمَلَ ، فاستولتْ عَلَيْهِ
الْحُمَّى ، ووقدَ يَهْدِي فَقَدَ الْإِحْسَاسِ وَالشُّعُورِ عِدَّةَ أَسَابِيعَ ،
عَرَفَتْ « نِل » خِلَالَهَا أَمْرًا خَطِيرًا أَظْلَمَ حَيَاتَهَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ ،
وَأَوْشَكَ أَنْ يُطْفِئَ بِصَيْصِ الْأَمَلِ الَّذِي كَانَ يَلْمَعُ لَهَا بَيْنَ ثَنَايَا
الدَّهْرِ ؛ فَإِنَّ الْمَنْزِلَ الصَّغِيرَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ قَلْبَيْهِمَا ، وَأَوْتَّ
إِلَيْهِ رُوحَاهُمَا ، قَدْ أَصْبَحَ مِلْكَاً لغيرهما مَغْبَةً^(٢) لِإِسْرَافِ جَدِّهَا
فِيمَا لَا يُفِيدُ . فَتَجَسَّمْ أَمَامَهَا شَبَحُ الْفَقْرِ الْمَرُوعِ^(٣) ، وَكَفْهَرَّ
فِي وَجْهِهَا الزَّمَانُ ، وَتَقَادَفَتْهَا عَظَائِمُ الْمَتْرَةِ^(٤) وَالضِّيقِ . غَيْرَ أَنَّ
مِنْ عَادَةِ الدَّهْرِ أَنْ يُحْلِيَ وَيُمِرَّ ؛ فَقَدْ عَادَتْ إِلَى الرَّجُلِ
بَعْضُ قُوَاهُ ، وَأَبْلَّ^(٥) مِنْ مَرْضَاهُ ، رَغَمَ مَا أَصَابَ عَقْلَهُ مِنْ ضَعْفٍ

(١) ثفال . بكسر التاء وضما : الحجر الأسفل من الرّحى .

(٢) نتيجة وعاقبة . (٣) الخيف . (٤) الفقر . (٥) نجا وشق .

أَقْعَدَهُ عَنِ التَّفْكِيرِ ، وَلَمْ يَبْعِدْهُ عَنِ جُلُوسَاتِهِ مَعَ حَفِيدَتِهِ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً يُبَادِلُهَا الْعُطْفَ ، فَيَعْبَثُ بِأَنَامِلِهَا آناً ، وَيُرَبِّتُ^(١) عَلَى شَعْرِهَا آناً آخَرَ ، وَيُقَبِّلُهَا مِنْ جَبِينِهَا ، فَيَرَى الدَّمُوعَ تَسَاقُطَ مِنْ عَيْنَيْهَا حُنُوءًا إِلَيْهِ ، فَيَتَأَخَذُ الْحَيْرَةَ ، وَيَشْتَدُّ بِهِ الْعَجَبُ .

وَلَمْ تَكْذُ « نِل » تَهْنَأُ بِتِلْكَ الْبَارِقَةِ ، وَتَسْتَرِدُّ قَلِيلًا مِنْ ذَلِكَ الْأَمَلِ الْمُحْطَمِّ حَتَّى آتَى الْوَقْتُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُغَادِرَ فِيهِ الْمَنْزِلَ . وَلَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ قَدْ اتَّخَذَ الْعُدَّةَ ، وَلَمْ يَهَيِّ السَّبِيلَ لَذَلِكَ ؛ فَقَدْ كَانَ يَشْغَلُ ذِهْنَهُ فِكْرَةٌ خَفِيَّةٌ مُبْهِمَةٌ لَا تَقْفُ عِنْدَ حَدٍّ ، وَلَا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ ، جَرَّ أَذْيَالَهَا إِلَيْهِ حَفِيدَتُهُ الْوَحِيدَةُ الْمُحْتَاجَةُ إِلَى الْمَعُونَةِ ؛ فَجَعَلَتْهُ حَارًّا مُشْرِدَ اللَّبِّ ، ذَاهِلَ الْفَوَادِ ، وَأَلْهَمَتْهُ عَنِ الْبَحْثِ عَنِ بَيْتٍ آخَرَ يَقِيمُهُمَا نَفَحَاتِ الْبَرْدِ ، وَسَبَرَاتِ^(٢) الشِّتَاءِ ، وَيَلْتَجَتَّانِ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ . وَذَاتَ لَيْلَةٍ بَيْنَمَا كَانَ فِي جُلُوسَةٍ هَادِئَةٍ مَعَ حَفِيدَتِهِ يَدَاعِبُهَا^(٣) كَعَادَتِهِ ، لَحَتْ عَلَى مُجَيَّاهِ^(٤) أَثَرُ تَغْيِيرٍ فُجْأَتِيٍّ أَرَادَتْ أَنْ تَعْرِفَ سِرَّهُ ، فَبَادَرَتْهُ بِالْكَلَامِ ، وَلَكِنَّهُ أَسَارَ إِلَيْهَا بِالسَّكُونِ قَائِلًا :

(١) التَّرْبِيتُ : ضَرْبُ الْيَدِ عَلَى جَنْبِ الطِّفْلِ قَلِيلًا لِيَنَامَ .

(٢) السَّبَرَةُ : الْغَدَاةُ الْبَارِدَةُ . (٣) يَمَازِحُهَا (٤) وَجْهَهُ .

« لِمَتَكَلَّمْتُ بِصَوْتٍ خَافَتْ يَا « نِيل » ؛ فَلَوْ عَرَفَ النَّاسُ
مَقْصِدَنَا لَرَمَوْنِي بِالْجُنُونِ ، وَأَخْذُوكَ مِنِّي . إِنَّا لَنْ نَمُكَّتَ هُنَا
أَكْثَرَ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا . وَسَنَسَافِرُ غَدًا عَلَى أَقْدَامِنَا بَيْنَ الْحَقُولِ
وَالْغَابَاتِ ، وَاضْعَيْنِ نَفْسَيْنَا أَمَامَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ يَا عَزِيزَتِي !
سَنُغَادِرُ هَذَا الْمَسْكَانَ الْمَوْحِشَ ، وَتِلْكَ الْمَنَاطِرَ الْمُفْزِعَةَ إِلَى حَيْثُ
تَحْقُوقُ عَلَيْنَا أَعْلَامُ الْحَرِّيَّةِ ، وَالْوَيْةُ السَّعَادَةِ ، كَمَا تَحْقُقُ فَوْقَ
هَامَاتِ الطُّيُورِ ، بَيْنَ أَزْهَارِ الرِّيَاضِ ، وَأَفَانِينِ الدَّوْحِ ^(١) . »
وَمَا كَاذَ الشَّيْخِ يَنْتَهِي مِنْ حَدِيثِهِ حَتَّى تَحَرَّكَتِ الْفَتَاةُ فِي مَجْلِسِهَا ،
وَاشْتَدَّتْ ضَرْبَاتُ قَلْبِهَا ، وَمَا لَبَثَتْ أَنْ عَادَتْ إِلَى هَدُوءِهَا ،
وَامْتَلَأَتْ إِيمَانًا وَثِقَةً بِاللَّهِ ، فَلَمْ تَفَكَّرْ فِي آلَامِ الرِّحَلَاتِ مِنْ
تَعَسُّرِ الزَّادِ ، وَبُرُودَةِ الْجَوِّ ، وَكَثْرَةِ الْمَطَرِ ، بَلْ هَيَّأَ لَهَا
الْوَهْمُ أَنْ فِي وَسْعِهَا التَّغَلُّبَ عَلَى تِلْكَ الصَّعَابِ مَا دَامَ ظِلُّهُمَا
لَا يَفْتَرِقُ .

هَجَعَ الْكَوْنُ وَانْقَطَعَتِ الْأَصْوَاتُ ، وَاطْمَأَنَّتِ الْأَطْيَارُ إِلَى
أَوْكَارِهَا . وَفِي وَسْطِ ذَلِكَ السَّكُونِ الْمُخِيفِ أَخَذَا يَتَجَاذَبَانِ أَطْرَافَ
الْحَدِيثِ بَيْنَ أَمَلٍ بِاسْمِ ، وَيَأْسٍ مُحْطَمٍ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا الْخِيطُ الْأَيُّضُ

(١) الدوحة : الشجرة العظيمة ، والجمع دوح .

من الخيط الأسود من الفجر، أنسلّا من المنزل يتلمّسان الطريق
وسط هذا الظلام الدّامس، وفي غسق الليل الداجي^(١). ولم يلبثا
إلا قليلاً حتى وقفا حائرّين. فابتدرت^(٢) الطفلة جدّها متسائلةً:
«أى طريق نسلّك يا جدّي؟»

نظر الشيخُ إلى حفيدته وأماراتُ الاضطراب والحيرة باديةً على
وجهه، ولهبُ اليأس بين جوانحه يضطرم، ثم هزّ رأسه هزّةً
اليأس المتحيّر الذي لا يدرى إلى أية جهة يقصد، وأى طريق
يخرق. وليس ذلك منه بعجيب؛ فقد أصبح مشدوه^(٣) العقل،
حائرّ الفكر، فاقد الجنان^(٤)، عيي اللسان، لا يستطيع هدياً
ولا إرشاداً.

حينئذٍ شعرت الفتاة بعيب^(٥) ثقيل ألقي على كاهلها، وعرفت
لأوّل وهلة أنها ستكون منذ ذلك الحين القائدة المرشدة. فوضعت
يدها في يده، وخرجا من المدينة والناس نياماً، لا يدريان أين
يذهبان. وأخذتا يسلكان شوارع طويلة خيم عليها السكون،
وانتشر في رحابها الهدوء، فأثرت الصمت البليغ. وسارا يهديهما

(١) المظلم (٢) ابتدرت : عاجلت (٣) مشدّه الرجل : دُهِش . وقال
أبو زيد : مشدّه الرجل : مُشْغِل لا غير (٤) العقل (٥) حمل

نورُ الصباحِ المبكرِ ، إلى أن خرجت الشمسُ من كِناسِها^(١) ،
تَمَلَّأُ بِأَشْعِثِهَا العَسْجَدِيَّةُ الدُّنْيَا حَيَاةً وَسَنًا^(٢) . وامتَلَأَتِ الطُّرُقَاتُ
بِالْعَادِينَ وَالرَّائِحِينَ . ظَلًّا سَائِرِينَ آمِنِينَ حَتَّى قَضَيَا سَجَابَةَ
نَهَارِهِمَا . وَمَا كَادَ الْمَسَاءُ يُقْبِلُ بِظَلَامِهِ الْحَالِكِ ، حَتَّى أَلْقَيَا عَصَا
التَّسْيَارِ^(٣) فِي ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي لَنْدَنَ ، فَقَضَيَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي
حَجَرَةٍ اسْتَأْجَرَاهَا فِي كُوَيْخٍ صَغِيرٍ .

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ اسْتَأْنَفَا سَيْرَهُمَا قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ عَلَيْهِمَا الشَّمْسُ .
وَمَا زَالَا سَائِرِينَ حَتَّى أَتَاهُمَا الْمَشْيُ ، وَأَضْنَاهُمَا الْجُهْدُ^(٤) ، وَاتَّثَرَتْ
فِيهِمَا مَسْقَةُ السَّفَرِ . فَأَوَيَا إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ وَارِفَةٍ يَتَقَيَّانِ^(٥)
فِي ظِلَّالِهَا ، وَيَقْضِيَانِ فِي كَنَفِهَا وَقْتَ الظُّهْرِ ، وَيَتَقَيَّانِ أَشْعَةَ
الشَّمْسِ . وَبَعْدَ أَنْ اسْتَجْمَعَا نَشَاطَهُمَا ، أَخَذَا طَرِيقَهُمَا إِلَى إِحْدَى
الْمَدَنِ لِيَقْضِيَا فِيهَا لَيْلَتَهُمَا .

وَبَيْنَمَا هُمَا سَائِرَانِ تَقَابَلَا مَعَ اثْنَيْنِ مِنَ الْمَسَافِرِينَ أَمِنَا إِلَيْهِمَا ،
وَاطْمَأْنَأَا إِلَى جَانِبِهِمَا ، فَاسْتَمَرَّا فِي رُقُقَتِهِمَا يَوْمَيْنِ مَرُّوا خِلَالَهَا

(١) مِنْ مُخْتَبِئِهَا (٢) السَّنَا : الضَّوْءُ (٣) السَّيْرُ (٤) الْجُهْدُ : الْمَشَقَّةُ .

(٥) يَتَقَيَّانِ فِي فِيئِهَا : يَسْتَضِلُّانِ فِي ظِلِّهَا .

بعضِ المدنِ والقُرى حتى وصلوا جميعاً إلى مكانِ السَّباقِ مع رفيقينِ جديدينِ من الشُّبان .

وقد رأت « نل » فيهم قسوةَ المعاملة ، وغرابةَ الحال ، ولكنها لمست بين جنوبهم قلوباً تمتلئ شفقةً وتفيضُ حناناً .

وفي ضوءِ السَّباقِ سَنحت لها الفرصةُ لكسبِ ما تَقَاتُ به هي وجَدُّها ؛ فحاولت بيعَ بعضِ الأشياءِ للنَّظَّارةِ ^(١) . ولم كانت تودُ السفرَ في حمايةِ هؤلاء الشُّبانِ لولا أنها شعرت بسوءِ طويَّتهم وخُبثِ دَخيلتهم ، وما تُكِنُّه نفوسُهم من الخيانةِ لهما ؛ فقد اشتبهوا فيهما ، وهُموا بإبلاغِ أمرِهما إلى الشرطيِّ ليرجعا إلى حيثُ كانا .

أطلقت « نل » عِنانَ الفكرِ والتَّأمُّلِ ، وسبَّحت في بحارِ الخيالِ ، فاهتدت إلى الحقيقةِ ، وأيقنت أنَّ أمرَ الجدِّ لو عُرِفَ لانتهى به الطَّوافُ إلى مستشفى المعتوهين . فيحرمُ نورُ الشمسِ ورؤيةَ السماءِ ، وتفقدُ ما كانت تحسُّه من لَذَّةٍ وغبطةٍ وهي بجوار جدِّها ، يتبادَلان العطفُ والمودَّةُ ، ويرتشفان كثوسَ الصفاءِ والحياةِ والإخلاصِ ، فأخذت تبحثُ عن مَخْرَجٍ من أعينِ الرُّقَباءِ لِنَقْطَعِ

(١) النَّظَّارةُ : القوم ينظرون إلى الشيء .

حَبَائِلَ أَهْلِ الشَّرِّ ، وَتَرَدَّ كَيْدَهُمْ حَتَّى تَهَيَّأَ لَهَا ، فَوَضَعَتْ يَدَهَا
فِي يَدِ جَدِّهَا ، وَسَارَا لَا يَلْوِيَانِ عَلَى شَيْءٍ . فَوَصَلَا إِلَى قَرْيَةٍ
صَغِيرَةٍ ، وَرَأَاهُمَا مَدْرُسٌ بِهَا ، طَيِّبُ الْقَلْبِ ، سَهْلُ الْخُلُقِ ،
حَسَنُ الْمَعَامَلَةِ . فَرَقَّ لِحَالِهِمَا ، وَعَطَفَ عَلَيْهِمَا ، وَهُوَ مُعْجَبٌ
بِعَذُوبَةِ « نِل » الْمُسْكِينَةِ ، وَكَمَالِ طَبْعِهَا . وَرَحَّبَ بِضِيَاقِهِمَا
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَقِيَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْكَرَمِ مَا أَنْسَاهُمَا مَسَاقَ
السَّفَرِ ، وَقِيَلَاتِ الْإِغْتِرَابِ ، وَعَذَابِ التَّزْوِجِ عَنِ الدِّيَارِ .

وَلَمَّا أَذِنَ مُوَدَّنُ الرَّحِيلِ وَدَّعَهُمَا مَدْرُسُ الْقَرْيَةِ ، وَسَارَا فِي
طَرِيقٍ رَيْفِيَّةٍ جَمِيلَةٍ قَدْ أَسْبَلَتْ عَلَيْهَا الطَّبِيعَةُ ثِيَابًا مُوشَّاةً^(١) مِنْ
جَلَالِهَا الْقُدْسِيِّ ، وَافْتَنَّتْ يَدُ الْخَالِقِ فِي تَنْسِيقِ أَشْجَارِهَا
الْفَيْنَانَةِ^(٢) . فَأَوَتْ إِلَيْهَا الْعِنَادُلُ وَالْأَطْيَارُ ، وَوَجَدَتْ فِيهَا مَرْتَعًا
خَصِيبًا . وَانْطَلَقَتْ صَادِحَةٌ^(٣) شَادِيَّةٌ ، تَتَرَنَّمُ بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ ،
مُرَدَّةً آيَاتِ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ لَخَالِقِ السَّمَوَاتِ ، وَمُبْدِعِ الْكَائِنَاتِ .
لَفَتَتْ « نِل » وَجَدَّهَا هَذِهِ الْمَنَاطِرُ الرَّائِعَةُ ، وَأَنْسَا بِتَغْرِيدِ الطُّيُورِ ،

(١) مرقومة منقوشة . (٢) الكثيرة الأغصان . (٣) صدح الرجل
والطائر : رفع صوته بغناء .

وَتَنَاوُحٌ^(١) الْأَفْنَانِ ، فَاطْمَأَنَّ قَلْبَاهُمَا ، وَعَاوَدَهُمَا الشَّرُورُ ، وَوَدَّ
 لَوْ بَقِيََا فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ مُدَّةَ سَفَرِهِمَا . وَلَكِنْ أَنَّى لَهُمَا ذَلِكَ ،
 وَقَدْ وَصَلَ بِهِمَا السَّيْرُ إِلَى طَرِيقٍ مُتَعَرِّجَةٍ كَثِيرَةِ الْإِتْوَاءِ ، وَعَرَّةٍ
 مُقْفَرَةٍ لَمْ يَجِدَا فِيهَا سُبُلَ الرَّاحَةِ وَالسَّرُورِ ؟ فَتَسَرَّبَ إِلَيْهِمَا الْيَأْسُ ،
 وَدَبَّ فِي أَعْضَانِهِمَا ذَيْبُ التَّعَبِ ، فَسَارَا يُبْطِئُ حَتَّى الْمَسَاءِ .
 وَصَلَا إِلَى هَوْدَجٍ فِي جَانِبٍ مِنَ الطَّرِيقِ ، عَلَى شَكْلِ مَنْزِلٍ
 صَغِيرٍ جَمِيلٍ ، أُقِيمَ أَسَاسُهُ عَلَى عَجَلَاتٍ ، وَقَدْ جَلَسَتْ عِنْدَ بَابِهِ
 سَيِّدَةٌ بَدِينَةٌ ، أُمَامَهَا مَائِدَةٌ صَغِيرَةٌ ، بِمَشُوشٍ أَيْضَ ، تَشْرَبُ قَدْحًا
 مِنْ (الشَّاي) وَهِيَ تَتَفَيَّأُ^(٢) فِي ظِلِّ السَّعَادَةِ ، مُتَسَرِّبَةً لِبَاسِ الْهَيْبَةِ
 وَالْوَقَارِ ، تَحْسِبُ^(٣) أَنَّهَا تَتَنَاوَلُهُ عَلَى مَوَائِدِ الْمُلُوكِ وَأَرْبَابِ التَّيْجَانِ .
 أَرَادَتْ « نِلَ » أَنْ تَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا ، وَلَكِنْ جَلَالُهَا عَقَدَ لِسَانَ
 الْفَتَاةِ أَنْ يَنْطِقَ ، وَأَلْجَمَ تَغْرِهَا أَنْ يَفُوهَ ، وَلَكِنْهَا بَعْدَ تَرَدُّدٍ وَإِقْدَامٍ
 تَجَشَّمَتْ مَشَقَّةَ السُّؤَالِ فَاقْتَرَبَتْ مِنْهَا ، وَسَأَلَتْهَا عَنِ الْمَسَافَةِ إِلَى
 أَقْرَبِ بَلَدٍ يَذْهَبَانِ إِلَيْهَا ، وَبَزَكَنَّانٍ إِلَى الرَّاحَةِ فِيهَا . فَأَخْبَرَتْهَا
 بِأَنَّهَا ثَمَانِيَةُ أَمْيَالٍ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهَا نَظْرَةً أَلَمَّتْ فِيهَا بِحَالِهِمَا ،
 وَمَا أَصَابَهُمَا مِنْ نَصَبٍ^(٤) الْهَجَرَةِ ، وَعَنَاءٍ^(٥) الرَّحِيلِ . فَلَمْ تَكْتَفِ

(١) تقابل (٢) تستظل (٣) يظن (٤) تعب (٥) مشقة

بإعطائهما (الشأى) ، بل دعتهما إلى الإقامة معها الليلة رافئة بهما ، وإشفافاً عليهما ، فقبلا الدعوة شاكرين .

كانت صاحبة الهودج واسمها السيدة « جازلى » تُديرُ معرضاً للشَّمْع ، فطلبت إلى الفتاة أن تقوم بتقديم الصور إلى زائري المعرض ؛ لما ظنته فيها من حُسن الخلق ، ورقة الشَّيم ، وعذوبة اللسان ، وجمال الطبع ، ووعدتها بأن تُمدّها بما يكفلُ لها ولجدها حياةً رغداً مطمئنةً . فقبلت الفتاة ، وأثنت على حُسن رعايتها . وهكذا قدَّر لها أن تعيدَ سيرتها الأولى ؛ إذ نعت بالسعادة مع جدّها الهرم في ظلِّ تلك السيدة البارة الرحيمة .

دار الزمانُ دورته ، وعاد الجدُّ إلى سالفِ أيامه من بؤسٍ وشقاء ؛ فقد خرج ذات ليلةً مع حفيدته ، وضرباً فيما حول المدينة من رياضٍ جميلةٍ ، وحقولٍ زاهرةٍ ، ومروجٍ خضراءٍ ، يُمتعان النفسَ بجمال الطبيعة الأخاذة ، ويستعيدان ذكرى الماضي ، وما صارَ فيه من نعيمٍ ورفاهية^(١) . وبيناهما في أحلامهما إذ عَصَقَتْ بهما ريحٌ شديدةٌ أنستهما آمالهما ، وبددتْ سَحْبَ هوائتهما ، فأجأتاهما^(٢) إلى حانةٍ صغيرةٍ أخذاً مكانهما في ناحيةٍ منها حتى

نزول العاصفة ، وتهدا الطبيعة الثائرة . ولكن شاء القدر أن تقع
 المسكينة نهبا للشقاء مرة أخرى ؛ فقد حانت من الشيخ التفاتة
 فوقع نظره على جماعة من الأشرار يلهون ، فدنا منهم يرقب
 حركاتهم في اهتمام ، فعاوده الحنين إلى اللهو واللعب ، وسرت
 بين جوانحه ذكريات الماضي ، وتطلعت نفسه إلى مشاركتهم .
 ولكن كيف السبيل إلى إشباع هذه الرغبة الجارحة التي انتهت به
 إلى هذا المصير المؤلم ، وجعلته جواب آفاق ؟ وأنى له بالمال الذي
 يدفعه ثمنا لهذا اللعب الآثم الذي طالما أظلم الحياة في وجوه
 السعداء ؟ ما كان لهذا الشيخ الفاني بعد أن شعر بشيء من العافية
 والسعادة بفضل حفيدته البائسة « نل » إلا أن يهدم صرح
 سعادتها الجديدة ، وأن يظهر شيطانا مريدا يسرّه أن يشقى غيره ؛
 فقد استولى على حافظه النقود التي لحفيدة ، وفيها كل ما تملك
 من حطام الدنيا . فتضرعت إليه أن يرحم ضعفها ، ويكف عما
 شرع فيه . ولكن حمى اللعب قد لعبت بعقله الغافل ، وأفقدته
 رُشدّه ، فضرب بقولها عرض الحائط ، وتقدم إلى الجماعة شرها
 في اللعب كأنه يريد أن يعوّض ما فاتّه . ولما لم تجد الفتاة

سبيلاً إلى إقناعه جلست حزينّة القلب ، باكية العين ، ذاهلة الفؤاد ، تفضّل أن يهبط^(١) عليه ملك الموت فيقبض روحه ، عن أن تراه متهاكاً على اللهو الذي كان سبباً في ضياع منزله وسوء حاله .

انقضى الليل إلا أقلّه ولم ينتهِ اللعب ، فلم تجد « نل » مناصاً من المييت في تلك الحانة ، فارتمت على كرسيها خائرة القوى . أخذ الكرى^(٢) بمعاقد أجفانها ، فرأت شبهاً^(٣) في المنام سطا على كيس نقودها ، فسلب ما فيه بيدٍ مرتعشة ونظر حائر ، يقبها حيناً ، ويضعي حيناً آخر ؛ خوفاً من أن تستيقظ . ولكنها استيقظت من نومها منزعجة ، وهبت من مرقدِها مذعورة ، فوقعت عيناها على جدّها وهو يسترق الخُطو ويسرق الدّراهم .

هكذا قدّر للفتاة أن تودّع أيام الصّفو والهناء والسعادة ، وأن تستقبل نذر الشقاء ؛ فقد أصبح من المتعذّر أن يقبلع الشيخ عن طغيانه ، وزاده توسّل فتاته تهاوتاً على اللهو ، فانقلب عطفه على حفيدته غلظة وخشونة ، وأصبحت وداعته شراسة ، ولينه فظاظة . واشتدّ في طلب النقود منها ليُطفي غلته ، ويروي ظمأه ، ولكن

ما الْعَمَلُ ، وهى لا تملكُ سوى راتبها الضئيل الذى تنقاضُهُ
من السيدةِ « جَارِلِي » ؟ ولما لم تُسَعِفْهُ بِالْمَالِ الْكَافِي لِإِشْبَاعِ نَهْمَتِهِ
عَوَّلَ عَلَى سُرْقَةِ السَّيِّدَةِ « جَارِلِي » التى أَوْثَمَهُمَا بَعْدَ ضَلَالِهِمَا فِي
يَبْدَاءِ الْفَقْرِ الْمُدْقِعِ ، وَصَحْرَاءِ الذَّلِّ وَالْفَاقَةِ ، وَأَحْسَنْتَ إِلَيْهِمَا بَعْدَ مَا
حَلَّ بِهِمَا مِنَ الْوَانِ الْعَذَابِ ، وَالْمِ السَّفَرِ وَالْإِغْتِرَابِ .

قَلْبَ الدَّهْرِ لَسِيلُ ظَهَرَ الْمَجْنُ ، وَبَدَّلَهَا مِنْ نَعِيمِهِ بِؤْسًا ،
وَمِنْ سَعَادَتِهِ شِقَاءً ؛ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا الشَّيْخُ الْأَثِيمُ بِسُرْقَةِ
رَبَّةِ نَعْمَتِهِ ، أَخَذَتِ الْفَتَاةُ يَدَ جَدِّهَا قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى جَرِيمَتِهِ ،
وَتَرَكْتَ تِلْكَ الْبَلْدَةَ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ رَابِطَةً الْجَأَشِ ، غَيْرَ مُحْتَاجَةٍ
إِلَى نَصِيحَةٍ أَوْ مُسَاعَدَةٍ ، مُحْتَزَّةٌ حَارَاتِ الْقَرْيَةِ وَأَزَقَّتْهَا ، تَرْتَعِدُ
مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ ، وَقَدْ تَوَالَتْ عَلَيْهَا الْهَمُومُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَتَرَاءَتْ
عَلَى صَفْحَةِ ذَهْنِهَا الْمَسْكُودِ ذِكْرِيَّاتُ الْمَاضِي التَّعَسُّةِ ، وَتَصَرُّفَاتُ
الدَّهْرِ الْقَاسِيَةِ . فَلَمْ تَرْتَبِدْ مِنْ تَسْلِيمِ نَفْسِهَا لِلْإِلَهِ الْقَادِرِ يُصَرِّفُهَا
أَنَّى شَاءَ . فَاقْتَضَتْ عِنَايَةَ الْبَارِي أَنْ يَبْدَأَ رَحْلَةً أَقْسَى مِنَ الْأُولَى
ذَاقًا فِيهَا مِنَ الْوَانِ الْآلَامِ مَا نَأَتْ عَنْ حَمَلِهِ الْجِبَالُ ؛ فَقَدْ نَامَا
تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْخَلَاءِ يَتَوَسَّدَانِ الثَّرَى ^(١) ، وَيَلْتَحِفَانِ بِالسَّمَاءِ .

وفي الصَّبَاحِ الباكرِ عَرَضَ عَلَيْهِمَا بَعْضُ المَارِّينِ أَخْذُهُمَا عَلَى
مَرْكَبَاتِهِمْ ، فَلَقِيتَ (نِـل) مِنْهُم عَطْفًا وَإِشْفَاقًا ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا
كثِيرِي الشَّغَبِ والمَشَاجِرَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ . فوجِفَ ^(١) قَلْبُ الفَتَاةِ ،
وَمَلَأَ الرَّوْعُ ^(٢) فُؤَادَهَا . وَيَنِينَا هُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِذْ تَغَيَّرَتِ الحَالُ ،
وَكَفَهَرَّ وَجْهُ الكَوْنِ ، فَأَمْطَرَتْهُمُ السَّمَاءُ مَطَرًا هَتُونًا ^(٣) ، وَاسْتَمَرَّتْ
تَهْمِي ^(٤) وَيَنْدَفِعُ وَدْقُهَا ^(٥) حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ بَعْدَ أَنْ
جَهَدُوا . فَأَخَذَتْ « نِـل » وَجَدُّهَا يَحْوسَانِ خِلَالِ الدِّيَارِ ، وَجُيُوبُهُمَا
خَالِيَةٌ الوَفَاضِ ، وَلَيْسَ مَعَهُمَا شَرْوَى نَقِيرٍ يَحْفَظُ رَمَقَهُمَا ^(٦) .
فَتَقَرَّسَا أَوْجُهُ المَارَّةِ عَلَيْهِمَا يَجْدَانِ مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ يَرِقُّ لَضَعْفِهِمَا
فِيكْرِمُ وَفَادَتَهُمَا . وَلَكِنْ لَمْ يُغْنِ البَحْثُ فَتِيلًا ، فَافْتَرَشَا
البَسِيطَةَ ، وَقَضَيَا عَلَى تِلْكَ الحَالِ يَوْمَيْنِ ، لَمْ يَحْصُلَا فِيهِمَا عَلَى
قُوْتٍ سِوَى رَغِيفٍ تَقَاسَمَاهُ . وَلَمَّا جَاءَ اليَوْمُ الثَّالِثُ — وَقَدْ بَلَغَ
الضَّعْفُ بِالْفَتَاةِ مَبْلَغَهُ ، وَأَنَهَكَهَا المَرَضُ ، وَلَمْ تُظْهَرْ شِكَايَةٌ وَلَا أَلْمَاءُ —
صَمَّمَتْ فِي الرَّحِيلِ مِنْ تِلْكَ المَدِينَةِ الصَّاخِبَةِ إِلَى الرِّيفِ الهَادِيَّ
تَشْدُ أَمْنًا وَقَرَارًا ، وَتَأْمُلُ خَفْضَ العَيْشِ ، وَرِفَاهَةَ الحَيَاةِ ،

(١) اضطرب (٢) الخوف والفرع (٣) هتت المطر : قطر

(٤) تسيل (٥) مطرها (٦) الرمق : بقية الحياة

فكابدت هي وجدّها مشاقّ السفر . وفي الطريق لاح لها عن
بعد شبحُ مُسافرٍ يسيرُ أمامها ، فأحياها شعاعُ الأمل ، وتقدّمت
تستحيّ السّيرَ لتأنّس به ، ولكن كيف الوصولُ وهي مُتهدّمةُ
القوى ؟ فلم تلبث أن هوت على وجهها تئنّ وتصرخُ بصوتٍ
خافتٍ ، أثكتهُ حادثاتُ الزّمان ، ونكبتهُ النَّباتُ ، وقصّمتهُ
الأرزاءُ ؛ فقد كانت تجدّ في السّيرِ على الطّوى^(١) أيّامًا ، وتُغالبُ
البؤسَ والبلَاءَ حتى سقطتْ خائرةُ القوّة ، مُقطّعةَ القلبِ .

سمعَ المسافرُ أنينها ، فهزول^(٢) إليها لانتقادها ، فإذا هي فاقدةُ
الوعي ، فأشفق عليها ، وحملها بلينٍ ورفقٍ إلى فُنْدُقٍ صغيرٍ
قريبٍ منهما ، حيث وُضعت بعنايةٍ في الفراش . استشار في
أمرها الطّبيبَ ، فكتب لها الدّواء ، ووعدَه الشّفاء . وسُرعان
ما عادَ إلى « نل » رُشدُها ، فوقعَ نظرُها لأوّل وهلةٍ على ذلكم
الشخصِ الذي كان سببَ بقائها ؛ فإذا هو المدرّسُ صاحبُ الأيدي
البضاء عليها من قبل ، كان في طريقه إلى منزله الجديد .

أبّلت^(٣) « نل » من مرضها ، وعاوَدَها مرّحها وسرورها ، فنصحَ

لها المدرّسُ بِمُرافَقَتِهِ إلى القَرِيَةِ التي نُقلَ إليها ، وأخبرَها بأنّه سَيَبْذُلُ قُصَارَى جُهدِهِ في البَحْثِ عن عَمَلٍ يَكْسِبَانِ مِنْهُ قُوَّتَهُمَا ، مُنْأَلًا إِلَيْهِ ، وَجَنَحًا إِلَى مَشُورَتِهِ . وَأَقَامَا فِي تِلْكَ القَرِيَةِ الرِّيفِيَّةِ هَادِئَيْنِ مُطْمَئِنِّينِ . وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ « نِل » تَذْهَبُ خُلُسَةً إِلَى الكَنِيسَةِ ، وَتَجْلِسُ بَيْنَ الصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ المُنْحَوْتَةِ عَلَى القُبُورِ ، تَفَكِّرُ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ ، وَجَمَالِ الرِّيعِ ، وَتَغْرِيدِ الطُّيُورِ ، مِمَّا تَتَنَعَّشُ بِهِ الحَيَاةُ ، وَيَعْلَا النُّفُوسَ بِهَجَّةٍ وَرَوْعَةٍ . وَلَكِنَّ وجودَهَا بَيْنَ أَحْضَانِ الرُّمُوسِ ^(١) ، وَمَا قَاسَتْهُ فِي حَيَاتِهَا مِنْ ضُرُوبِ الشَّقَاءِ وَالْأَلْوَانِ العَذَابِ — أَيقِظَا فِي رُوحِهَا حُبَّ الدَّارِ البَاقِيَةِ ، وَحُبًّا إِلَيْهَا النُّزُوعَ عَنِ الحَيَاةِ الفَانِيَةِ ، حَيْثُ تَرَفَّرُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، وَرُسُلُ السَّلَامِ .

غَالَتْ « نِل » فِي أَفْكَارِهَا وَهَوَاجِسِهَا ، وَأَخَذَتْ تَسْتَرْجِعُ أَيَّامَ بُوْسِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى الشَّدَائِدِ ، فَمَا زَادَهَا ذَلِكَ إِلَّا وَهْنًا ^(٢) عَلَى وَهْنٍ ، فَبَدَأَ نَجْمُ حَيَاتِهَا يَافُلُ ، وَأَخَذَتْ زَهْرَتُهَا تَذْبُلُ ، حَتَّى وَافَاهَا القَدَرُ المَحْتَوِمُ . فَلَبَّتْ نِدَاءَ رَبِّهَا غَيْرَ أَسْفَةٍ عَلَى حَيَاتِهَا ، وَذَهَبَتْ ضَحِيَّةً جَدُّهَا ، وَدُفِنَتْ فِي مَقَابِرِ الكَنِيسَةِ الَّتِي كَانَتْ

تجلسُ إليها مُستَسِمَةً لخَواطِرِها المُوَلِّة. فحزنَ الجُدُّ حُزنًا شديداً؛
فقد فارقَه قَبَسُ الأملِ الذي استضاء به، ومَن كانت له عَوْنًا في
المِحَن، وهادِياً وَقتَ البلاءِ. فأقامَ على قَبْرِها جاثِياً على رُكْبَتَيْهِ،
يَنْدُبُ حَظَّهُ وسوءَ مَصِيرِهِ، وأمامَهُ قُبْعَةٌ لها من القَشِّ،
وبجانِبِهِ السَّلَّةُ التي كانت تَحْمِلُها — وعيناه تَقْطُرُ دُمًّا — يَنْتَظِرُ
أَوْبَتَهَا^(١) فلا تَعُودُ. فَمَلَّ الحِياةَ، وأَبْغَضَ كُلَّ شَيْءٍ في الوجودِ،
وودَّ من صَمِيمِ فُؤادِهِ أن يودَّعَ العالمَ، فيلْحَقَ بَمَن بَدَلَتْ
حَياتُها رَغْبَةً في إِسعادِهِ.

بَقِيَ الجُدُّ على تلكِ الحالِ يَنْعَى^(٢) حَفِيدَتَهُ، وَقَدَمَاهُ تُسْرِعَانِ
الْخَطُوفَ إلى هَاوِيَةِ القَبْرِ، ورُوحُهُ يُنَاجِيها مَلَكُ المَوْتِ من
أَبوابِ السَّماءِ، حتى فاضَتْ مُسْتَسِمَةً إلى خالِقِها. فوَسَدَ الثَّرَى^(٣)
بِجِوارِ فِتاَتِهِ، تُظِلُّهُما سَمَاءٌ قَبْرٍ واحدٍ، يَرْتَشِفانِ رَحيقَ الحِياةِ الخالدةِ،
بعد ما جَرَعَا أَقْداحَ المِذَلَّةِ والهَوَانِ، بين أَحْضانِ الحِياةِ الزَّائِلَةِ.

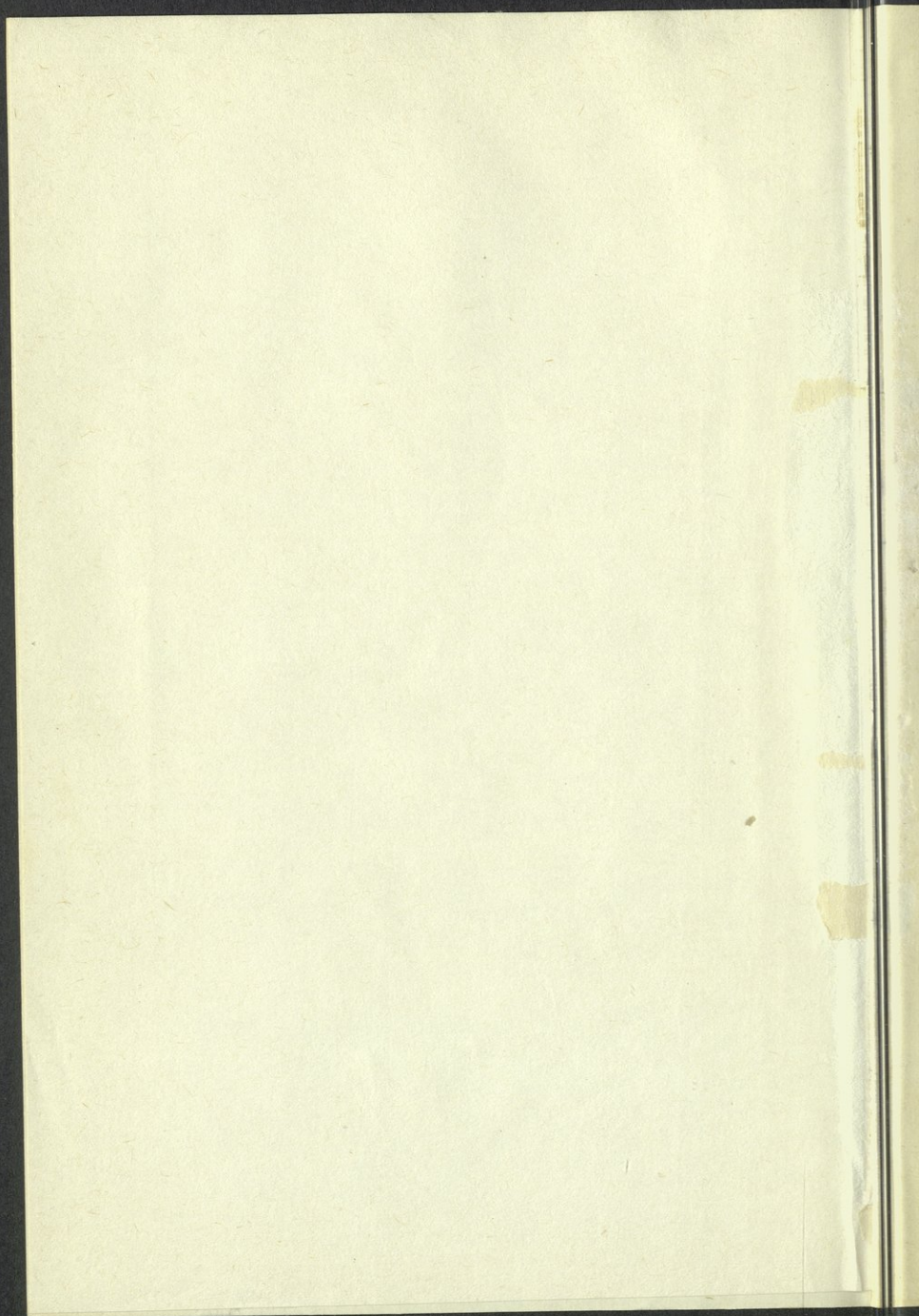
﴿ انتهى والحمد لله ﴾

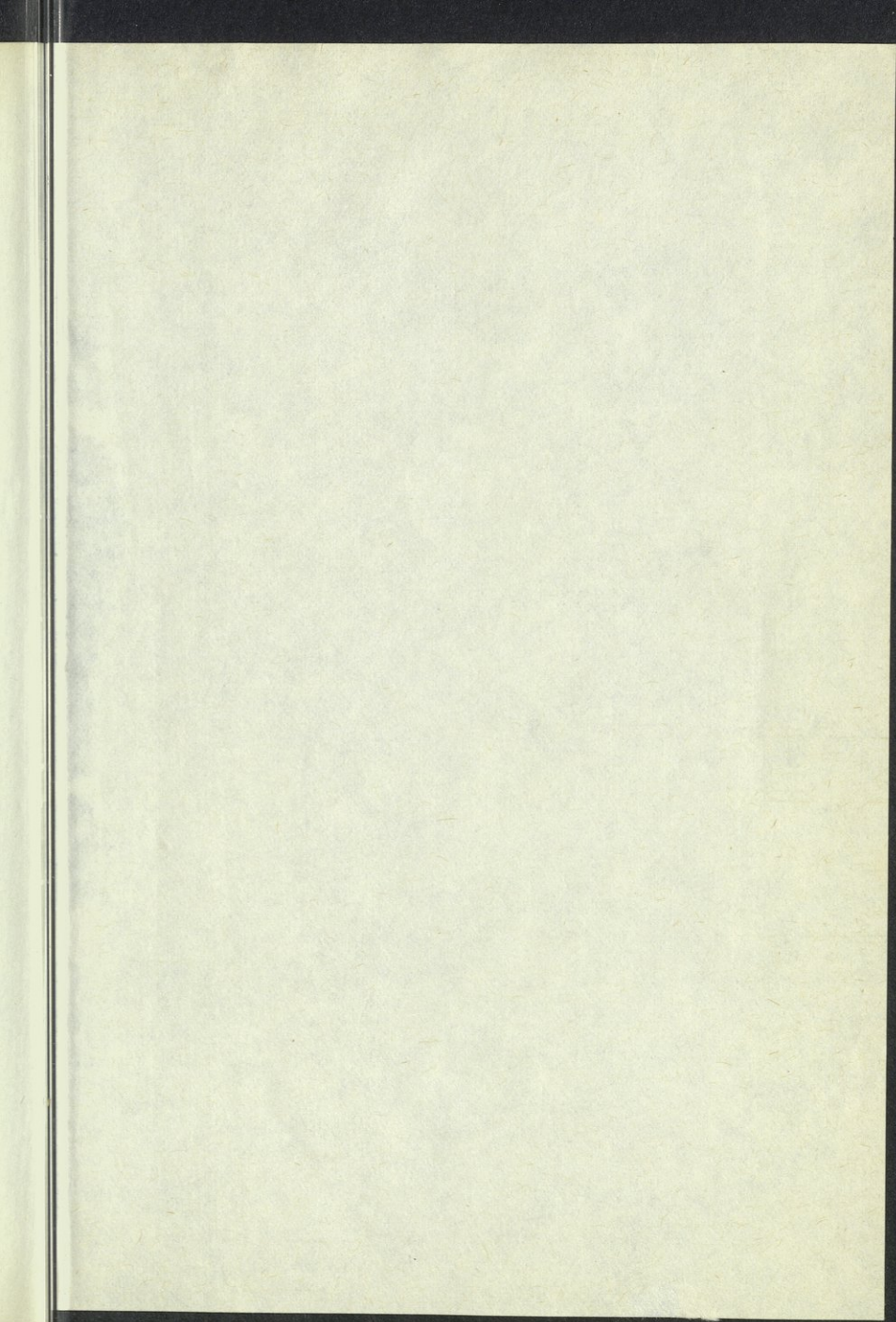
(١) رجوعها (٢) النعى : خبر الموت

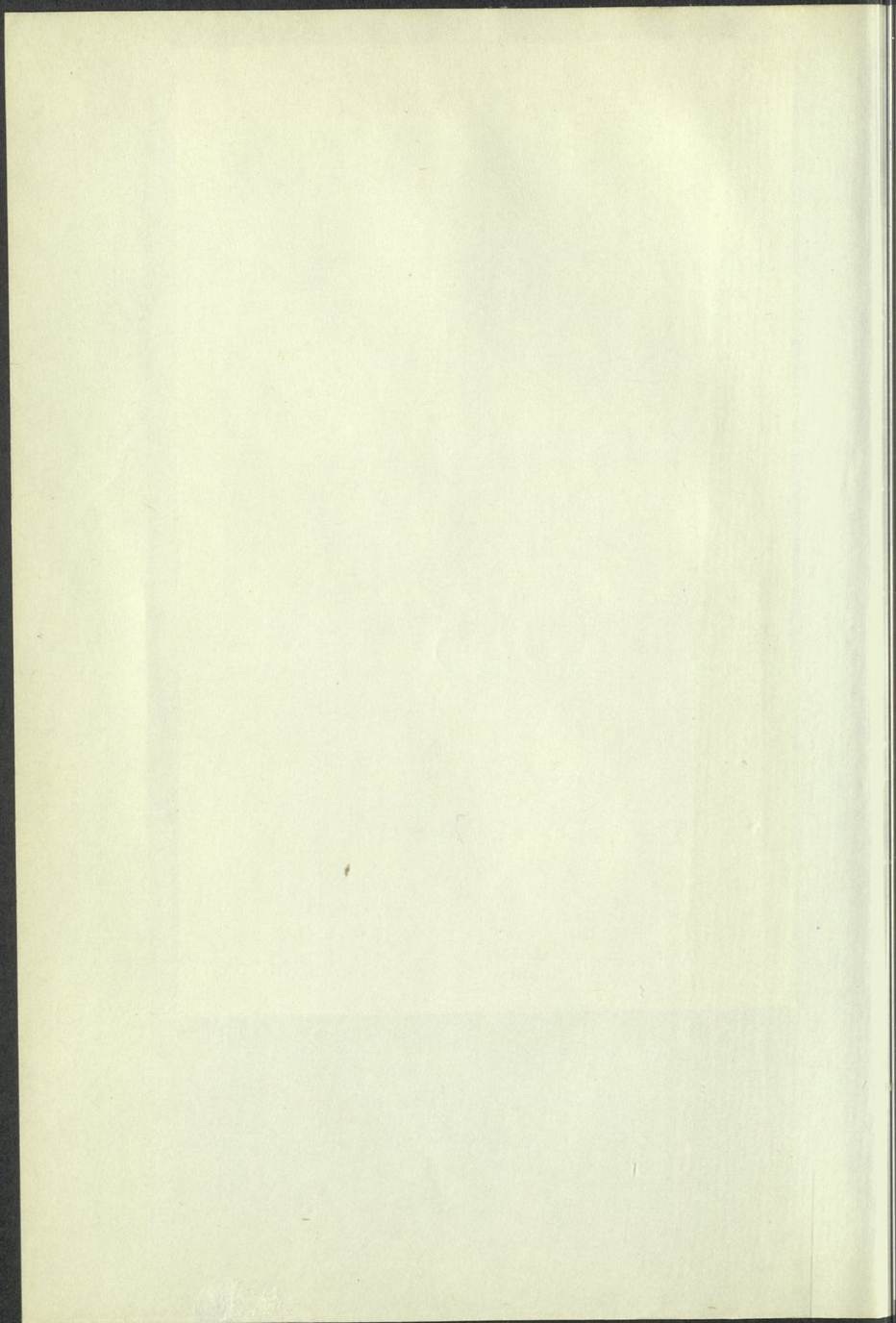
(٣) الثرى : التراب

فهرست

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٧	حياة تشارلز دكنز
١٦	القصة الأولى : دافيد كبر فيلد ✓
٣٧	» الثانية : كناس هولبورن — أو طريد المجتمع ✓
٥٤	» الثالثة : پول دُمبي الصغير — أو الأمل الضائع
٧١	» الرابعة : صانعة اللعب — أو من الخيال إلى الحقيقة
٨٤	» الخامسة : (المَرَكِونِس) — أو الخادم المسكينة
٩٦	» السادسة : (درّت) الصغيرة
١١١	» السابعة : (تيم) الكسيح الصغير
١٢٢	» الثامنة : مخاطرة (ييب) — أو لا يضيع جميل أبنا وضع
١٤٠	» التاسعة : (نل) الصغيرة وجدها — أو الضحية







DATE DUE

~~21 JUL 1988~~



JAFET LIB.

~~1 APR 1988~~

DATE DUE

~~21 JUL 1985~~



JAFET LIB.

~~1 APR 1988~~

